D3
M3

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY



حماة الإسلام

تأليف

كاتب من كبار الكتّاب

الجـــزء الأول

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لصاحب اللواء

(الطبعة الاولى)

(بمطبعة اللواء بباب اللوق بمصر)

DS
38.4
.A2
N34
1901

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلى على نبيه الكريم سيد الانبياء والمرسلين . وبعد فقد رأيت ان المسلمين فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم محتاجون الى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة اكثر من غيرهم مفتقرون الى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسبل نجاح أسلافهم . غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم . تلك المفاخر التى يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للأتيان بمثلها . وعلمت من سياحاتى فى بلاد الغرب ورحلاتى اليه ان أهم الأمور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للأوطان منارا عاليا وشيدوا من المجد صروحا لاتنالها يد الحدثان وأقاموا للعلم والفضيلة بنيانا وأى بنيان . وان للقوم فى ممالك أوروبا حرصا شديداً على تلك السير فتراهم يباهون بها الامم ويجعلونها الأبنائهم وناشئيهم الدروس الأولى والقصص التى بها يتفكهون ومنها يتعلمون

فدفعتنى محبة الاسلام ورغبتى الاكيدة في خير بنيه ورفعة أهله الى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع تراجم

عظماء الرجال فى الاسلام تنبيها للغافلين . وارشاداً للجاهلين . واحياء لتلك المآثر الباهرة . والسير العاطرة . فأجاب الدعوة حبا للخدمة العامة واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصا لوجه الله الكريم

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى اللواء تحت عنوان « حماة الاسلام » فكان لها من الدوي والرنين مالم تنله أبدع رسائل المنشئين . وأجود منشآت الكاتبين . مما حبب الينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الامة الاسلامية الكريمة عساها اذا ذكرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيي منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة

والله المسؤول أن يجزي المؤلف خيراً ويحقق مانؤمل من عز وارتقاء للاسلام والمسلمين

مصر فى ٤ ذى الحجة سنة ١٣١٨ (مصطفى كامل)

مقدمة المؤلف

ان الحكيم الذي ينصب نفسه لتربية الأمة يجب عليه ان يدخل بها في كثير من أبواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الأخلاق ليتحقق من استعدادها الفطري ويظهر له الوجه الذى تصبو اليه والموطن الذى تألفه والمقصد الذي تتوجه اليه حتى اذا دعاها الى الولوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحا لها لبته لأنه أصبح هو وشوقها عليها

وقد رأينا ان الذين نصبوا أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير. ثم واجهوها بالزجر والاعنات . وضربوا لها الأمثال . وحذروها عواقب ماهى فيه ودعوها الى محاذاة الأمم ومجاراتها . وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة . ثم رأينا ورأوا انهم على طول هذا الزمان لم يصلوا الى كل ماأرادوا بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادئ الشريفة التى نهجوها وأرادوها

تحقق لهم انهم كلما اجتهدوا فسدّوا عليها بابا من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبوابا من المفاسد ولم يأمن فيها العثور . ومزلة القدم . والحيد عن جادة الصدق . الاّ قليلهم

ظهر لهم ان الأمة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها . بل هي في مهب ريح الاغراض سائرة مع كل قائد . وعلى الخصوص لو عزز الداعي لها دعوته بالبهتان الذي أصبح منطليا على أكثرها فما أسرع ان تلبيه اذا دعاها وتضافره اذا سألها

ثبت لهم ان في الامة عدداً عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم . بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم . فلا بد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له في القلوب رنة وفي النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة

تبين لهم ان في حواس الامة خدرا جعلها لا تتأثر لمصابها . كصاحب العاهة الذي تعيره الصبيان بها فيتألم منهم في أول أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ريثما يعرف ان الناس تسامعت بعاهته واشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه

ولا عجب في هذا الان فقدان الفضائل وارتكاب اضدادها . وسلوك الطرق المبتدعة . وانتقاص الاخلاق . ونسيان العوائد الجميلة . والافراط في أسباب الحضارة من الرياش والترف . والتناهي في عدم القناعة . بدّل الخلق من أصله . وحول العالم بأسره . وكأنما خلق جديد . ونشأة مستأنفة . وعالم محدث

نعم يجب على الناصح ان ينادي في الامة بذلك الصوت من غير ان يدعوه حالها لليأس . أو يسد عليه باب الامل . أو يقطع عنه طريق الخير . أو يمانعه في وصول النفع . فان أبواب الصلاح لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الامين . والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع ان شاء الله

وان من أبواب التربية التي لم تقرع . وطرقها الجسيمة التي لم تسلك . وشرعها العزيزة التي لم تقصد . دعوة الامة للنظر في ماضي أمرها وأولية شأنها لتعلم من

هى عساها تخجل من ان تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف . عساها تأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه ولي ملكا فلم يحسن سياسته ورزق سعة من المال فلم يدبر أمر تمتيه

هذا الباب من أحسن الابواب التى تثقف أفكار الامة وأقرب ماتتربى على خيره طباعها فان تذكارها بمجدها القديم وتمثيل عزها السالف لها وتشخيص مجدها الشامخ امام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة .

أحسن رادع للانسان عن شهواته ان يلتفت وراءه فيري في أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم الا مجداً أقاموه وعزاً شادوه . وشرفا حفظوه . وأكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه وأجداده حتى تسترت عنه كرامة أخلاقهم وتحجب عنه جميل طباعهم ولم يذكره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة . انه لا يأنف أبداً من اتيان الدنيئة وعمل كل مايخالف تلك الطباع الجميلة والاخلاق الطاهرة .

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين ـ خصوصا رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ولا يغضون عن فرصة ـ اذا فتحوا بلدة اسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها فأنسوهم دينهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم واستبدلوهم بذلك شيأ آخر . فتراهم اذا نسوا تاريخ حياتهم وأشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى وشبت النفوس على ماسيقت اليه وبدت على الأمة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عوائدها وتقربوا من تلك الامم الطارئين بكل طريقة وابتعدوا عن

ذلك الاصل الشريف الذي هم منه

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفلّ حدها ووهن سلطانها . وتتداعى للتلاشي والاضمحلال وينتقص من عمرانها ويندرس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عوائدها الشريفة

ثم تتناهى الامة فى الفجور وتتفانى فى البنى والضلال حتى تعود باللائمة على أصل دينها وعوائدها وأخلاقها . تقول وهى لاتستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها انها ماأخذت الا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة فى المآخذ والمتارك يودون من صميم أفئدتهم ان لو استبدلوا بطاعهم وعوائدهم شيئاً آخر ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الاسلام كالاندلس وغيرها

عذر أولئك انهم يغدون ويروحون بين رجلين. إما عدوّ لهذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة (كبعض فلاسفة هذا الزمان) وإما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيأ لاخيراً ولا ضراً (كاغلب شبان هذا العصر)

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ويتجنبون القرابة لأمته وملته لانهم أقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله لا يعلمون وهم أهله مكرمة له يعدها المنتسب منهم اليه مفخرة اذا نازعه منازع فى الانتساب اليه

ينبغى لهم أن يتألموا من أن يكونوا مسلمين لانهم لايدركون للمسلمين فتحا أبلوا فيه بلاء حسنا . ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا . ولا يتحققون فى أي بقاع الارض نشأ المسلمون وفى أي جهة كانوا شرقا أم غربا . ولا يحصون لهم عددا ليعلموا انهم وهم على قلتهم فاجأوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل

العواصم النازحة فانزلوا حماتها من عروشهم وبثوا فيها معالم دينهم وصيّروها حنيفية بعد ان كانت جاهلية

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون انهم قوم نشأوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الأودية . عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة

لا يعقلون أن جميع مكارم الاخلاق إنما هى منتزعة منهم مأخوذة عنهم وان مايدعيه المدعى من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والانصاف والاحسان انما هو مجاز بالنسبة له حقيقة بالنسبة اليهم وان هذه الامة جاهلية كانت أوحنيفية لم تفارقها مكارم الاخلاق كحفظ الجار والجوار ومراعاة الشرف والذمة واحقاق الحق وقول الصدق ومحاسن الاعمال وجميل الخصال

من يعلمهم ان ملتهم هذه هى أول من تنافس أهلها في الخير وتحدّوا غيرهم بخلال الكرم كالعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقري للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند مايحددون لهم من فعل أوترك وكرامة أهل الدين والحياء من الاكابر وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعى اليه وانصاف المستضعفين والتبذل فى أموالهم والتواضع للمساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد

من لهم بأن يتحققوا ان ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هى أجمل وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة للامم التى تحت

أيديهم ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثاً وان الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم

من يدلهم أن رجال الدين الاسلامى كانوا خير مجتمع لتأسيس قواعد الحرية والاخاء والمساواة وان أهله هم الذين جابوا القفار وقطعوا الاودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به وانه لم يزهر فى دولة إزهاره فى دولتهم ولم يعتز كعزته فى سلطانهم حتى تقوت حجته وانتصر لواؤه وأذعن الناس لقوته وأشرقت عقولهم بنور برهانه

لابد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون للواء الدولة والمباشرون للامر انهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة وليتحققوا انهم أهلها وان الفضائل التى أخذت في الذهاب عنهم والملك الذى صارت الاعداء ترتقب زواله من بين أيديهم انما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وساداتهم وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم ورضوخهم لمن لايناهضهم فى الشرف والنسب وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لايدانيهم وحبهم تقليد سواهم واستبدالهم عوائد أممهم وأجيالهم بعوائد غيرهم

لهذا قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى أن ننسق من أخبار هذه الامة الشريفة المكرمة شيئاً نجعله مسطراً على صفحات (اللواء) المحمود مندمجاً في تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده ثم برجال الدولة الاموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها وأظهروا فى الفتوح آيتها وأتموا بالوقوف على قدم الخير غايتها - ثم ما كان فى الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها

في فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير في تدوين الدواوين واعلاء كلمة السلاطين وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك . ثم ما كان من أعاظم رجال دولة الموحدين والملثمين ، ثم ما كان من مدنية الدولة الاموية بالاندلس وعجائب خلفائها في الآراء والافكار . ثم ما كان من الدولة التركية صانها الله لنصرة الدين واحترامه وتعزيز أهله وخلوها من بدعة مبتدعة أو شبهة مصطنعة وما كان من استطالتها على جميع النواحي والامصار في جميع الاقطار معقبين ذلك بما نراه من الحوادث صحيح العلل والاسباب فاتحين للقارئ في ساحة الاعتبار بابا يأله من باب كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما في هذا الجراب

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

ولا عار في ذلك ولا شنار فان هذا الباب لا يستحي ان يأخذ منه الملوك ونسأل الله سبحانه وتعالى أن نبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح وترزق الامة بسببه بصيرة تتراجع بها لأولية أمرها فترى ما كان محتفاً بها من سياج العظمة وتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال فتتشوق نفوسها لتجديده والا فهي مستحقة لما هي فيه . فانه اذا كان للعقاب أوقات مناسبة ولقبول الاذى نفوس مستحقة فاحق أمة بعقوبة الذل (أمة ذات مجد قديم لا تستحي من إضاعة مجدها)

عساها لو نظرت في ذلك تجتهد في تهيئة نفسها لقبول العدالة التي تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها فان من أهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره في ايصاله اليه أبطأ وأهمل

عساها تنظر فتجد فيها بقية من خميرة الملك والسلطان الذي لا يحتاج تأييدها الا الى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول علم الخلافة فتهب من

رقدتها وتعمل فى مافيه الخير والصلاح لنفسها

وقد أخذنا على أنفسنا أن نكتب فى جريدة (اللواء) كل يوم جمعة من كل أسبوع سيرة عظيم من عظماء الامة الاسلامية فكاهة بين أخباره ونكتة بين أغراضه وأسراره مبتدئين من يوم الجمعة خامس شهر محرم الحرام مفتتح سنة ١٣١٨

والله المعين على هذا العمل الذى لانقصد به الاوجهه الكريم واعادة سلافة الذكر الجميل لافعال حماة دينه القويم ودعوة اخواننا الى النظر للمقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم وما صاروا اليه من الانقياد والتسليم فقد أشفى الحال على الخطر وأصبح ذئب المغرب متهيئاً الافتراس مستديم النظر حديد البصر ونحن الى التعاضد والتناصر فى حفظ هذا الملك مفتقرون فان أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون

﴿ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

جعل الله سبحانه وتعالى النبوة فى بيت واحد لايشترك فى فضيلتها مع أبيائه أحد . قال تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من ذرية سيدنا اسماعيل بن سيدنا ابراهيم عليهما السلام من اكرم بيت من مضر خلق الله الخلق فجعله فى خير خلقه . وجعلهم فرقاً فصيره في أحسن فرقة . وبيوتا فأحله في أرفع بيت وأسماه وأشرفه

(ابن عبد الله) المعروف مكانه من بنى عبد المطلب . من أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا : (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة نسبا وشرفا تزوج بها عبد الله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء

مالبث عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مات وأمه حامل به حتى كانت الليلة التى تمخض بها الزمان . وتكهنت بها اليهود ورصدتها الرهبان . الليلة التى أراد الله ان يخرج الانسان فيها الى نور الفلاح من ظلمات الجهالة . الليلة التى ابتهجت فيها الحظائر القدسية وازينت فيها السماء فوق زينتها بأشراق الغزالة . استل فيها سيف الله من قرابه . وانتشل فيها سهمه من اهابه . وظهر ليثه من غابه . وهطل غيثه من سحابه . فتنادت الرهبان بظهور اكرم مولود في هذا الوجود

ولد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام فى زمن كسرى انوشروان اشهر ملوك الفرس وفى ايامه ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن نفسه : «ولدت

فى زمن الملك العادل »

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ولم يرث الا خمس جمال وبعض لقاح وجارية فتجافت المرضعات عنه الآ حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ظئره لما أراد الله من تشريفها فدّر لبنها وقد جف . ولبن شارفها على حين لايجد انسان قطرة فى ضرع . وأخصب الله بلاد بنى سعد ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها وهذا من إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم

شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يكلؤه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، وان يكون أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقاً، واكرمهم حسباً ، وأعطفهم جوارا ، وأوجههم خلقاً ،وارجحهم حلما ،واصدقهم حديثا ، وأعظمهم امانة ، وابعدهم من الفحش ، والأخلاق التى تؤنس الرجال تنزها وتكرماً حتى عرف بين اهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين لانه استوفى من مكارم الاخلاق كل مكرمة لم يركما لها فى بشر

وكيف لا يسمونه بالامين وما رأوا صبراً كصبره ولا حلما كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشيرته ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته اذا صمت ولا كقوله اذا قال ولا كعجيب نشأته ولا كقلة تلونه ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه

توفيت والدته فاحتضنه جده عبد المطلب فكان يجلسه معه في ظل الكعبة بين أعمامه ثم مات فكفله عمه أبو طالب وكان كريما غير انه كان فقيرا بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان حاله صلى الله عليه وسلم كحال أحد بنى عمه ، وصبية قومه ، ويزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين

عاش بين قومه على هذا الحال بغير مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، او مرب باد يقوم بتهذيبه سوى طهارة العقيدة وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانى الأدب التى يجد بسببها فى وجدانه الكريم شعوراً بالفضيلة وتلبية لندائها وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها وخلطاؤه اولياء الاصنام وخدامها . وهو متحل بالأدب الالهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الايتام والفقراء خصوصا مع بعده عن معتقد القوّام عليه . كل هذا ليتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»

خرج عمه الى الشام فى ركب للاتجار فأخذه معه فلما نزل الركب بصرى وفيها بحيرا الراهب علم أهل النصرانية وامامهم فى علمهم الذى يتوارثونه كابرا عن كابر صنع لهم طعاما ونزل من صومعته ولم تكن تلك عادته فلما أكلوا سأل بحيرا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء فى حاله ونومه وهيئته ونظر لعلامات فى بدنه الشريف ثم أوصى عمه أبا طالب ان يسرع فيقدم به مكة وحذره من اليهود .

تحدثت الناس بكرم أخلاقه وحسن خلقه وعظيم أمانته وصدق حديثه فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى مالها للشام ومعه ميسرة غلامها فرأى ظلل الغمام تظله من الشمس وهو يسير . ثم شاهد من امانته ماشاهد . فلما قدما أخبر سيدته بأمانته وطهارته ويمن طائره وبما رآه وماظهر له من البركة وكثرة الارباح وسهولة الأمور . وكانت خديجة امرأة حازمة فرغبت فيه بسبب ذلك لقرابته وسطته فى قومه وذكرت ذلك لأعمامه فخطبها له عمه وهى أم ولده كلهم الا (ابراهيم فانه من ماريه)

كان فى هذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه .

ويغر بزخارفها . رفه فى العيش . وعون على بلوغ الامل ، ولكن الحال غير هذا وكلما تقدمت به السن نما في قلبه حب الخلوة والانفراد الى أن تجلى عليه النور الالهي وانكشف له العالم بأجمعه

ظهر الهدى الالهى في عمله صلى الله عليه وسلم فأزال الفتنة من بين قريش وقد كاد تنازعهم يفضى الى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه فاستدعى ثوبا وأخذ الحجر فوضعه فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبني عليه

بلغ سنه أربعين سنة الا ستة أشهر فبدأت الرؤيا الصالحة لايري رؤيا فى نومه الا جاءت كفلق الصبح وحبب الله اليه الخلوة فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ثم يرجع الى أهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى اكرمه الله فيها برسالته ورحم الله العباد بكشف ماغاب عنه من مصالح البشر فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق » كما وردت به الاخبار الصحيحة وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة: « كلا. والله لايخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » ثم انطلقت به الى ورقة بن نوفل بن عمها فقالت له خديجة: يا ابن عم. اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى . فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذع . ياليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك. قال : « أو مخرجى هم ؟ » قال نعم. لم يأت رجل بمثل ماجئت به الا عودي وإن يدركنى

يومك أنصرك نصرا مؤزرا

ثم فتر الوحى فشق عليه حتى عاوده بقوله تعالى: «يأيها المدثر قم فانذر» فقام يدعو الناس الى الايمان بالله تعالى فأول من آمن به من النساء خديجة. ومن الرجال أبو بكر. ومن الصبيان على. ومن الموالى زيد. ثم تتابع الوحى وتتابع دخول الناس في الاسلام. وكان أبو بكر محببا سهلا. وكانت رجالات قريش تألفه فاسلم على يديه من وثق به.

دخل الناس فى الاسلام أرسالا من الرجال والنساء وفشا الاسلام وهم ينتحلون به ويذهبون الى الشعاب فيصلون وأمره الله ان يصدع بما يؤمر فنادى فى الناس بأمره ودعا اليه (وكان بين ماأخفى أمره واستتر به الى ان أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه)

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه وقارع أعداءه بالحجة وناضلهم بالدليل وأبدى لهم نصحه وزجره وذكر آلهتهم بالسب وعابها وكل من حوله ممن أسلم مستخف وأعداؤه يردون دعوته وهم بادون ظاهرون ويرفضون رسالته وهم باغون معتدون سواء العامة منهم والخاصة يقولون: «لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة والسلطان فى قبيلهم لدعوة فقير أمى لاينبغى ان يتطاول الى هذه المقامات بالممكن من الكلام فكيف باللوم والتعنيف وسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها

أجمعوا على خلافه وعداوته وقام عمه أبو طالب دونه محامياً يحدب عليه ويمنع وهو ماض على أمر الله لايرده عنه شئ فلما رأت قريش ذلك مشى رجال من أشرافها الى أبى طالب يقولون له ان ابن أخيك سب آلهتنا وعاب

ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما تكفه عنا وأما ان تخلى بيننا وبينه فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا ورسول الله على ماهو عليه مظهر لدين الله داع اليه فهالهم الامر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وحض بعضهم بعضا ومشوا الى أبى طالب مرة أخري يقولون الذى قالوه أولا ويخبرونه بأنهم قد استنهوه ابن أخيه فلم ينهه وانهم لايصبرون على هذا الامر العظيم فأما كفه عنهم أونازلوه .

أصبح أبو طالب في حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم وبين خذلان ابن أخيه فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولايحمله من الامر مالايطيق ولكن القوة الالهية أيدته فأيأسهم من نفسه وقال لابى طالب ياعماه لاأترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه وشمل الاشراق النبوى عمه أيضا فقال له يابن أخى قل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشئ أبدا . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم فى دينهم وافترق أمر قريش فتعاهد بنوهاشم وبنوعبدالمطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى واشتد العذاب على المسلمين فأمرهم بالهجرة الي أرض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا

صار النبي غريبا فى شعبه وقومه بعيدا عنهما يحول بينه وبين عشيرته ماهو أعظم من كل عظيم وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم وهم أبعد من أن يفقهوا دعوته أو يعقلوا رسالته وطفقوا يرمونه عند الناس ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر . يرومون بذلك صدهم عن الدخول فى دين الله وجلسوا للناس فى المواسم لايمر بهم أحد الا حذروه منه وذكروا له

أمره فأذاعوا الدعوة للدين من حيث أرادوا كتمانها وأعلنوا خبرها بين العرب وهم يبعدونهم عنها (والله مخرج ما كنتم تكتمون)

ثم اشتد الامر وأغرت قريش سفهاءها برسول الله وانتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والأيذاء وتعاقدوا على قتله فى اللات والعزى ولم يبق رجل الا وقد عرف نصيبه من دمه الشريف ورسول الله ظاهر بمظهر الحكيم فى تربية قومه بحال يدهش المشاعر إذ يجدون منه سلطانا قاهرا فى حكمه عادلا في أمره شديد الحرص على مصالحهم رؤوفاً بهم فى شدتهم رحيما فى سلطنتهم . وكيف لا تتحير الحواس وهم يرون قوة من ضعف وسلطانا من عجز وعلما من أمية ورشاداً من منبت جاهلية

حارت قريش في أمرها . تعجب من صبرها على تسفيه أحلامها وشتم آبائها وسب آلهتها وإهانة دينها فاجتمعت أشرافها فى الحجر يتشاكون الصبر على هذا الامر فطلع عليهم رسول الله فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت وكلما طاف غمزوه ببعض القول فوقف ثم قال : أتسمعون يامعشر قريش (أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح) فأخذت القوم حالة حتى مامنهم الا كأنما على رأسه طائر واقع وأشدهم فيه وطأة صار يرفؤه بأحسن مايجد من القول (يقول انصرف ياأبا القاسم ما كنت جهولا) ثم يعودون على أنفسهم باللائمة ويذكرون مابلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه فبينماهم في ذلك اذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا له وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له انت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم وهو يقول نعم فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه فاذا أبو بكر دونه وهو يقول (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) . ووقف أبو جهل لرسول الله وشتمه

وبلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه

أرادت قريش أن تخاصمه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل فبعثت اليه عتبة ابن ربيعة وكان سيداً فى قومه فقال انك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أمورا لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله . قل ياأبا الوليد . قال ان أردت بالذى فعلت (مالا) جمعناه لك . أو (شرفا) سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك . وان كان يأتيك رؤياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . قال أفرغت ياأبا الوليد . قال نعم فاسمعه آيات من سورة السجدة وسجد . فقام عتبة الى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به فقالوا له ماوراءك ياأبا الوليد قال ورائى انى سمعت قولا ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة أطيعونى يامعشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ قالوا (سحرك ياأبا الوليد) فقال لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ونبعث اليه ففعلوا فجاءهم حتى جلس اليهم فقالوا اناوالله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه الذي أدخلت الى آخر ماقال له عتبة فقال مابى ماتقولون . ماجئت بما جئت لاطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن بعثنى الله اليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى ان أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه علىّ أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . فألجمهم بهذا الخطاب وأخمهم بهذا الكلام

فعلت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا مافعله كفار

كل زمان مع أنبيائهم فتطلعت لما هو اكبر كما هى العادة فى شره العقول وأخذت تفكر وتقترح وتطلب أشياء قضت الحكمة الالهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها . تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لتنبسط ثراها . وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها . وتكلفه بأن يأتى بملك معه من السماء فيصادقه على مايقول . وتتحكم عليه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلا . أو تكون له جنات . وقصور . وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه . فانصرف رسول الله الى قومه آسفاً لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه

ان الناظر فى هذا الهذيان يحكم بان الذي منع العرب من الاقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة لأنهم يرون فى كل وقت ويسمعون فى كل حال من أحواله عجباً لم تجر به العادة أبداً وفيهم العقلاء وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل ومن يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الأخبار عن الله سبحانه وتعالى . فجاءهم رسول الله من الطريق الذي يشمخون فيه بأنوفهم ويتنافسون فيه بثمار عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم ويدعون ان جميع الناس لهم فى كل أبوابه تبع . الاوهو طريق البلاغة والفصاحة . جاءهم بالقرآن وفيهم الشاعر المفلق والخطيب المصقع وهم أحكم خلق الله لغة وأشدهم عدة والكلام سيد عملهم فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله وتصديق رسالته يحتج عليهم وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب الذى لاريب فيه . ينذرهم بقتل عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ويدعوهم صباح مساء أن يعارضوه

إن كان كاذبا بسورة واحدة أوبآيات يسيرة منه

كيف يمكن لأحد سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ولو كان من عند غير الله لكان من غلبة الظن عند من له شئ من العقل ان لاتخلو الارض من صاحب قوة مثله عجزوا وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم وذوى قرابتهم وتسفيه أحلامهم وتفسيق معتقداتهم وكسر أصنامهم . أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضون قوله ويفسدون عليه أمره . ويسرعون فى تفريق أتباعه عنه صونا للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الاوطان العزيزة المحبوبة وانفاق الاموال الجزيلة . إن هذا لبعض مايعرفه عامة الخلق فكيف بقريش التى لها من جليل التدبير وصدق الرأى والعقل ماضربت به الامثال

ماهذا العجز الظاهر وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام . والحاجة تبعث الحيلة فى الامر الغامض المفقود . فكيف بالظاهر الموجود . محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين عاما على الغلط في الامر الجليل . ومحال أن يتركوه وهم يعرفون ويجيدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه

أى دليل على دعوى النبوة بعد هذا وأى برهان على صدقه صلى الله عليه وسلم أشد من أن يروا يتيما فقيرا أميا لاعون له ولا جاه وقد تربى بينهم وهو من أول نشأته وعقله متأثر بسماع مايسمعه ممن يخالطه منهم من حديث الوثنية فاذا به مبغض لها من مبدأ عمره من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال . من

قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال . من قبل أن يرجعه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ثم يكون منه الذى كان

يرون رجلا منصرفا بطبيعة الحال عن مناصب الملك والسلطان متأبياً عنهما وقد عرضا عليه « ومقابلة القائل بذلك بالاعراض والاعتراض » خاليا من الجند والمال والجاه والعون ثم ينهض وحيداً فريدا داعيا للتوحيد والاعتقاد بالله وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لاوثانهم ومقدار تنطسهم فى زندقتهم ومناواتهم بمعبوداتهم أليس من فكر يفكر فى هذه القوة التى سمت بنفسه الى أعلى عليين فجعلته داعيا مرشدا ولو كره الكافرون

يرون داعيا أوذى بضروب الايذاء وأقيم في وجهه مالا يذلل من الصعاب وعناية الله محيطة به ويرون المستجيبين له اخرجوا من ديارهم تسفك منهم الدماء ويفتنون وهم لا يفتنون

يرون عارفا بالله كما يجب أن يعرف مدركا من أمر الدار الآخرة ماينبغى أن يدرك مع كمال في العقل ونور فى البصيرة فصّل بهما اللذائذ والآلام فى هذه الدنيا وطرق الاجر والعقاب عليهما وجعل للانسان شعوراً بيوم بعد يومه هذا وكل هذا الضرب من الكلام بعيد عن التخيل والفكر ولا بد له من هدى الهى وفتوق في البصر والبصيرة يؤديان الى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الأمور الغامضة عن العقول الساذجة

يرون حكيما جاء لكل طائفة مزيلا للرجس القائم بها مخلصا لها من معارض الشرك المشتمل عليها يأمر الوثنيين بترك الأصنام والأوثان والمشبهة بالانصراف عن الاجسام والثانوية بالتوحيد والطبيعيين بالنظر الى ماوراء

حجاب الطبيعة وأهل السيطرة بترك العقوق ليعلمهم انهم لايتفاوتون عن كل نفس الا بما فضل الله من علم وفضيلة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

يرون ناصحا يأمرهم بصدق الحديث وأداء الامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم واحترام الدماء البشرية والاعراض والرحمة بالضعفاء وينهاهم عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم يرون أنفسهم عباداً للاصنام (وهو يعبد الله) يأكلون الميتة (وهو بعيد عنها) ويأتون الفواحش (وهو بريء منها) ويقطعون الارحام (ويصلها) ويسيؤن الجوار (ويحسنه) ويسبون النساء ويسلبون الاموال (وهو يأمر بالكف عنهما) فكانهم كانوا من عماء الجهالة بحال لا يكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل . والحسن والقبيح) وهو بهذا الظهور عمامهم عليه من صدق الاحلام (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلوا بلدا (الحبشة) أصابوا به مأمنا وقراراً وان النجاشى أكرم من لجأ اليه منهم وان عمر ابن الخطاب أسلم وأعز الله الاسلام باسلامه وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والاسلام أخذ يفشو فى القبائل فاجتمعوا وائتمروا وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ان لا يناكحوهم . ولا يبايعوهم . ولا يكلموهم . ولا يجالسوهم . وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيدا لانفسهم وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب الى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه (الا أبالهب) وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لايصل اليهم شئ الا سراً مستخفيا به من أراد صلتهم ورسول الله

يدعو قومه ليلا ونهارا سرا وجهارا مناديا بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس وحال رجال الله بينه وبين ما أرادت قريش من البطش به وان همزوه أو استهزؤا به أو خاصموه نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة وان الله سلط الارضة عليها فلم تدع فيها اسما هو لله الا أثبتته ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأبي طالب فقال : أربك أخبرك بهذا؟ قال نعم . فخرج الى قريش فقال يامعشر قريش ان ابن أخي أخبرني بكذا وكذا (وذكر ماقاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم) فهلموا الى صحيفتكم فان كانت كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخي فقال القوم رضينا وتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فاذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شرا وصنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ماصنعوا

ثم أسرى برسول الله ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى (وهو بيت المقدس ايلياء) فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بها عجبوا وقالوا له وما آية ذلك يامحمد فدلهم على أشياء في الطريق وأمارات ظاهرة سألوا عنها فوجدوها كما قال ولكن أبى الله أن يصدقوه وهو صادق أو يعلموا انه على الحق وانهم كاذبون

ثم أقام رسول الله على أمر الله محتسبا مؤديا الى قومه النصيحة على مايلقى منهم من التكذيب والايذاء والاستهزاء وقريش تتنقل معه في طريق الاذي من باب الى باب وتتقلب من فكر الى فكر فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء الى النفاق والرياء ونيل منى النفس بالكيد والمداهنة باقية

على مافيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور والاسواء . شق عليها أن ترى مثل أبي بكر يقرأ القرآن ويبكي فما زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجراً خوف الفتنة وقطعاً لذريعة انتشار الاسلام بين العرب

ثم ماتت خديجة وأبوطالب في عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموتهما ونالت قريش فيه من الاذي مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب فخرج رسول الله وحده الى الطائف يلتمس النصرة من « ثقيف » فلما عمد الى سادتهم استهزؤا به وكذبوه فعاد الى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه وأصحابه مستضعفين وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الله ويخبرهم انه نبي مرسل فأتى « كندة » فى منازلهم فلم يقبلوه . و« بنى حنيفة » فدعاهم فلم يكن أحد من العرب أقبح عليهم رداً منهم . وأتى « بنى عامر » فاستهزؤا به

ثم كان الموسم الذي لقى فيه النفر من الانصار وعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وعرض عليهم الاسلام فآمنوا به وصدقوه لانهم وجدوه موافقا لما أخبرهم به أهل الكتاب والعلم من قومهم وقدموا المدينة وذكروا لقومهم مارأوه ودعوهم الى الاسلام وفشا فيهم ولم يبق دار من دور الانصار الا وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان العام المقبل فوافى الموسم من الانصار اثنى عشر رجلا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث معهم مصعب بن عمه يعلمهم الاسلام ويتلو عليهم القرآن

ثم تواعدوا مع رسول الله فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم ليعاده يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلا وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه العباس فبعد ان تكلم وتكلموا فى أن يحموه حمايتهم لنسائهم وأبنائهم وماهم بخاذليه ولا مسلميه أبدا أخرجوا منهم اثنى عشر رجلا سماهم رسول الله نقباء وقال لهم انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى (يعنى المسلمين) قالوا نعم

ثم عرفت جلة قريش بالامر وتنطست ووجدت الخبر كما ظنت فخرجت فى طلب القوم فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكلاهما كان نقيبا فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه الى أن دخلوا به مكة يضربونه حتي استجار برجلين فأجاراه فانطلق ولحق القوم فلما قدموا المدينة أظهروا الاسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سليمة وشريف من أشرافهم وكان اتخذ فى داره صنما من خشب فمازالوا به حتى كسره وأسلم

علمت قريش بشيعة رسول الله وانصاره وأدركت انه مجمع على اللحاق بهم وتحققت ان أصحابه من المهاجرين سبقوه فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فى ماتصنع فقالت نحبسه ولا نخرجه ثم اتفقت على ان يقوم من كل قبيلة فتى شاب جلد فيقتلونه جميعا ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم

أوحى الله الى النبي صلى الله عليه وسلم بكيدهم هذا فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله على أبصارهم فوضع على رؤوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم فلما

أصبحوا خرج عليهم «علي» وعلموا ان النبي صلى الله عليه وسلم نجا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مهاجراً من خوخة فى دار أبى بكر

تعددت معجزاته فى هـذه الهجرة فمنها انه هو وأبو بكر دخلا الغار الذي في جبـل ثور بأسفل مكة فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف فوقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر واذا بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا ومنها ان سراقة اتبعهما ليردهما فلما رآياه دعا عليـه رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فساخت قوائم فرسه فى الأرض فنادى بالامان وقال يامحمد ادع الله ان يخلصنى ولك علىّ عهد ان أرد عنك الطلب فدعا له فخلص (فعـل ذلك معـه مرتين أو ثلاثا) فلما أراد ان يعود قال له رسول الله كيف بك ياسراقة اذا سوّرت بسوارى كسرى قال كسرى بن هرمز قال نعم (١)

ومنها انه لما وصل المدينـة مرّ بدور لبنى سالم . وبنى بياضـة . وبنى ساعدة . وبنى حارثة . وكلما مرّ بدار لأحـد من هؤلاء تلقاه رجال منها يرغبون ان يقـيم عنـدهم وتبادروا خطام الناقة اغتناماً لبركته فما زالوا يتبادرون والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم خلوا سبيلها فأنها مأمورة حتى أتت دار بنى مالك بن النجار فبركت حيث مسجد الرسول اليوم . ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها ثم التفتت الى مكانها الاول فبركت واستقرت ونزل رسول الله وحمل أبو أيوب رحله الى داره فاشتري

---

(١) قال فى أسد الغابة فى ترجمة سراقة فلما أتي عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة وألبسه اياها وقال له ارفع يديك وقل الله اكبر الحمـد لله الذى سلبها كسرى وألبسها سراقة

المربد من بنى النجار بعد ان وهبوه إياه فأبى قبوله وبنى المسجد باللبن وعضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد وبنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه مالهم وعليهم . وآخى بين المهاجرين والانصار . بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل . وبين أبى بكر الصديق وخارجه . وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الانصار

ثم فرضت الزكاة فاستلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء وتخلصت الصدور من الاحقاد واشعرت بالمحبة وأصبحت تساق بعامل الرحمة لرحمة أولئك البائسين وأصبح الغنى مدافعاً عن نفس الفقير والقوى آخذاً بيد الضعيف

ابتدأت الغزوات فى شهر صفر بعد مقدم النبى صلى الله عليه وسلم فخرج الى غزوة (الأبواء) فى مائتين من أصحابه يريد قريشاً و (بواط) لما بلغه ان عيراً لقريش ذاهبة الى مكة ثم غزوة (العشيرة) غازيا لقريش و (بدر الاولى) وفى كل ذلك لم يلق حربا . وبعث فيما بينها بعوثا فمنها (بعث حمزة) و (بعث عبيدة بن الحرث) متقاربين حتى اختلف فى أيهما كان الاول الا أنها أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولم يكن بينها وبين المشركين قتال) و (بعث سعد بن أبى وقاص) و (بعث عبد الله بن جحش) وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين (١) فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل نخله

---

(١) كتمان الاوامر وفتحها بعد حركة الجند من مراكزها أو الاساطيل من الثغور مما يعد من محاسن السياسة الاوروباوية الغامضة

بين مكة والطائف ولايستكره أحدا فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعير فتخلفا في طلبه فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة وذلك آخر يوم من رجب فتحرج بعض المسلمين الشهر الحرام ثم اتفقوا . وقتل عمرو بن الحضرمي وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بالعير والاسيرين فانكر النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم ذلك في الشهر الحرام وماسرى عنهم حتى أنزل الله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدعن سبيل الله وكفر به) فقبض النبي صلى الله عليه وسلم الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء في الاسيرين وأسلم الحكم بن كيسان ورجع سعد وعتبة سالمين الى المدينة وهذه أول غنيمة غنمت في الاسلام وأول غنيمة خمست

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة وخطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الانصار ونزلت آية (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) . كان من قوة دهاء العقل واصالة الحكم ان تسر جماعة المشركين ذلك في نفسها فلا تتقدم له بالسؤال عن صرف القبلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذي لقنه به بارئه لأن في سكوتها تكذيبه وبطلان حجته وهم بذلك مغرمون واليه مضطرون وفي السؤال عنه تصديق لخبره في اظهار سر القهر الالهي المحيط بهم الملجأ لهم على السؤال ولو كان في ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ولكنهم فعلوه لأن الخبر السماوي والوعد النبوي لايتخلفان قطعاً

هاج مقتل عمرو نفوس قريش وشمر كل طرف يوم بعد يومه فاقام رسول الله بالمدينة الى رمضان من السنة الثانية ثم بلغه ان عيراً لقريش فيها

أموال مقبلة من الشام الى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلا (عميدهم ابوسفيان) فندب عليه السلام المسلمين الى هذه العير وأمر بخروج كل من له ظهر حاضر ولم يحتفل في الحشد لانه لم يظن قتالا

اتصل خروجه بأبي سفيان فاستنفر أهل مكة لعيرهم فنفروا وبعث رسول الله من يتحسس أخبار أبي سفيان وعلم ان القوم صاروا بين التسعمائة والألف فاستشار الاصحاب من المهاجرين والانصار فقالوا واحسنوا. قالوا (لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك)

عرف أهل قريش بمقدم المسلمين أيضا ولكنهم مع كثرتهم هذه أصبحوا لايشتدون على مقاومتهم كأنما أصاب مكان الوجدان من قلوبهم شئ ولم يكف أبوسفيان انه تنكب بالعير الى طريق الساحل ونجا بل جدفى حمل الناس على مذهبه فقال (مابالنا لانرجع وقدنجونا بالعير) ورجع الاخنس بن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعا فيهم وقال (انا خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فارجعوا) فرجعوا ولم يشهد بدرا من قريش عدوي ولازهرى

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب ويهيج عواطف احساساتهم يقول (لانرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثا ونهابنا العرب)

سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ماء بدر وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم واصاب مما يلى المسلمين دهس الوادي وأعانهم على السير ثم نزل حيث أشار الحباب بن المنذر وبنو حوضا فملؤه ثم بنوا له عريشا يكون فيه رسول الله ومشى يريهم مصارع القوم واحدا واحدا وكانوا أصحاب رسول الله ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فيهم فارسان الزبير . والمقداد .

توافقت الفئتان وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع الى العريش وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها فلما رآها قال (اللهم هـذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهـم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أحنهم الغداة)

مازال الكلام يستوثق الناس على الشر (وان الحرب أولها الكلام) حتى قام عامر وصرخ واعمراه واعمراه فحميت الحرب ونادت الرجال على الرجال والنبي يدعو ويلح ويقول فى دعائه (اللهم ان تهلك هـذه العصابة لاتعبد فى الارض اللهم انجزلى ماوعدتنى) ثم أخفق (١) ثم انتبه فقال(ابشر ياأبا بكر قد أتى نصر الله) ثم خرج يحرض الناس ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول (شاهت الوجوه) ثم تزاحفوا وجال القوم جولة هزم المشركون فيها وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم وأسر نحوا من عشرين رجلا من كبرائهم كما هو مذكور تفصيله فى كتب السير واستشهد من المسلمين ثمانية خمس من المهاجرين وواحد من الانصار وواحد من الأوس وواحد من الخزرج . وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله . ورجع رسول الله الى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان

حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعد ان دعاهم بالحجة وقطع العذر وأزال الشبه وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة كما قدمنا فأخذ السيف منهم ماأخذ

ثم افتدت قريش أكثر أساري بدر . وأمر بقتل كعب بن الاشرف من أكابر اليهود وكان من المحرضين على رسول الله فقتله الأوس ثم وقعت

(١) أخفق فلان حرك رأسه من نعاس

غزوات لم يلق فيها رسول الله حربا وهى (غزوة الكدر) و (السويق) و (ذى أمر) و (بحران)

تظاهرت اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين وبغوا ونقضوا العهد وجاهروا بالكفر وقالوا واساؤا الرد ونبذوا العهد فانزل الله (واما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء) فكانت (غزوة بنى قينقاع) سار اليهم رسول الله وكانوا فى طرف المدينة فى سبعمائة مقاتل منهم ثلاثمائة دارع فحصرهم عليه السلام خمسة عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فأمر بهم ان يقتلوا فشفع فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول فحقن رسول الله دماءهم ثم أجلاهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع ولحقوا بخيبر وأخذ صلى الله عليه وسلم الخمس من الغنائم ثم انصرف الى المدينة وحضر الاضحى فصلى بالناس في الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال انهما أول أضحيته صلى الله عليه وسلم

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال وأتت بفرات بن حيان العجلى أسيراً فتعوذ بالاسلام واسلم وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفا

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن أبى الحقيق) وكان نظير ابن الأشرف الذى قتله الأوس فى الكفر والعداوة فأذن لهم فقتلوه فى داره بخيبر وما زال الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئا من ذلك الا فعل الآخرون مثله

ثم كانت غزوة «أحد» وكان الذى أهاجها وقعة «بدر» فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم بها فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك

العير تجارة وسألوهم ان يعينوهم على حرب رسول الله ليدركوا الثار

اجتمعت قريش بأحابيشها(١) ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة . وكان أبو سفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين فلما علم بذلك رسول الله أشار على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وان جاؤا قاتلوهم على أفواه الازقة وألح قوم من فضلاء المسلمين فلبس لامته وخرج وقال آخرون يارسول الله ان شئت فاقعد . فقال ماينبغى لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل وخرج فى ألف من أصحابه فلما كانوا بين المدينة و«أحد» عاد عبدالله بن أبيّ بثلث الناس وكان من تبعة أهل النفاق وبقى رسول الله في سبعمائة فيهم خمسون راميا فساروا حتى نزل الشعب من« أحد »وجعل ظهره وعسكره اليه والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع وفى المسلمين مائة وفرسان فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس لابى بردة . وقاتل المسلمون واشتد القتال وانهزمت قريش أولا ثم خلت الرماة عن مراكزهم وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه الله ووصل العدو الى رسول الله وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل . وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته وكلم فى وجنته ووجهه فى أصول شعره وعلاه ابن قمئة بالسيف وهشمت البيضة فى رأسه وا كبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى بعض حفر هناك فأخذ« على »بيده واحتضنه طلحة حتى قام ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري ونشبت حلقتان من

(١) أحابيش قريش جماعة تحالفوا بالله انهم ليد على غيرهم وهم من جبل بأسفل مكة اسمه حبشي بالضم

حلق المغفر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح فبذرت ثنيتاه وكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المسلمين فقتلوا كلهم آخرهم عمار بن يزيد ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يلى النبي بظهره وتقع به النبلة فلا يتحرك . وانتهى النضر بن أنس الى جماعة وقد دهشوا وقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فما تصنعون فى الحياة بعده قوموا فموتوا على مامات عليه ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة وجرح وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

وهن المسلمون وظنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل واذا كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة يبشر الناس فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ثم جاء بماء فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ونهض فاستوي على صخرة من الجبل وكانت حانت الصلاة فصلى بهم قعودا وغفر الله للمنهزمين ونزلت آية (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونادي الحرب سجال يوم أحد ببدر وانصرف وهو يقول موعدكم العام القابل فقال عليه السلام قولوا له هو بيننا وبينكم ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة والمشركون الى مكة

مثل المشركون في هذه الواقعة بسيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه وبقرن عن كبده ولا كنها ولم تسغها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فى حمزة وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنها الزبير أن يردها لكيلا ترى ماباًخيها فلقيها وأعلمها فقالت (بلغنى انه مثل بأخى وذلك فى الله قليل فما

أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولاصبرن) ثم أتته وصلت عليه واسترجعت وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به فدفن

أن بعض هذا الصبر لما تضعف العزائم البشرية عن احتماله وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده ولكن الهدي هدي الله

ثم أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبيحة يوم «أحد» بالخروج لطلب العدو وأنه لايخرج الا من حضر معه بالامس فخرج وخرجوا على مابهم من الجهد والنصب وصار عليه السلام متجلدا مرهبا للعدو حتى انتهى الى حمراء الاسد وأقام بها ثلاثا وبلغ أباسفيان وكفار قريش ذلك وكانوا يرومون الرجوع الى المدينة ليستأصلوا المسلمين بزعمهم فقت ذلك فى أعضائهم وعادوا الى مكة

ماأشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال وأدركهم قصم الظهر وانبهار النفس بعد ان كانوا من الزعم بأنفسهم فى شأن أزيد مما يليق بالنفوس البشرية فقد مال المشركون بعد هذه الحروب الى الكذبة . والفرية . وأعمال الخونة . فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر تمام الثلاثة من الهجرة نفر وذكروا ان فيهم اسلاما ورغبوا ان يبعث فيهم من يفقههم فى الدين فبعث معهم ستة رجال من أصحابه حتى اذا كانوا قريبا من عسفان غدروا بهم ومنهم من قتل هناك ومنهم من حمل الى مكة وقتل صبرا وكذلك قتلوا بعث المنذر بن عمر من بنى ساعدة وهم أربعون من المسلمين وقيل سبعون طلب ملاعب الاسنة أبو براء عامر بن مالك ان يبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم الى نجد فبعد ان تردد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو براء أنا لهم جار فسار وبعثوا حرام ابن ملحان بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى عامر بن

الطفيل فقتله ولم ينظر فى كتابه واستعدى عليهم وقتلوهم عن آخرهم

ثم نهض رسول الله الى (غزوة بنى النضير) وأرادوا يؤذون رسول الله ويصعدون الى ظهر البيت رجلا ليلقى على النبى صخرة فأوحى الله اليه بما أراد به اليهود وتهيأ لحربهم فتحصنوا بالحصون فحاصرهم ست ليال وانتهت بالكف عن دمهم واجلائهم لخيبر بما حملت الأبل من الاموال الا السلاح . ثم كانت (غزوة ذات الرقاع) و (غزوة بدر الموعد) التى خرج فيها رسول الله لميعاده واعتذر أبو سفيان بجدب العام و (غزوة دومة الجندل) ولم يلق المسلمون فى كلها حربا . ووادع رسول الله صلى الله عليه وسلم عينية ابن حفص أن يرعى بأراضى المدينة لان بلاده أجدبت وهذه أخصبت

ثم كانت غزوة الخندق وسببها خروج جماعة من اليهود الى مكة يحزبون الاحزاب ويحرضون على حرب رسول الله . ويرغبون من اشرأب الى ذلك بالمال فأجابهم أهل مكة وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان ابن حرب فى ١٠٠٠٠ آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم . فلما سمع رسول الله أمر بحفر الخندق وعمل فيه بيده والمسلمون معه وأقبلت الاحزاب ونزلوا بظاهر المدينة بجانب « أحد » وخرج عليه السلام بالمسلمين والخندق بينه وبين القوم ونقضت بنو قريظة العهد وكانوا موادعين فعظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل جهة ودام الحصار شهراً ولم تكن حرب ثم بعد ان اشتد الحال أتى رجل اسمه نعيم بن مسعود بن عمار وقال يارسول الله أنا اسلمت ولم يعلم بى قومى فمرنى بما تشاء فقال انما انت رجل واحد فخذّل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة فخرج يدبر فى أمره فأتى بنى قريظة وكان صديقهم فنقم لهم فى قريش وغطفان وقال لهم

(انهم ان لم يظفروا لحقوا ببلادهم وتركوكم ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد واصحابه فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم) ثم أتى أبا سفيان فى قريش وقال (ان اليهود ندموا وراسلوا محمداً فى المواعدة على ان يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم اليه) ثم أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش

دخل بين القوم من باب الاختلاف والمشاقة فيما اتفقوا عليه فأرسل أبو سفيان وغطفان الى بنى قريظة في ليلة سبت يقول (انا لسنا بدار مقام فأعدّوا للقتال) فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا (ومع ذلك لانقاتل حتى تعطونا أبناءكم) فصدق القوم خبر « نعيم » وردوا اليهم (بالأبابة من الرهن والحث على الخروج) فصدق أيضا بنى قريظة خبر « نعيم » وأبوا القتال . فكان هذا الكلام عند هبوب ريح التخالف من أعظم وأكبر الاسباب التى تراجعت بها القلوب الى نقض العهود ولم يقف الحال عند ذلك بل أرسل الله على قريش وغطفان ريحاً عظيمة اكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم فأصبح المسلمون وقد ذهب الأحزاب . ثم نهض رسول الله الى (بنى قريظة) بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم فأمر المسلمين ان لايصلى أحد العصر الا فى بنى قريظة. وأعطى الراية على ابن أبى طالب وبعد ان حاصرهم خمساً وعشرين ليلة ضربت أعناقهم وقسمت أموالهم وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً

ثم كانت (غزوة الغابة وذى قرد) وكان سببها انه بعد قفول المسلمين الى المدينة بليال أغار عيينه بن حصن الفزارى فى بنى عبد الله من غطفان على لقاح النبى صلى الله عليه وسلم بالغابة وكان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوه وحملوا المرأة ووقعت الصيحة بالمدينة وركب رسول الله فى

أثرهم حتى أدركهم فكانت بينهم جولة قتل فيها من قتل ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء يقال له (ذو قرد) فأقام عليه ليلة ويومها ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل الي المدينة

أقام رسول الله الي شعبان من السنة السادسة وغزا (بنى المصطلق) من خزاعة لما بلغه من انهم مجتمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جويريه أم المؤمنين فخرج اليهم ولقيهم بالمريسيع من مياههم فتزاحفوا وهزمهم الله .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في السادسة وفى ذى القعدة منها معتمرا (عمرة الحديبية) واستنفر الأعراب وساق الهدى وأحرم من المدينة ليعلم الناس انه لا يريد حربا وبلغ ذلك قريشاً فاجمعوا على صده من البيت وقتاله دونه فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة بركت ناقته وقال الناس (خلأت) فقال ماخلأت وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل

ثم جرت السفراء بين رسول الله وبين كفار قريش وقاضى رسول الله على امور . ينصرف عامه ذلك ويأتى من قابل معتمراً ويدخل مكة والسيوف فى القرب فيقيم بها ثلاثا ولا يزيد . يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويأمن بعضهم بعضاً . من هاجر من الكفار الى المسلمين من رجل أو امرأة يرد الى قومه . ومن ارتد من المسلمين لا يرد .

انبهم هذا الامر على المسلمين وكبر عليهم وتكلم فيه بعضهم شأننا فى عالم الشهادة وعدم اهتداء الافكار الى كشف الغائب من الامور الا بهدى واشراق مخصوص

اهتدي النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الصلح وعلم انه سبب لأمن الناس وظهور الاسلام وان الله سيجعل فيه فرجا قريباً للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه

كتبت الصحيفة كما قالوا (ولم يذكر فيها رسول الله) ثم أتى أبو جندل ابن سهيل يرسف في قيوده فرده رسول الله الى أبيه وأخبره ان الله سيجعل له فرجا وبينما هم يكتبون الكتاب عنه جاءت أيضاً سرية مابين الثلاثين والاربعين يريدون الايقاع بالمسلمين فأعتقهم رسول الله واليهم ينسب العتيقيون

عظم هذا الامر على المسلمين من كل وجه حتى انهم أغضبوا النبي صلى الله عليه وسلم فى عدم متابعته أولا عند مأمر بالحلق والنحر ثم نحر فتابعوه ورجع رسول الله الى المدينة معهم

مافتح الله بفتح قبل هذا أعظم منه أبداً. كان القتال سداً فى وجوه القوم فلا تلتقى الناس دونه ثم كانت هذه الهدنة والناس على شوق من ان يأخذوا لانفسهم بالأحوط فما بشروا باطلاق هذه الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضاً حتى التقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام أحداً أو يرشده اليه الا دخل فيه فلقد دخل في تينك السنتين فى الاسلام مثلما كان قبل ذلك واكثر

واعجب منه رد (من يهاجر من الكفار الى قومه) (ومن ارتد من المسلمين لايرد) خفى عليهم أيضاً أمره ولم يدركوا ان رد المسلم المهاجر الى العرب داع لانتشار الدين بينهم لأنه مسلم ولا يزايل قلبه الاسلام أبداً. ومانح للنظر فى مكنون أسرار المرتد من المسلمين ليعلم ماهو عليه وهو بعيد عن محابس الخشية وخالص من قيود الاوامر والنواهى فيعلم الناس المنافقين ويعلم

النبي من ينصره بالغيب

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجالا من أصحابه الى ملوك العرب وسلاطين العجم فبعث سليط بن عمر الى صاحب اليمامة . والعلاء بن الحضرمي الى صاحب البحرين . وعمرو بن العاصي . الى صاحب عمان . وحاطب بن أبي بلتعه . الى صاحب الاسكندرية . وشجاع بن وهب الى صاحب دمشق وعمر بن أمية الضمري الى النجاشي

وكتب الى كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه استكباراً فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال اللهم مزق ملكه كل ممزق (وكان ذلك) فقد جز الله أصله وقطع دابره لان كل ملك أخرج من معظم ملكه يقيم على بقية منه ولكن الاسلام لم يترك لهذا الملك ملكا تناله الحوافر والاقدام الا أزاله عنه . ثم كتب كسرى الى « باذان » عامله على اليمن يأمره بأن يبعث الى النبي رجلين جلدين من عنده يأتيان به فبعث اليه بقهرمانه وآخر معه فلما قدما على النبي صلى الله عليه وسلم جاءه الوحي بأن الله سلط على كسري ابنه شيرويه فقتله ليلة كذا من شهر كذا فأخبرهما وقال لهما (ان ديني وسلطاني يبلغ مابلغ ملك كسرى) فانصرفا وأخبرا « باذان » الخبر ولم ينشب « باذان » ان جاءه كتاب شيرويه بقتل كسرى . وهكذا دعواته المستجابة حين مالقي من شدة أذى العرب وتكذيبهم اياه واستعانتهم عليه بالاموال والرجال دعا الله عزوجل أن يجدب بلادهم وأن يدخل الفقر بيوتهم فقال صلى الله عليه وسلم اللهم سنين كسني يوسف اللهم اشدد وطأتك على مضر . فامسك الله عزوجل المطر عنهم حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع . حتى اذا بلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منتهاها عاد بفضله فسأل ربه الخصب وادرار الغيث فأتاهم منه ماهدم

بيوتهم ومنعهم حوائجهم فكلموه فى ذلك فقال اللهم حوالينا ولا علينا فأمطر الله عزوجل ماحولهم وامسك عنهم

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم غازيا الى خيبر وحال الله بين غطفان وبين يهود خيبر برعب قذفه في قلوبهم فاقعدهم فى مكانهم بعد ان كانوا أرادوا مددهم وافتتح رسول الله حصون خيبر حصنا حصنا وبعض خيبر عنوة وبعضها وهو الاكثر صلحاء على الجلاء فقسمها رسول الله وأقر اليهود ان يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف فى كل ماتخرج

وفى هذه الغزوة أهدت اليهودية زينب بنت الحرث امرأة سلام الى النبي صلى الله عليه وسلم شاة مصلية وجعلت السم فى الذراع منها وكان أحب اللحم اليه فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال ان هذا العظم يخبرنى انه مسموم وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمة فمات منها ثم اعترفت اليهودية ودفعت لأولياء دم بشر فقتلوها

ثم قدمت مهاجرة الحبشة الى مكة وهاجروا منها الى المدينة وفيهم جعفر ابن أبى طالب وكان يوم فتح خيبر فقبل مابين عينيه والتزمه وقال ماأدرى بأيهما انا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر

اتصل شأن أهل خيبر بأهل فدك فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمان على ان يتركوا الاموال فأجابهم الى ذلك فكانت خالصة لرسول الله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله ثم افتتح وادى القرى عنوة وقسمها ورحل الى المدينة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خيبر الى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج فى ذي القعدة لقضاء العمرة التى عاهدته عليها قريش

يوم الحديبية وعقد لها الصلح وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ورسوله وكرها فى لقائه فقضى عمرته وتمت الثلاث التى عاهدته قريش على المقام بها وأوصوا اليه بالخروج واعجلوه

أمضى عهده صلى الله عليه وسلم وخرج وأقام بعد منصرفه من هذه العمرة الى جمادي الأولى من السنة الثامنة ثم بعث الامراء الى الشام وأمّر على الجيش وكان نحوا من ثلاثة آلاف مولاه (زيد بن حارثة) وقال وان أصابه قدر فالامير (جعفر ابن أبى طالب) فان أصابه قدر فالامير (عبد الله ابن رواحة) فان أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميراً عليهم وشيعهم صلى الله عليه وسلم

هذه الغزوة هى التى مثلت المساواة بين أفراد الصحابة فى الشجاعة وكادت ان ترفع من بينهم الامتياز (الا بما فضل الله) فقد ظهر الكل فى معرض الشجاعة متجردين عن حب الحياة الدنيا غير غافلين عن شأن الله فيهم فأقاموا الدين وما تفرقوا فيه شيعا

انتهى هذا الجيش الى معان من أرض الشام فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل بأرض البلقاء في ١٠٠٠٠٠ فارس من الروم و ١٠٠٠٠٠ فارس من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون فى الكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتظار أمره ومدده . ثم قال لهم عبد الله بن رواحة . أنتم انما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا الى جموع هرقل ورتبوا الميمنة والميسرة واقتتلوا فقتل (زيد بن حارثة) ملاقيا بصدره الرماح والراية فى يده فأخذها (جعفر بن ابي طالب)

فعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت كذلك وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة فاخذها (عبدالله بن رواحه) وتردد عن النزول بعض الشئ ثم صمم الى العدو فقاتل حتى قتل فاخذ الراية ثابت بن أقرم من بنى العجلان وناولها (لخالد بن الوليد) فانحاز بالمسلمين وقد استشهد منهم مايزيد على العشرة أكرمهم الله بالشهادة

أنظر لهذه الحجج والقوارع العظمى ونداء العناية العليا من الجبروت الاعلا وأعجب لهذه الشجاعة التى وسعت كل شئ من القوى ولتلك المعجزات الباهرة . انذر النبي صلى الله عليه وسلم بأصابة وقتل هؤلاء الامراء قبل يومهم هذا بما فيه مقنع لمن وهبه الله صحة العقل

كان اشتغال العرب بهذه الحروب شغلا شاغلا لهم نسوا به دماء بينهم فلما وقع صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضا وفرغوا من مشاغل الحروب وحلوا الاغلال التى كانت أخذت بأيديهم ومالوا لادراك الثار

وكان من الدماء المسفوكة التى لم يتم فيها التنازع والتجالد دم بين بني بكر وخزاعة مضت عليه الازمنة والأعصار حتى جاء الاسلام ودخلت خزاعة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ودخلت بكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية

أراد الله أن يلوح من خلال هذا الظلم القديم نور فتح جديد مبين فقام رجل من بكر ينشد هجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه رجل من خزاعة فشجه فهاج الشر بينهم وانتقض العهد الذى بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقدم وفد من قومهم مستغيثين برسول الله صلى الله عليه وسلم مما أصابهم فأجاب صريخهم وأخبرهم ان أبا سفيان سيأتى ليشد العقد ويزيد في

المدة ولكنه يرجع بغير حاجة وان الذي فعلته قريش ستندم عليه وسيكون ذلك سببا للفتح وكان ذلك جميعه

صدق الله رسوله وخرج أبو سفيان الى المدينة ليؤكد العقد ويزيد فى المدة فرجع بغير حاجة ثم أعلم رسول الله انه سائر الى مكة وأمر الناس بأن يتجهزوا ودعا الله ان يطمس الاخبار عن قريش وكتب اليهم حاطب بن بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة الى مكة فأوحى الله اليه وبعث عليا والزبير والمقداد الى الظعينة فأدركوها فأخرجته من بين قرون رأسها

خرج رسول الله لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة فى ١٠٠٠٠ نفس من قبائل من سليم . وغفار . ومزينة . وطوائف من قريش . وأسد . وتميم . وغيرهم من سائر القبائل وقال اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها فطوى الله اخباره عن قريش الا انهم يتوجسون الخيفة . قال العباس والله إن بغتها فى بلادها فدخل عنوة انه لهلاك قريش آخر الدهر وخشى تلاف قريش ان فاجاءهم الجيش قبل أن يستأمنوا فركب العباس بغلة النبى صلى الله عليه وسلم وذهب يتحسس وكان أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر أيضا فسمع العباس صوت أبو سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العسكر فيقول بديل نيران بنى خزاعة فيقول أبو سفيان خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها فقال العباس هذا رسول الله فى المسلمين أتاكم فى ١٠٠٠٠ نفس قال ما تأمرنى به قال تركب معى فأستأمن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فو الله ان ظفر بك ليضربن عنقك فردفه خلفه ونهض به الى المعسكر ومر بعمر رضى الله عنه فخرج يشتد الى رسول الله يقول الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد

ولا عهد (١) فسبقه العباس على البغلة ودخل هو على أثره فقال يارسول الله هذا عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بلا عهد فدعنى أضرب عنقه فقال العباس (قد أجرته) فزأر عمر فقال العباس لو كان من بنى عدى (٢) ولكنه من عبد مناف (٣) فقال عمر والله لاسلامك كان أحب الىّ من اسلام الخطاب لانى أعرف أنه عند رسول الله كذلك فامر رسول الله العباس ان يحمله الى رحله ويأتين به صباحا فلما أتى به قال له صلى الله عليه وسلم (ألم يأن لك ان تعلم ان لا اله الا الله) فقال (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا) قال (ويحك ألم يأن لك ان تعلم انى رسول الله) قال (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففى النفس منها شئ) فقال له العباس (ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك) فاسلم . فقال العباس يارسول الله (ان أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً) قال . نعم . (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن) ثم أمر العباس ان يوقف أباسفيان بخطم الوادي ليري جنود الله ففعل ذلك . ومرت به القبائل قبيلة قبيلة الى أن جاء مركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار عليهم الدروع البيض فقال (من هؤلاء) فقال العباس (هذا رسول فى المهاجرين والانصار) فقال (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما) فقال (ياأبا سفيان انها النبوة) فقال (هى اذن . أوقال . نعم اذن) ثم قال له التجأ الى قومك فاتى مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبقول النبي صلى الله

---

(١) يريد انتقاض عهد الحديبية

(٢) جد سيدنا عمر بن الخطاب

(٣) يعنى جد نفسه

عليه وسلم (من أتى المسجد فهو آمن . الخ)

ثم رتب النبى صلى الله عليه وسلم الجيش وكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة الزبير وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح وسرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش من «ذى طوى» وأمرهم بالدخول الى مكة «الزبير» من أعلاها و«خالد» من أسفلها وان يقاتلوا من تعرض لهم ولم يكن الا جولة وانهزم المشركون وكان الفتح لعشر بقين من رمضان وأهدر دم جماعة من المشركين يومئذ أتت على أسمائهم كتب السير

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد ان مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت (١) وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها وبكسر الأصنام حواليها وأمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة

ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب الكعبة ثانى يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة ووضع مآثر الجاهلية الا سدانة البيت وسقاية الحاج وأخبر ان مكة لم تحل لاحد قبله ولا بعده وانما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت لحرمتها بالامس ثم قال : لااله الا الله وحده لاشريك له صدق وعده وصدق عبده وهزم الاحزاب وحده . الا ان كل مأثورة أو دم أو مال يدعى فى الجاهلية فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة الكعبة وسقاية الحاج الا وان قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون في بطونها أولادها .

(١) وهى فى ولد شيبة الى اليوم .

يامعشر قريش . ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير)

يامعشر قريش ويأهل مكة ماترون انى فاعل فيكم قالوا خيراً أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء وأعتقهم على الاسلام وجلس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وبايع النساء سيدنا عمر بن الخطاب

مثّل رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله هذا (الكمال) فى أبلغ صوره ومنتهى درجاته بمقابلته كفران أهل مكة باحسانه وانعامه . على ان الذى لاقاه عليه الصلاة والسلام منهم من أول دعوته لحد هذا الفتح مما لايسعه حلم ولا يحيط به كرم ولكن رسول الله أشفق الناس على أمته . نام في فؤاده الشريف حب انقاذ الهالكين وارشاد الضالين منهم ولو انهم كانوا من العناد بالمقدار الذي بينوه أصحاب السير . قابلهم وهو فى أشد مظاهر القوة والعظمة بحلمه وكرمه ولطفه واحسانه وعفا عنهم وهكذا شيمته عليه الصلاة والسلام .وكفى بنعت الله له فى كتابه الكريم بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم)

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا خمسة عشر ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه ان هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون الى مكة وقد نزلوا (حنينا) فبعث النبي يستعلم خبر القوم فجاءه الرسول وأطلعه على جلية الخبر وانهم قاصدون اليه فجهز رسول الله الجيش ومر به حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادى حزن

فتوسطوه فى غبش الصبح وقد كمنت هوازن فى جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوى أحد على أحد وناداهم صلى الله عليه وسلم فلم يرجعوا وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والنبى على بغلته البيضاء والعباس آخذ بشكائمها فأمره رسول الله أن ينادي بالانصار وأصحاب الشجرة وبالمهاجرين وكان جهير الصوت فنادي فانثنت الناس الرواحل راجعين وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا « هوازن » والناس متلاحقون واشتدت الحرب وحمى الوطيس وقذف الله فى قلوب « هوازن » الرعب حين وصلوا الى رسول الله فلم يملكوا أنفسهم فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل في بنى مالك وثقيف

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والأموال فحبست وسار من فوره الى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة ورماهم بالمنجنيق . ثم انصرف رسول الله بعد ما دخل الطائف . وجاءه وفد « هوازن » بالجعرانة وخيرهم بين العيال والابناء والاموال فاختاروا العيال والابناء ثم رد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم وقسم الأموال بين المسلمين وأعطى قوما يستألفهم على الاسلام يسمون المؤلفة مذكورون فى كتب السير يقاربون الأربعين

وجد الأنصار فى أنفسهم من ذلك فتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون انه اذا فتح الله عليه بلده (مكة) يرجع الى قومه ويتركهم . فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال انما أعطى قوما حديثى عهد بالاسلام أتألفهم عليه أما ترضون ان ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفون برسول الله الى رحالكم . لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب

الأنصار ففرحوا

اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة الى مكة ورجع الى المدينة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شابا يذيف على العشرين غلبه الورع والزهد وهو أول أمير أقام حج الاسلام وحج المشركون على مشاعرهم

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شهر رجب من السنة التاسعة وأمر الناس أن يتهيأوا لغزو الروم وكان فى غزواته كثيراً مايورى بغير الجهة التى يقصدها على طريقة الحرب الاّ ماكان في هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب وبعد البلاد وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون . وتجهز الناس على مافى أنفسهم من استثقال ذلك والمنافقون لايفتأون يثبطون الناس عن الغزو وتقدم كثير من المسلمين بالانفاق كسيدنا عثمان بن عفان فانه أنفق فيها ١٠٠٠٠ دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز ركابا وجاء بعض المسلمين يستحملون النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجد مايحملهم عليه فنزلوا باكين لذلك . وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى تبوك فأتاه (صاحب آيله) . و (أهل جرباء واذرعات) . فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتابا وبعث خالد بن الوليد فصالح صاحب (دومة الجندل) على الجزية أيضا . ثم أسلم عروة بن مسعود وجاء وفد ثقيف بعد ماضيق عليهم مالك بن عوف واستباح رحمهم وقطع سابلهم فأسلموا وأمر عليهم عثمان بن أبى العاصى أصغرهم سنا لحرصه على الفقه وتعلم القرآن

ثم هدمت اللات والعزى : هدمها المغيرة بن شعبة وقام قومه من بنى شعيب دونه خوفا من أن يرمى بسهم وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها . وجاء أبو سفيان فأخذ حليها ومالها وقضى منه دين عروة والأسود بن مسعود كما أمر رسول الله كانت العرب تتربص بالاسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر النبى

صلى الله عليه وسلم ولأن قريشا كانوا امام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وضريح ولد اسمعيل وقادتهم لا ينكرون لهم وكانت قريش هى التى نصبت لحربه وخلافه فلما استفتحت مكة ودانت قريش ودخلها الاسلام عرفت العرب انهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته فدخلوا دينه أفواجا يضربون اليه من كل وجه مصداقا للخبر الالهى الذي لا يتخلف (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا)

ضربت اليه وفود العرب حتى سميت هذه السنة (سنة الوفود) وجاءته الكتب والرسل تترى من الملوك (لحمير) و (ابن ذى يزن) وغيرهما باسلامهم ومفارقة الشرك وأهله . وكلما جاء وفد أكرمهم النبى صلى الله عليه وسلم وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم وبشرهم بالخير وأمرهم به وشدد عليهم فى الظلم ونهاهم عنه وفهمهم وأخبرهم بالذى لهم وعليهم وكتب صلى الله عليه وسلم العهود والكتب

ثم خرج رسول الله الى حجة الوداع لموافقة الحج فيها عاشر الحجة (١)

---

(١) كانت العرب تستعمل شهور الاهلة وكان حجهم وقت عاشر الحجة كما رسمه سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام فأدى الاختلاف بين شهور السنة الهلالية وبين فصول السنة الشمسية الي وقوع الحج فى وقت يصعب عليهم فيه السفر لعدم اعتدال الزمن وموافقته للادراك فاجتمعوا ونسؤا السنة شهراً فوقع فى السنة محرمان الاول رأس السنة والآخر فى النسيء فلما انتهت النوبة في آخر أيام النبى صلي الله عليه وسلم الى وقوعه فى ذى الحجة وتم دور النسء على جميع الشهور حج صلي الله عليه وسلم فى تلك السنة حجة الوداع لوقوعها فى عاشر ذى الحجة كما كانت وخطب وأمر الناس بما شاء الله ان يأمر ومن جملة ذلك قوله الا ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض يعني رجوع الحج الى الموضع الاول كما كان فى زمن سيدنا ابراهيم ثم تلا قوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشرة شهراً فى كتاب الله)

ومعه أشراف الناس وخطب بعرفة خطبته المشهورة التى بيّن للناس فيها ما بيّن قال عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلّغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من أئتمن عليها وان كان ربا فهو موضوع ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله ان لا ربا وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وان كل دم في الجاهلية موضوع كله . وان أول دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب (١) فهو أول ما أبدأ من دم الجاهلية

أيها الناس ان الشيطان قد يئس من ان يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم

انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله

ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان

أيها الناس فأن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن ان لا يواطئن

(١) وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتله بنو هذيل

فرشكم أحدا وعليهن ان لا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم ان تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا انهن لا يملكن لانفسهن شيئاً وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فانى قد بلغت قولى وتركت فيكم ما ان استعصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه

أيها الناس اسمعوا قولى واعلموا ان كل مسلم أخو المسلم وان المسلمين أخوة فلا يحل لامرء من مال أخيه الا ما أعطاه اياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم

ألا هل بلغت اللهم أشهد»

اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم بعد ماقضى حجة الوداع فطارت الاخبار بذلك فوثب الاسود باليمن ووثب مسيلمة باليمامة وطلحة بن خويلد في بنى أسد يدعى كلهم بالنبوة وحاربهم رسول الله بالرسل والكتب الى عماله ومن ثبت على اسلامه من قومهم أن يجدوا فى جهادهم فأصيب الاسود قبل وفاته بيوم ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه فبعث الى المسلمين من العرب فى كل ناحية من نواحى هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم

ثم بدأ به المرض صلى الله عليه وسلم وأول ذلك ان الله نعى نفسه الشريفة اليه بقوله (اذا جاء نصر الله والفتح) . ثم بدأه الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادى به وجعه وهو على يدي نسائه حتى استقر به فى بيت ميمونة فاستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشه فأذن له وخرج على الناس فخطبهم وتحلل منهم

وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم ثم قال (ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ماعنده) . فهمها ابو بكر فبكى وقال بل نفديك بانفسنا وأبنائنا فقال على رسلك يا أبا بكر

جمع رسول الله أصحابه ودعا لهم كثيرا وأوصاهم بتقوى الله وأوصى الله بهم واستخلفه عليهم وأودعهم اليه ثم سألوه عن مغسله . وكفنه . والصلاة عليه. وعمن يدخله القبر فقال لهم فى كل ذلك ثم أوصى بالانصار خيرا . وأمر بسد الأبواب التى فى المسجد الاباب أبي بكر وقال انى لا أعلم امرأ أفضل يداً عندي في الصحبة من أبى بكر ولو كنت متخذا خليلا لتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة اخاء وايمان حتى يجمعنا الله عنده

ثم ثقل به الوجع وجاء وقت الصلاة فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلى ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة فخرج فلما أحس أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر ثم كان أبو بكر يصلى بصلاته والناس بصلاة أبى بكر (صلوا كذلك عشر صلاة على المشهور) فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج عليه السلام الى صلاة الصبح عاصبا رأسه وأبو بكر يصلى فنكص عن صلاته ورده عليه السلام بيده وصلى قاعدا على يمينه ثم أقبل على الناس بعد الصلاة ليعظهم ويذكرهم ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع في حجرة عائشة وخرج أبو بكر الى السنح «١» . قالت عائشة فثقل فى حجري فنظرت وجهه فاذا بصره قد شخص الى السماء وهو يقول الرفيق الاعلى فعلمت انه خير فاختار وذلك نصف النهار من يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الاول

«١» موضع قرب المدينة كان به مسكن أبي بكر

طار النعى فى الناس بموته فقامت رجال تزعم انه لم يمت وأدرك الخبر أبا بكر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال (بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً) وخرج الى سيدنا عمر بن الخطاب وهو يتكلم فقال له أنصت فأبى فأقبل هو على الناس وتكلم فجاؤا اليه فقال (أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت) ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) قال عمر فما هو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت على الارض ماتحملنى رجلاى وعرفت انه قد مات

قام على . وعباس وابناه الفضل . وقثم . واسامة بن زيد . يتولون تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أوصى فغسله على وعليه ثيابه مسنده الى ظهره والعباس وابناه يقلبونه معه واسامة وشقران يصبان الماء ثم كفنوه في ثوبين صحاريين وبردجده أدرج فيهن أدراجا ودفن حيث قبض فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته ولحده أبو طلحة زيد بن سهل وكان يحفر لاهل المدينة ثم دخلت الناس فصلت عليه الرجال . ثم النساء . ثم الصبيان . ثم العبيد لايؤم أحدهم أحد ثم دفن فى وسط الليل ليلة الاربعاء وقيل ليلة الثلاثاء وكانت ليلة ليلاء أظلمت بفقد الرسول وانقطاع الوحى واشترك الناس كلهم فى العزاء فطاشت العقول وخرست الالسن وعمره ثلاث وستين أو خمس وستين صلوات الله عليه

شمائله صلى الله عليه وسلم

كان حسن الخلق . وسيما . قسيما . أبيض اللون مشربا بحمرة وكان وجهه أغرّ ظاهر الوضاءة يتلألأ . فيه تدوير ولم يكن بالطويل . ولا بالمطهم . ولا بالمكلثم . واسع الجبين . أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن . بينهما عرق يدره الغضب . أبلج الحاجبين كأن مابينهما الفضة المخلصة . حادّ البصر عظيم العينين أنجلهما . أدعجهما . أكحلهما . أسود الحدقة ممزوجة بحمرتها . أحمر المآقى . أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها . شارع الأنف حسن الأرنبة . أقنى العرنين . سهل الخدين . أسيلهما صلبهما . تام الأذنين . ضليع الفم حسنه . أشنب الأسنان مفلج الثنايا براقها . اذا ضحك يتلألأ واذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه . وكان أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم . حسن الصوت في صوته صهل يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره واذا خطب اشتد غضبه وعلا صوته . كأنه منذر جيش . يقول صبحكم ومساكم . أحسن عباد الله عنقا لا بالطويل ولا بالقصير كأنه جيد دمية . أجمل الناس وأبهاهم من بعيد . وأحسنهم من قريب . أجرد أزهر اللون أنور المتجرّد . أحسن وجها . وألين الناس كفا . وأنور الناس لونا . يري رضاؤه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته . فكأن وجهه مرآة . لم يصفه واصف الا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر . من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله . فخما مفخما حسن الجسم معتدل الخلق بادنا أحسن الناس قواما لا يمدو لحم بعض بدنه بعضا . كالمرآة فى استوائها . وكالقمر فى بياضه . أطول من المربوع وأقصر من المشذب عريض الصدر بعيد مابين المنكبين سواء البطن والصدر قوى الجسم . شديد البطش . عظيم الهامة . ضخم الكراديس .

شثن الأصابع . شثن الكفين والقدمين . جليل المشاش والكتد . عبل الذراعين . عبل العضدين ضخم الزندين . طويلهما ضخم الفخذين والساقين . رحب الراحتين . سائل الاطراف منهوس الكعبين . مسيح القدمين . خمصان الأخمصين . أحسن البشر قدما اذا التفت التفت جميعا واذا مشى كانما يتقلع عن صخر وكأنما ينحط من صبب يخطو تكفيا ويمشي هونا بغير تبختر . ما مشى مع أحد الا طاله . ذريع المشية يجهد أصحابه أنفسهم وهو غير مكترث يمشي مجتمعا مشيا يعرف فيه انه ليس بعاجز ولا كسلان . ولا يلتفت وراءه ولا يعيا يقبل جميعاً ويدبر جميعا اذا جاء مع القوم غمرهم يسوق أصحابه ويبدر من لقيه بالسلام . كث اللحية حسن السبلة حسن الشعر رجله شديد سواده اذا انفرقت عقيقته فرقها . جميل الوفرة . حسن اللمة . عظيم الجمة ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط كان جعداً رجلا . يترجل غباً . واذا مشط شعره يأتي كأنه حبك رمل وربما جعله غدائر أربعا تخرج كل اذن من بين غديرتين وربما جعله على أذنيه فتبلغ سوالفه . أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر فكان طويل المسربة دقيقها موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط لم يكن على بطنه ولا على ظهره شعر غيره

أحسن الناس خلقا وأجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة والين الناس عريكة واكرم الناس عشرة وأطهر الناس طبعا واشجع الناس قلبا وأسخى الناس كفا . وأطيب الناس نفسا . أعرف الناس بالله . وأخشاهم لله واكثرهم صياما وقياما لا سيما في شهر رمضان حتى تورمت قدماه . أجود الناس بالخير لا يرد من سأله حاجة الا بها أو بميسور من القول ولا يؤيس منه راجيه . ولا يخيب فيه ولا يأتيه أحد الا وعده وأنجز له وإن كان عنده أعطاه ولا يدخر شيئاً لغد وما سئل شيأ قط فقال لا . لم يكن بالجافي ولا المهين وسع

الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء وكان يعظم النعمة وان دقت . لايذم منها شيئاً . لاتغضبه الدنيا ولا ماكان لها فاذا تعدى(١) الحق لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له بغضب لربه عزوجل ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه واذا رأي شيئاً يكرهه عرف فى وجهه وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها . كان من أفكه الناس لايحدث حديثا الا تبسما . قليل الضحك جل ضحكه التبسم . اذا افتر ضاحكا يفتر عن مثل سنا البرق اذا تلألأ . وعن مثل حب الغمام . كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بتشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تنهملان فيسمع لصدره أزيز يبكى رحمة لميت أو خوفا على أمته وشفقة ومن خشية الله وعند سماع القرآن وأحيانا فى صلاة الليل واذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته وما تثائب قط وكان يكرهه من غيره . دائم البشر . سهل الخلق . لين الجانب . دائم الفكرة . متواصل الاحزان . طويل السكوت لايتكلم فى غير حاجة . ويعرض عمن تكلم بغير جميل . ويكنى عن الامور المستقبحة فى العرف اذا اضطره الكلام الى ذكرها . ويخزن لسانه الا فى مايعنيه . ان صمت فعليه الوقار . وان تكلم سماه وعلاه البهاء . يذكر الله بين كل خطوتين ولا يقوم ولايجلس الا على ذكر الله تعالى . يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى . حلو المنطق . فى كلامه ترتيل . يتكلم بجوامع الكلم . كلامه فصل لانزر ولا هذر . بين يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كانما هو خرزات تضمن لافضول فيه ولاتقصير لوعده العاد لاحصاه . لايذم أحدا ولا يعيبه . ولا

(١) تعدي بضم التاء مبني للمجهول .

يطلب عورته ولا يتكلم الا فيما رجى ثوابه . مجلسه مجلس حلم وحياء وامانة وصبر لا ترفع فيه الاصوات ولا تأبن فيه الحرم . اذا تكلم أطرق جلساؤه كانما على رؤسهم الطير . فاذا سكت تكلموا . لا يتنازعون عنده . حديثهم عنده حديث أولهم ان قال أنصتوا لقوله وان أمر تبادروا لامره . يضحك مما يضحكون . ويتعجب مما يتعجبون . يعطي كل جلسائه نصيبه ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . وكان يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسئلته . من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام . خافض الطرف جل نظره الملاحظة . نظره الى الارض أطول من نظره الى السماء . تنام عيناه ولا ينام قلبه . يؤثر أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين . ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم . وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخلقه . يتغافل عما لا يشتهى ولا يكاد يواجه أحدا بشئ يكرهه . وما ضرب بيده شيأ قط الا انه يجاهد فى سبيل الله ولا ضرب امرأة ولا خادما . يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه . أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة . وأعظم الناس عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة يرفد صاحب الحاجة . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه . لا يقبل الثناء الا من مكافئ .

يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . ما أكل على خوان ولا فى سكرّجة . ولا خبز له مرقق . وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير . يمر بالصبيان فيسلم عليهم . ولا يدفع عنه الناس ولا يضربون عنه ولم يكن شخص أحب اليهم منه . وكانوا اذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس

كلمات من حكم رسول الله

أنى تستقصى الأنفاس الشريفة وتحصى الحكم المنيفة ورسول الله صلى الله عليه وسلم من أذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم وقصرت عن مقاومته جميع الامم وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم وانما هى كلمات على سبيل البركة والأعتبار والله يهدى لنوره من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا

قال عليه السلام

رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم . السعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه . صنائع المعروف تقى مصارع السوء . الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . جبلت النفوس على حب من أحسن اليها . التدبير نصف المعيشة . المسلم من سلم الناس من يده ولسانه . الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . المرء كثير بأخوانه . الدال على الخير كفاعله . المؤمن مرآة أخيه . الناس معادن . حبك الشئ يعم ويصم . من أصبح معافي فى بدنه آمنا فى سربه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . الرزق أشد طلبا للعبد من أجله . نية المؤمن خير من عمله . اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله . اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك . قل الحق وان كان مرا . استعينوا على حوائجكم بالكتمان . ماخاب من استخار ولا ندم من استشار . ماغال من اقتصد . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . إياك ومايعتذر منه . عش ماشئت فانك ميت واحبب من شئت

فانك مفارق واعمل ماشئت فانك مجزي به . افشوا السلام واطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام . حفت الجنة بالمكاره . مطل الغنى ظلم . البر حسن الخلق . القناعة مال لا ينفد . من تواضع لله رفعه الله . من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن انفق من مال اكتسبه من غير معصية . لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار . اصنع المعروف الى من هو اهله والى من ليس اهله . لا ايمان لمن لا أمانة له . إياكم والدين فأنه همّ بالليل ومذلة بالنهار . الوحدة خير من الجليس السوء . لا يمنعن من أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق اذا علمه . لا تظهر الشماتة بأخيك . لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وترجع بطانا . رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . ان الله عند لسان كل قائل . ان المعونة تأتى العبد من الله على قدر المؤنة والصبر على قدر المصيبة . ان الله ينهاكم عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال . مامثلكم ومثل الدنيا الا كراكب قال تحت شجرة ثم راح وتركها . ليس من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فابقيت . ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا ابقى . خير دينكم أيسره وخير العبادة أخفها . ان الله يحب الرفق في الامر كله . أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل . كفى بالمرء سعادة ان يوثق به فى أمر دنياه ودينه . لا تزال هذه الأمة بخير ما اذا قالت صدقت واذا حكمت عدلت واذا استرحمت رحمت . الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه . المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله . شر الأمور محدثاتها . اليد العليا خير من اليد السفلى . ماقل وكفى خير مما كثر وألهى . من أعظم الخطايا اللسان الكذوب . خير الغنى غنى

النفس . رأس الحكمة مخافة الله . خير ما ألقى في القلب اليقين . الخمر جماع الأثم . شر الكسب كسب الربا . شر المآكل مال اليتيم . سباب المؤمن فسق . من يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ومن يقرض الله يضاعف له الله . شر العمى عمي القلب وشر الندامة ندامة القيامة . خير العمل ما نفع . الضحك هلاك البدن . نعمتان مغبون فيهما الناس الصحة والفراغ . أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة . السلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم . السعادة طول العمر فى طاعة الله . خصلتان لا تكونان فى منافق حسن سمت وفقه في الدين . فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة . الرغبة فى الدنيا تكثر الهم والحزن . الفراغ يقسى القلب . الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . العلماء أمناء الله على خلقه . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا . لكل شئ عماد وعماد الدين الفقه . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر . من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن . دع ما يريبك الى ما لا يريبك . التمسوا الرزق فى خبايا الارض . اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم . اتقوا دعوة المظلوم . لا يبلغ العبد حقيقة الأيمان حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه أبدا وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدا . لا يعجبنكم اسلام رجل حتى تعلموا كنه عقله . ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله . الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله . رب مبلغ أوعى من سامع . من أودع معروفا فليفشه فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره . من صمت نجا من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت اخوته . أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة .

تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم

لا يكذب القائل اذا قال ان الفوضى فى العقول والشرائع والعوائد وكل شئ تستقيم به التكاليف قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانت عامة . وقد وصل الغالون من كل ملة فى أنواع الظلم الى حد قليل أن يسمى بالشقاء والفساد . واستولى الاضطراب على المدارك . وثارت الشبهات على العقائد فقلبت وضعها وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة فى عبادة الاوثان والحجارة والمنافسة فى الموؤدة والسائبة والتفاخر فى اراقة الدماء وتقطيع الارحام . ودولة الفرس والرومان كانت متظاهرة بكل مافيه نهك القوي وهلاك الاموال وظلم الأمم المجاورة فضلا عن الترف والسرف الذى بلغ مبلغه ووصل أقصى درجات الافراط فهما نظرت رأيت بغياً وحسدا وقطعا للارحام وتنافسا فى الردى وإعراضا عن ذكر الله وسلطان القوي منحصر فى سلب مابيد الضعفاء حتى ضاعت عقيدة الامن على الارواح والاموال والاعراض وأصبحت الكرة الارضية كانها دار حرب والنفوس كلها مشرأبة الى الاذى والضرر فلا تستأنس رشدا ولا خيرا من أحد أبداً (نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

أى علاج لرفع هذه الغمم عن الامم أنجع وأنفع من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم تمض عليه عشرون سنة بين دعوته وهجرته . ومناظراته وغزواته . حتى ظهرت الفائدة فى العمل وقام العدل وانتظم شمل الجماعة بالامر بالمعروف (وصرف الله القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء) وخلقوا خلقا جديدا نسوا فيه العداوة والعدوان . ثم لم تمض عشرون سنة أخرى حتى أصبحت

الامة العربية بديعة النظام شديدة البنيان نامية فيها أفنان العزة مستحكمة فيها أصول القدرة مستعلية آدابها سائدة أخلاقها مستحسنة عاداتها صاف منهلها مستقيم منهجها لذيذ موردها غزير منبعها معروفة شرعتها مهندم بناؤها متمم منظومها متحد هواؤها وأهواؤها وقد اتجهت لكل شئ يحفظ وجودها ويجمع كلمتها وينهض همم آحادها . حتى تنبهت وتقوت وسادت وامتنعت وأشرفت على رؤوس الامم وتجلت عليهم

بماذا تمّ لها ذلك ؟

تمّ لها بالدين القويم الاصول . المحكم القواعد . الشامل لانواع الحكم . الباعث على الألفة . الداعى للمحبة . المزكى للنفوس . المطهر للقلوب . الهادى للعقول بنور الحق . الكافل لكل مايحتاج اليه الانسان المشيد لمبانى العمران . الحافظ لوجود المعتنق له من آفات البهتان . المزيل للوحشة . الجامع للصيانة . الحافظ للاستقلال . المهذب للاخلاق . المحرك بمواعظه غيرة القلوب . الآمر ببيع الارواح فى حفظ شرف الامة والملة

اتى على الامة العربية فوحدها وقواها وهذبها وهداها وأنار عقولها وذكاها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت العالم أجمع وساست دوله بسياسة العدل والانصاف وليس ذلك ببعيد على دين أعدته الحكمة الالهية خاتمة الأديان لنوع الانسان ينتهى به الى غاية المدنية ويصل الى أقصى مراقى الآداب

جاء هذا الدين بصور من العبادات وضروب من الاحتفالات تفسقه الالباب وتنير العقول وتكسو الانسان حلة الانسانية مع ظهور الحجة واستقامة المحجة على انها من عماد السعادة ومصلحة البشر

طالب هذا الدين كل قادر بالعمل وانه لايليق بنفس بشرية أن تظهر

فى الوجود وقد عميت عن طرق الاهتداء وطمست عن أعينها معالم الهداية فهى كلّ لاتعمل الخير ولا يقين عليه

قال تعالى (وأن ليس للانسان الا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى) فأصبح للانسان بالدين قوة تدعوه للدأب على العمل حتى يبلغ الغاية من عمله فرفع الدين بهذا عن النفوس الجبن والخمول والكسل والعالة وبيّن ما فيها من العار والشنار والضعف الذي لايليق بالانسانية أبداً

نزلت فى الكتاب الكريم خمس آيات تأمر الانسان بالسير والحركة وتدعوه للنظر في آثار من تقدمه وقد نصبها الله منصب العظة والاعتبار وأقامها مقام الدليل على عمل أصحابها من خير أوشر مجدد فى النفوس قوة للتنافس بالاعمال واتباع أحسن الطرق فى اقتناء الفضيلة بالجد والاجتهاد لايقعدها عنها المسالك الحزنة ولا المعابر الوعرة

قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فدل هذا على أن لافضل لاحد على أحد الابتقوى الله وان الانسان كلما استغرق فى بحار العبودية لخالقه وعرف ان إلهه إله كل شئ القادر على كل شئ المحيط بما فى نفسه وقام بما خلق لاجله من أعمال الهداية التى نصبها الله سبيلا للنجاة فلا سلطان لاحد عليه الا بحق لانه بهذا التوحيد أصبح عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ماسواه له مالحر على الحر

عرف الانسان من هذا بالبرهان القطعى ان مشيئة الرؤساء التى كانت تستعبد الامم فى مرضاتها والروح الخبيثة التى كانت تلامسهم فيدعون الشرائع الالهية ناحيةً . ويطمحون الى الشهوات ويدخلون فى كل أمر لهم فيه رغبة

بلا روية ولا استبصار لاينبغي الرضوخ لها ولا التسامح فيها وانه يجب على الانسان انه فضلا عن ان يصون نفسه عن الانقياد لها كذلك يتقدم لبنى جلدته بالنصحية حتى تتأبى عنها فقد قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون)

كشف الاسلام عن العقول غمة الوهم ورفع الامتياز بين أفراده الا بعلم أو عمل قال تعالى (لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال تعالى (لا يستوى القاعدون والمجاهدون) وقرر لكل طبقة من طبقات العلوم شرفا مخصوصا ودعى لها جميعا حتى دعى الناس للنظار في النجوم بعد البحث فى هذه الرسوم وذم الجهل والقصور عن ادراك ماجاءت به الشرائع من الحكم وضرب له الامثال فقال تعالى حكاية عن المتلبس به (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ففتح بذلك باب السعادة للانسان بطهارة العقل من دنس الوهم وخلاص العمل من وساوس الطغام

جمع القلوب على الالفة والمحبة بفريضة الزكاة التى افترضها . تؤخذ من أغنيائهم لفقرائهم فاستلت الضغائن والاحقاد التى في القلوب وأصبحت الامة الاسلامية اخوانا لا نهليست ولا سوسياليست ولا كومون ولا أنارشيست (لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

أدّب النفوس بالصوم وأذاق الامير البؤس ليعلم ويحس بحال أخيه الفقير الجائع فلا ينساه من الموهبة التى وهبها الله له ولا يخليه من إحسان حتى يكون الغنى المحسن الشاكر كما ان ذاك هو الفقير الصابر

هذه قطرة من بحر الشريعة الغراء تكفينا لتقرير الكلام عليها فى هذه العجالة فنقول الى أى مرتبة يصل الانسان المتصف بهذه الاخلاق . حر

فى نفسه . معان من اخوانه . عالم بأن الله واحد لااله الا هو متحقق أن لاوصول للسعادة الا بالعمل . وان لاعمل الا ماكان فيه رضاء الله . أتراه يصبح ويمسى جاهلا بعد هذا « التعليم » وتصيبه الغواية « مع هذا الارشاد » ويتلبس بالمنكر « بعدهذا الامر بالمعروف » أم تراه يرقى بشرف هذا الاستعداد حتى يبلغ درجات الكمال التى أعدها الله وسجلها لكل من اتبع نور هذا القبس واستضاء به

ظهر الدين الأسلامى وبقية الملل قدمزقتها المشارب وفرقتها المذاهب فكان سببا لهداية الخلق أجمع وأصبحت الناس كلهم امامه بين رجلين (أما داخل فيه طوعا واما مقلد له استكباراً) وكذلك معنى قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فالنهضة العلمية فى بغداد فى عهد المأمون رضى الله عنه لاتختلف عن النهضة العلمية فى باريس في أيام لويز الرابع عشر . فان مفتاح العلوم فى كليهما الدين الاسلامى الذى دعى للنظر والبصر في كل شئ . ولم يدع نفسا غافلة لاهية الاعابها . فالدين الاسلامى منشأ كل علم وباب كل سعادة ومفتاح كل استقلال للرأى والفكر والارادة وبه تكمل الانسانية وتستعد لان تبلغ ماهيأه لها الله من حسنات الآخرة

اتفقت أهل الدنيا على أن دين الاسلام رفع كل الاثقال عن بنى الانسان وأحسن اليهم المعاملة حتى ترامت عليه أهل الملل الأخرى يبتغون فضلا من أهله فوجدوا فيه العدل والانصاف والمساواة والاخاء حتى في التقاضى مع المسلمين بين يدى قضاة المسلمين فاستكثروا بالدخول فيه « حتى أثر دخولهم فى واردات الجزية من كثرته » واستخدم الخلفاء من بنى أمية وغيرهم من وجدوا فيه المهارة من غير المسلمين كالكتبة والعمال وصعدوا بهم الى أعلى

المناصب وأسماها والاسلام يظلهم بظلاله وهم يبذلون فى خدمته أنفسهم

انتقل الى أوروبا من طريق الاندلس (باسبانيا) فاهتزت وربت وأتت من كل زوج بهيج . وأتت على آخره حملة الغرب على الشرق وتداخلهم فيه وفى أحواله أكثر من مائتى سنة وانتهت تلك الحروب الجارفة بعودتهم لبلادهم بخفى حنين استغفر الله بل عادوا خاسرين فى حربهم مستفيدين فى علمهم حافظين لكل التقاليد الدينية وقد عرفوا من أين غلبوا وأدركوا من أين أخذوا

كانت أهالى أوروبا غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها فجاءها ما أرادت عن قرب فنهضت لقطع سلاسل الذل التى لبستها من أيدى ملوكها المغرورين ونقضت العزائم التى قيدتها بها زعماء الدين . ورأوا ان اختصاصهم بهذه الفضائل وعدم مشاركتهم فيها أفضل فدأبوا على العمل بها ووجهوا همتهم لسلخها عن أهلها فما زالت تلك الامهات تنمو عندهم حتى مزقت حجب الجهل وما زالت عوائدهم تنتقل الينا ونستعيض بها عما عندنا حتى أبادت ذلك العلم وانتهى الامر بأن أضاء الغرب ذلك القبس وأصبح أهله في ظلمات لا يبصرون

لم يكتف المسلم بأن يستعين بالغربى في معرفة سير النجوم والكواكب ومعرفة الفصول والمواسم المأمور هو بالنظر اليها من قبل ذلك بعدة أجيال بل أصبح عالة عليه يستعين به فى أقل القليل من أموره المعاشية

فقد المسلمون لطائف شرف الاستقلال ودينهم مانحها . وشدوا على أيديهم الأغلال ودينهم قاطعها . واسترقوا وهم السبب فى تحرير الرقاب . وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء فى كل باب . فاض بينهم الغدر والزور ودينهم يحرم

الخديعة ويخرج الغاش من أهله . مابالهم لا يتناصحون ولا يعتصمون وقد عادوا لما كانت عليه الأمم الاولى . الأغنياء يسلبون أهل البأساء . والابناء يقتلون الآباء والبنات يعققن الامهات

كادهم أهل الغرب كيدا بلغ سكينه العظم . أخرجوهم عن مواطنهم وأبعدوهم عن مشارعهم وأزاحوهم عن مواقفهم وأصبحوا على حال من السذاجة لا يفرقون بين مايضر وينفع . يقولون وهم لا يستحون ان دين الاسلام من العوادى عليهم والسبب الاول في تقهقرهم وقد كذبوا وافتروا وهم من العماء بمكان لا يفرقون به بين عزهم أمس وذلهم اليوم ولا يدركون أين كانوا والى أين صاروا

سيأنون غدا حيث لا ينفع الانين ويبكون ولا يجدي البكاء لان البلاء الذي نزل جرته الذنوب والله كما يثيب على طاعته يعاقب على عصيانه ولن تجد لسنة الله تبديلا

اللهم انا نسألك طهارة في العقول وخلوصا فى العمل من العوج والرياء وهداية بالعلم والاعلام ورجوعا لآداب الدين التى فارقناها انك على كل شئ قدير

﴿ سيرة سيدنا أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

هو سيدنا عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم (بن مره بن كعب) بن لؤى بن غالب بن فهر التيمى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مره

ولد رضى الله عنه لسنتين وأشهر من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان أعف الناس فى جاهلية ومقدما فى قريش وهو من أهل مشاورتهم ومحببا فيهم وأعلم لمعاملهم وكان أعلم أهل زمانه بالانساب حتى كانت العرب تدعوه (عالم قريش) وتهابه لحرمته وكرمه وفضله فقد كان ذا مال جزيل فى قومه ومروءة تامة واحسان وتفضل فيهم . يصل الرحم . ويصدق الحديث . ويكسب المعدوم . ويعين على نوائب الدهر . ويقرى الضيف . وكانت له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شرفه الله بالنبوة كان أبو بكر أول رجل أجاب دعوة الاسلام من غير كبوة فأجمعت الامة على تسميته بالصديق لانه بادر لتصديق الرسول ولازم الصدق فلم تقع منه هناة ما . ولا وقفة فى حال من الاحوال . ثم قام بدعوة اخوانه ولانه كان محببا سهلا كانت رجالات قريش تألفه فاسلم باسلامه كثير وأجاب دعوته مثل سيدنا (عثمان) بن عفان والزبير بن العوام (وطلحة) بن عبيد الله وغيرهم من صناديد الاسلام واشترى من أسلم من العبيد وأعتقهم فى سبيل الله فكانت يده الطولى مبسوطة بالفضل على السادات والموالى

حاز شرف الصحبة بنص القرآن الكريم (إذ يقول لصاحبه لاتحزن

إن الله معنا) ومن حين أسلم الى حين توفى لم يفارقه سفراً ولا حضراً الا فيما أذن له صلى الله عليه وسلم فى الخروج فيه وشهد المشاهد كلها وحمل الراية العظمى فى آخر غزواته وحج بالمسلمين وصلى بالناس في مرضه عليه السلام وكل باب فى المسجد سد الا باب أبى بكر

قد امتحنه الله بأشد ما يمكن به الامتحان فله فى الاسلام المواقف الرفيعة العالية : ثباته فى قصة الاسراء وجوابه للكفار . وكونه موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته . وصاحبه فى الغار عند تحجبه . ومسايرة فى الطريق عند سيره . وقد نصب نفسه للخاصة والعامة والموالى والمعادى وترك عياله وأطفاله بين يدي الاعداء . وكلامه يوم بدر . ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الامر فى دخول مكة . وما كان منه من الثبات عند المصيبة العظمى التى خرست عندها فصحاء فحول الرجال يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم واهتمامه فى بعث جيش أسامة وقيامه فى قتال أهل الردة وقد طمع أهل الشرك فى الاسلام كما سيأتيك تفصيله ومازال يحج الصحابة بالدلائل حتى شرح الله صدورهم كما شرح صدره ورزقه تمام النعمة وصلاح الدين والدنيا فالفضل وان كان مقسوما بينه وبين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه اكثرهم أسبابا فى اقتنائه وأشدهم صوابا فى معرفة طرق نواله

ولى الخلافة لما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى فى ١٣ ربيع الاول من سنة احد عشر . وأول من بايعه عمر بن الخطاب وتبعه الرأى الغالب من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه أفضل هذه الامة وأولاها بالامامة لفضيلته وخاصة منزلته وشدة استحقاقه من إسلامه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحد من عالمه وفى عصره على حسب صحة الاحاديث

والاسانيد في تقديم أبي بكر لان رجالها أعم وخيرهم أكثر واسنادهم أصح .
وقد صنع أبوبكر ماصنع فى ماله وكان المال أربعين ألفا من الدنانير فانفقه على نوائب الاسلام وحقوقه ولم يكن ماله ميراثا لم يكد فيه أوهو غرير لم يشعر بعسر اجتماعه وامتناع رجوعه بل هو ثمرة كد وكسب جولان وتعرض لحكم الليالى والايام ثم هو ثقيل الظهر بالنسل ذابنين وبنات وزوجة وخدم وحشم يعول أبويه وماولدا ولم يكن فتى حدثا فتهزه أريحية الشباب وغرارة الحداثة .
والاعجب انه لم يكن باذاء هذا الانفاق وحذاء هذا العطاء رغبة تدعو أوطمع يحدو لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بلغ من رهطه ولا من قومه قوة تصد عنه أذى المشركين من قريش فيطمع فى جاهه بل هم على ماعلمت من السطوة والقدرة ثم لم يكن له على أبي بكر يد قبل ذلك مشهورة فيخاف العار فى ترك مواساته عليها

قضى الامر ببيعته فصعد المنبر وقال (أيها الناس قدوليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينونى وان صدقت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه - ان شاء الله - لايدع أحدمنكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله)

قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بوظيفة الامامة من حراسة الدين وكفاية الامة وصيانة الشرع الشريف فلم ينحرف عن شئ يمنة ولايسرة وسار وكتاب الله يقوده وسنة رسوله تحوطه

أعماله رضى الله عنه

بدأ بتسيير جيش أسامة بن زيد الذى كان جهزه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يثنه عن ذلك ماحصل من الاضطرابات فى بلاد العرب على أثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيع الجيش ماشيا وأسامة راكب فقال أسامة لتركبن أو لانزلن فقال والله لانزلت ولاركبت وماعلى ان أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله (ثم أوصاه وأصحابه فقال . لاتخونوا ولاتغدروا ولاتغلوا ولا تمثلوا ولاتقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولاامرأة ولاتفرقوا نخلا ولاتحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولابقرة ولا بعيرا الالاكل واذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له واذا لقيتم قوما فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ماحصوا عنه فاذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله . ياأسامة اصنع ماأمرك نبى الله ببلاد قضاعة ثم أنت آفل ولاتقصر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم ودعه فذهب أسامة وغاب أربعين يوما ثم رجع المدينة ظافرا غانما كما سيأتى ونفع الله جماعة المسلمين بهذا الجيش نفعا عظيما لانه فت فى عضد المنافقين وعلمت العرب ان المسلمين لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يأتوا على فعله من الاذى

نعم رد البلايا الكثيرة عن جماعة المسلمين . فقد منى الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمصيبة العظمى مصيبة الردة التى لولم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لتشتت شمل المسلمين وأصبحوا شذر مذر مالبثت العرب بعد علمها بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى

ارتدت الا قريشا بمكة وثقيفاً بالطائف وأصبحت الناس على قسمين تارك للدين كاتباع مسيلمة وأهل اليمن وهم الذين اتبعوا الاسود العنسى . ومعطل لبعض أركانه كالزكاة وهم أتباع مالك بن نويرة

شمر رضى الله عنه عن ساعده غير مبال بهذه الاهوال الجسام ولا هيّاب لها مع قلة الجيش وكثرة العدد بل مع قلة المسلمين وكونهم كالغنم فى الليلة الممطرة بقلتهم وكثرة عدوهم واظلام الجو عليهم بفقد نبيهم وهكذا الواثق بوعده سبحانه وتعالى (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقام معتمدا على ربه مستسهلا المصاعب فكال الله سبحانه وتعالى أعماله بالنجاح

عاجلته عبس وذبيان مع جماعة من بنى أسد وكنانة وجاؤا مانعي الزكاة وأطمعوا الناس فى المدينة لقلة من فيها فأعان الله المسلمين فلم تطلع الشمس عليهم حتى ولت الاعداء الادبار ثم جاء أسامة فاستخلفه على المدينة وقاتل المرتدين وهزمهم وقد كان استراح جيش أسامة وثاب من حوالى المدينة فعقد احد عشر لواء لاحد عشر قائد وسير الجيوش لقتال أهل الردة فجبر الاسلام بعد ما كسر وفض حدتهم وفرق كلمتهم وكسر شوكتهم والحمد لله

خص كل قائد بناحية لقتال من فيها من أهل الردة فـ (١) سيف الله خالد بن الوليد لطلحة بن خويلد الاسدى ومالك بن نويره و (٢) عكرمة بن أبى جهل الى مسيلمة باليمامة و (٣) شرحبيل بن حسنه لاهل اليمامة و (٤) أبى أمية الى جنود العنسى وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن و (٥) حذيفة ابن محصن الى أهل دبا و (٦) عرفجة بن هرثمة الى أهل مهره و (٧) سويد بن مقرن الى تهامة اليمن و (٨) العلاء بن الحضرمى الى البحرين و (٩) طريفة ابن حاجز الى بنى سليم وهوازن و (١٠) عمرو بن العاص الى قضاعة و (١١) خالد

ابن سعيد الى مشارف الشام . وزود كل قائد بما شاء الله أن يزوده من الارشاد

أحد عشر باب من أبواب الفتنة فتحت فى آن واحد وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يندمل بعد والامر فى سره وجهره محتاج الى المجاهدة الحقة والقائم لا بد له أن يدأب بالاستعانة بالمعروف مع من أجاب الدعوة واستمر على الاقرار ويقاتل من رفضها ولازم الانكار وأصحاب العجلة والفساد من العرب حشو الاسلام والمسلمين وقد ارتفعت الامانة فالكل عيون على الكل من قبل الاعداء

هذا الموقف من أشد المواقف الحرجة التى ليس لها الا عزم سيدنا أبى بكر رضى الله عنه يذكى سراج هدى نبيه صلى الله عليه وسلم بنور الحق الساطع ويدعو الناس اليه بعد ما ألفتهم داعى الشيطان وأدبروا عن الهوى وأصبحوا بعد ايمانهم كفارا

اجتمع المشركون واجتمع المسلمون ونازل كل قائد خصمه ومازالوا بهم حتى هزم الله أعداءه على يد أوليائه كما بينته أصحاب السير فى كلام طويل ولم يهمه أحد منهم مع كثرة المقاتلة ولم يغلبوا على قلتهم ولم يخذلوا على ضعفهم لانهم بعيدون عن الهوى غير حائدين عن الصراط السوي

لينظر الانسان نظرة غير ذي هوى فيري أبا بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين كالشعرة البيضاء فى الثور الأدهم والعرب كلهم أعداء له ولمن معه ثم ليتأمل فعله من إعزاز دين الله وقتال من كفر بالله ولا سلاح معه أشد من الوثوق بوعد الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فجازاه الله بتحقيق قوله هذا ومنحه النصر المبين والفتح العظيم ودانت له امم العرب واجتمعت كلمتها بعد تفرقها والف له القلوب بعد تشتتها وتوجهت همة الجميع لتحقيق قوله تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله)

فتوحاته رضى الله عنه

كانت بلاد العرب مجاورة لا كبر ممالك الدنيا إذذاك . مملكة الفرس فى الشرق ومملكة الروم فى الشمال . ولا حاجة لتكرار الكلام فى شرح ما كان يعتقده ملوك هاتين المملكتين فى نفوسهم من العظمة بعد ماقرأ القارئ فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم أن كسرى أبرويز مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا واستعظاما من قراءته . فما بعد هذا دليل على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كان من فضل تعميم عدل الاسلام ومساواته بين الامم الاخرى هدمهما بالمرة . وقد كانت الحال من جهة الفرس الى أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جيوش العرب فتحت اليمن وضمت اليه البحرين وعمان والكل مما هو تحت حماية الفرس إذذاك . وكانت من جهة مملكة الروم قاصرة على كتابة كتاب الى هرقل ملك الروم وتجهيز جيش فى السنة الثانية من الهجرة ورضاء بعض عمال هرقل بالجزية

انتدب ابو بكر رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد ليضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية وذلك فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وأمره أن يبدأ (بالأيلة) (١). وانتدب عياض بن غنم وأمره أن يبدأ (بالمضيح) (٢) وأمدهما بما شاء الله أن يمدهما به وأوصاهما أن لا يستعينا بأحد ممن ارتد على غزو أبدا

سار خالد بن الوليد ورتب جيشه ثلاث فرق وقصد ثغر (الحفير) (٣)

---

(١) الايلة ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسى عند مصب دجله

(٢) المضيح قرية على الفرات شمال العراق

(٣) الحفير موضع قريب من الايلة

وكان صاحبه من عظماء الفرس اسمه «هرمز» تبغضه العرب وتتقم عليه لكثرة غزواته فيهم فسبق المسلمين على الماء ونزل خالد على غير ماء . ثم تلاقيا وسط الصف فاحتضنه خالد وقتله وحمل جيش المسلمين وانهزم المشركون واقتسمت الغنائم وأرسلت البشائر وخمس الغنيمة الى أبي بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة بملك الفرس أزدشير ومقامه (بالمدائن)[١٠] فأرسل الى المسلمين جيشا آخر يقوده عظيم من عظمائهم فجمع المنهزمين من الفرس وسار بهم وبجيشه حتى وصل نهر (الثنى) فالتقا الجيشان هناك فقتل قائد الفرس وحمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغرق الكثير منهم فى النهر وأخذت الجزية من الفلاحين وساروا زمة ارسلت بشري الفتح وخمس الغنائم الى أبي بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة أيضا بملك الفرس فأخذ من عزمه ومن صبره ما أخذ واحال ذلك الجبروت والاستكبار الى حال آخر صيره ينظر فى أمره وألفته الى تلك الطامة المقبلة عليه فسير جيشا يقوده عظيم وفى أسره آخر يقوده أعظم منه ولكن كل هذا لم يغن شيئا ولم تلتق عساكر خالد بن الوليد بعسكر الجيش الأول حتى مات القائد فى هزيمته وأصاب خالد أبناء من «بكر بن وائل» وقتلهم فكتب نصارى بكر لملك الفرس بما كتبوا فأمر الجيش الثانى أن يلحق جماعة المسلمين ويدرك بقية الجيش المنهزم ولكن القائد سير امامه ذلك الجيش برياسة غيره وسار هو الى أزدشير فوجد أخبار الهزيمة وصلته فاعلته واصبح فى مرض عضال

---

١٠ المدائن للاكاسره على نهر الدجلة جنوبي بغداد شرقية وغربية وكان فى الشرقية ايوان كسرى

ثم حصلت واقعة (الليس) (١) وثبتت فيها الاعاجم لتوقعهم المدد وثبت المسلمون لتيقنهم النصر من الله

وبعيد ما بين طالب رفه من زمان ومن يحاول زخرا

فجعل الله كلمته هى العليا ولم تمض ضحوة النهار حتى ولى الفرس الادبار بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة وسار خالد بن الوليد قاصدا الحيرة (٢) فى سفن في بحر الفرات فخرج اليه (مرزبان) الحيرة وأرسل ماء الفرات فى الجداول والترع المتفرعة منه حتى انخفض منسوب النهر ووقفت سفن المسلمين على اليبس فسار خالد بالخيل وحاصر القصور وشدد حتى خرجت القسس من ديورها تصيح بأهل القصور وتطلب منهم الصلح فصالحهم على الجزية فدفعوها وأهدوه هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس فارسل خالد بالفتح والهدايا الى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزية وأمر خالدا ان يعدها منها

فلما رأي حكام مابعد « الحيرة » فعل خالد صالحوه على الجزية وأخذ فى مكاتبة ملوك الفرس وسار الى مدينة الانبار (٣) فطلب صاحبها شيرزاد فصالحه

ثم سار سيدنا خالد وافتتح عين النمر عنوة (٤) ثم سار عنها قاصدا دومة الجندل وافتتحها عنوة أيضا

أثار هذا من حمية العرب الذين تحت حكم الاكاسرة بهذه الجهات من عهد عظيم بسبب من قتل من العرب إخوانهم بعين النمر ودومة الجندل

---

(١) الليس موضع على الفرات من قرى الانبار

(٢) هي عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهى غربى الفرات على قرب الكوفة

(٣) مدينة على شاطئ الفرات شمال الكوفة

(٤) بلد فى برية العراق بالبعد عن الانبار بثلاث مراحل

فطلبوا من الفرس جيشا يكون لهم عونا . فأخرجت لهم فارس فارسين عظيمين فى عسكر كبير فكان حظهما في منا صبة القتال مع جيوش الاسلام حظ من فات ثم وقعت واقعة « الفراض » وقاتل المشركون فيها قتالا شديدا ثم انهزموا وأمر سيدنا خالد بن الوليد بالرجوع الى « الحيرة »

كان من حكم الحال فى ذلك الوقت ان ينصرف سيدنا خالد عن حرب العراق ويسير الى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك فصرفه أبو بكر واستخلف على جيشه في العراق « المثنى بن حارثة الشيبانى » فقام من الحيرة حتى أتى بابل (١) وأقام بها حتى لاقاه « هرمز » في جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالا شديداً أفضى الى هزيمته

كثرت الاختلافات الداخلية فى مملكة الفرس فشغلتهم عن أمرهم مع المسلمين واطمأن الحال فى كل مافتحته جيوش المسلمين من البلاد فرأى « المثنى » ان يستخلف على جيشه ويقصد المدينة ليفاوض سيدنا أبا بكر فى أشياء فوجده مريضا فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال اذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع « المثنى » ولا تشغلكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى وقت وفاة رسول الله وماصنعته وما أصيب الخلق بمثله واذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق الى عراقهم فانهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليه

هذا ماانتهى اليه أمر فارس فى ذلك العهد واذا استحضر القارئ فى ذهنه صورة بلاد العرب يرى انها كانت محدودة بدولة الروم شمالا ومملكة فارس شرقا وان الدعوة للدين بواسطة الجيوش الاسلامية قد انتقلت منها

(١) بلدة قديمة شرقي الفرات

فى عهد الصديق الى هذه الممالك وان سيدنا خالد بن الوليد اتجه جهة الشرق وأزال ملك فارس عن كل الاراضى الحصبة التى فى غربى الفرات وهو مايعبر عنه بريف العراق وأصبح حد مملكة فارس نهر الفرات . وأما من جهة الشمال فالذي وقع بعد الذى علمت من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل والكتاب الذى كتبه لملك غسان بالبلقاء والجيش الذي بعثه رسول الله تحت امرة زيد بن حارثة فى السنة الثامنة من الهجرة وقبول صاحب جرباء وايلة بالجزية

وجه سيدنا أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص الى مشارف الشام وأمره ان يكون ردءاً بتيماء لايفارقها فجهز اليه ملك الروم جيشا فسار اليهم خالد فافترقوا فكتب لأبى بكر بالخبر فكتب اليه بالاقدام فتقدم ولقيه بطريق رومى اسمه ماهان فهزمه خالد وكتب الى أبى بكر يستمده فاهتم بأمر الشام فاستقدم عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد هديم من قضاعه كان أبو بكر مؤمره اليها يوم عقد الألوية فى ذى القصة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده ولايتها فكتب اليه أبو بكر (انى كنت رددتك الى العمل الذى ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ووعدك به أخرى انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته وقد أحببت ان أفرغك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة الا ان يكون الذي أنت فيه أحب اليك)

فكتب اليه عمرو (انى سهم من سهام الاسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به)

جهز أبو بكر أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته

فلسطين (١) . وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن (٢) وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان . ووجهته البلقاء (٣) . وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح . ووجهته حمص . (٤) وساروا جميعاً على بركة الله . وقد ودعهم أبو بكر ماشياً وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت الشام

بلغ « هرقل » أمر هذه الجيوش فقال لقومه أرى ان تصالحوا المسلمين فوالله لان تصالحوهم على نصف مايحصل من الشام ويبقى لكم نصفه من بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم فرفضوا رأيه فسار حتى نزل « حمص » وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه فأشار عمرو بن العاص على الامراء بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك (٥) وكل واحد أمير على جيشه والروم امامهم وبين الفريقين خندق فكان الروم يقاتلون باختيارهم وان شاؤا احتجزوا بخنادقهم وأقام الفريقان على ذلك صفرا والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة فأرسل الامراء الى أبى بكر يستمدونه فكتب الي سيدنا خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره ان يستخلف على جنده بعد ان يأخذ معه نصفه ويتوجه الى الشام مدداً لامرائه (كما قلنا ذلك عن قرب بعد ذكر واقعة دومة الجندل) سار سيدنا خالد ينسف الارض نسفاً حتى وصل الى المسلمين فى ربيع

---

(١) كورة فى جنوب الشام

(٢) كورة بالشام تبتدأ من بحيرة طبرية وتنتهي بالبحيرة الميته

(٣) بلد بالشام

(٤) مدينة شامية فى الشرق من شهر العاصى

(٥) واد فى الجنوب الشرقي من الشام

الآخر وصادف وصوله وصول «ماهان» بجيش مدداً للروم فولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من بأزائه متساندين فرأى خالد ان هذا القتال لايجدي نفعاً مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الامراء وخطبهم

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

ان هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه البغى ولا الفخر . أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فأن هذا يوم له مابعده ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون فأن هذا لايحل ولا ينبغى . ان من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون انه رأي من واليكم ومحبته)

قالوا هات فما الرأي فقال

(يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتعاوروا الأمارة حتى يؤمروا كلهم وان يؤمر هو فى اليوم الاول) . فقبلوا مشورته

خرج سيدنا خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك . جعل القلب (فرقا) وأقام فيه أبا عبيدة . وجعل الميمنة (فرقا) وأقام فيها عمرا وشرحبيل . وجعل الميسرة (فرقا) وأقام فيها يزيد . وجعل على كل فرقة رجلا من الشجعان(١) وكان عدد الفرق ستة وثلاثين فرقة وكل فرقة ألف رجل

انتشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الاسلامية . ثم ان الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم وأزاحوهم عن مواقفهم فهد سيدنا خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة فاخرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا خلقا كثيراً وقاتل نساء المسلمين فى ذلك اليوم قتالا شديداً وأبلين بلاء حسنا

(١) فى منزلة البكباشى الآن

انتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شرّ هزيمة وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت سيدنا الصديق وخلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتولية أبى عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش الا بعد الفتح

ربما يقول قائل الشأن فى الحروب ان تكون سجالا فلماذا تفاوتت في هذه الوقائع مواهب القوى والهمة والعزم مع ماهو معروف فى دولة الروم من تمام التطاول الى اجتناء ثمار الأعمال ولهذا فنحن قبل ذكر خبر وفاة سيدنا الصديق ذاكرون حديثا عن واقعة (اليرموك) هذه احدي وقائع العرب مع الروم. ترد نزعات الفكر ونزغات الأهواء ان جمحت وتعرف الانسان ان هداية الدين وصحة الاعتقاد وكمال العقيدة اذا تمت لأنسان ترق منه الوجدان وتلطف منه الاذهان وتنفذ منه البصيرة وترفع منه الفكر لاجتلاء النتائج ويصبح صاحبها وله من القدرة الباهرة مالا يهتدم بناؤه أبدا

قال الامام أبو الحسن سلام الباهلى الاشبيلى فى كتابه الذى وضعه في آداب النفوس ومكارم الاخلاق عند الكلام على مراتب الجود ودرجات السخاء (حديث حذيفة العدوى) قال انطلقت يوم (اليرموك) اطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه فلما وجدته أشرت اليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى نعم. فاذا برجل يقول آه فأشار الىّ ابن عمى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو هشام ابن العاصى فلما أشرت اليه سمع آخر يقول آه فأشار الىّ هشام أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فانصرفت الى ابن عمى فاذا هو قد مات

أى شئ أعظم من هذا الايثار وأى صبر أجل من هذا الاصطبار. لقد تقصر الالسن عن تعديله وتكل الافهام عن تحديده ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وفاة سيدنا الصديق

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة . حم أبو بكر فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب فكلهم قال خيرا فدعا عثمان بن عفان وأملى هذا العهد

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر . ويوقن فيها الفاجر . انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً فأن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

ثم أمر بالعهد فقرئ على المسلمين وقد أطل عليهم فقالوا سمعنا وأطعنا ثم نادي عمر فقال له (انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعمر ان لله حقاً بالليل لايقبله بالنهار وحقا فى النهار لايقبله فى الليل . وانه لايقبل نافلة حتى تؤدي فريضة ألم تر ياعمر انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بأتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لايوضع فيه غدا الا حق ان يكون ثقيلا . ألم تر ياعمر انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بأتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لايوضع فيه غدا الا باطل ان يكون خفيفاً . ألم تر ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهبا لايرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه . ألم تر ياعمر انما ذكر الله

أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت انى لأرجو ان لا اكون منهم . وانما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان من شئ فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه)

توفي الصديق رضى الله عنه وغسلته زوجه اسماء وابنه عبد الرحمن وكفن في ثوبيه كما أوصى ودفن ليلا فى حجرة عائشة وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن عبيد الله فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاثة وستون سنة

تتوجت هذه الايام بأعماله فكانت في سلسلة الأيام من أفضل العوامل فى احراز الفضائل . لمّ شعث المسلمين بعد فرقتهم بردة الكثير من العرب . جرد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الاسلام (الروم. والفرس) دعاهما لدعوة الدين أو الدخول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الامم . لتخلص هاتين الامتين من ملوكهما الذين يعدون رعيتهم عبيداً ونفوسهم آلهة وشهواتهم مهما عاد ضررها على الرعية سنة وفرضاً . فقازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها

كانت حالة الخلافة الاسلامية الى عهده (انه الخليفة) وسيدنا (عمر بن الخطاب قاضيه) وسيدنا (أبو عبيدة أمينه) (وكتابه عثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم)

كانت ولايات الاسلام في عهده عشرة لكل واحدة وال

١ (مكة) وعليها عتاب بن أسيد الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢ (الطائف) وعليها عثمان بن العاصى الثقفى

٣ (صنعاء) وعليها جماعة من المهاجرين من بنى أمية

٤ (حضر موت) وعليها زياد بن لبيد

٥ (خولان) وهى قبيلة عظيمة تسكن اليمن وعليها يعلى بن منبه

٦ (زبيد) وعليها أبو موسى الاشعري

٧ (نجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحرث وعليه جرير بن عبد الله

٨ (البحرين) من شواطئ بلاد العرب المطل على الخليج الفارسى وعليها العلاء بن الحضرمى

٩ (جرش) وهو مخلاف باليمن وعليه عبد الله بن ثور

١٠ (دومة الجندل) وعليها عياض بن غنم وقاعدة أعماله الجدة

وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشى المخزومى

وأمير جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى (بن كعب بن لؤى) بن غالب بن فهر العدوى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى . وكنيته أبو حفص . ولقبه الفاروق .

ولد رضى الله عنه بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وهو من أشراف قريش واليه كانت السفارة فى الجاهلية . فاذا وقعت قريش في حرب بينها أو بين غيرها أو نافرهم أو فاخرهم أحد كان هو السفير فى أمرهم والنافر والمفاخر عنهم

تربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية وكان من أكبر المعارضين للاسلام عند ظهوره ثم من عليه بالاسلام فكان من أكبر أسباب معزته بركة دعوته صلى الله عليه وسلم (اللهم أعز الاسلام بعمر) فكان اسلامه فتحا . وهجرته نصرا . وامامته رحمة

أسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة بعد أربعين رجلا واحدي عشرة امرأة فما دان بالاسلام حتى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بترك الاختفاء والتستر وإظهار الدين فخرج النبى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب (كأنه قارعة القدرة العظمى) ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم فلم يكن منظرا أنكى فى عيون المشركين من هذا المظهر يشق مرائرهم ويحرج صدورهم . يودون لهم من الاذى مايودون وماهم ببالغيه

كان رضى الله عنه نصيرا للدين بما أتاه الله من قوة البطش غير مستخف

بعمله ولا هيّاب لأحد كأن الله قد اختار لسانه للنطق بالحق واختصه بذلك ليقرع الأذان ويشق الحجب حتى انه عند ماأذن الله له بالهجرة الى المدينة لم يتسلل لها خفية بل جاء الى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين ثم أتى حلقهم واحدة واحدة وصاح بعظمائها : شاهت الوجوه . وأخبرهم بهجرته وقال لهم : من أراد ان تثكله أمه ويتيم ولده وتترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى . فلم يجسر أحد منهم على اتباعه

حضر المشاهد كلها مع رسول الله من بدر الى تبوك (وهو ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) وكان عجيبا فى فعله وعمله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم محدثون ملهمون فان يكن في أمتى أحد فانه عمر)

كأنّ الله قد جعل الحق على لسانه وقلبه يقول به . وما نزل بالناس أمر فقالوا فيه وقال الا نزل القرآن على نحو مايقول عمر فوقعت موافقات كثيرة أوصلها بعضهم الى عشرين وأشهرها مسئلة قتل أسرى بدر . ومسئلة الحجاب . ومسئلة الخمر . ومسئلة الاستغفار . ومسئلة الصلاة على أبى .

هو أول من سمى أمير المؤمنين . وأول من كتب التاريخ الهجرى . وأول من اتخذ بيت المال وكان ايراده من زكاة المسلمين . وجزية أهل الذمة . وخمس الغنائم . ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين . فكان مطهراً من المظالم نقيا عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلما . وأول من دوّن الدواوين لحصر أسماء الغزاة . وأول من سن قيام رمضان وأنار المساجد في لياليه . وأول من عس الليل . وأول من عاقب على الهجاء . وأول من جلد فى الخمر ثمانين . وأول من حرم المتعة ونهى عن بيع أمهات الاولاد

وجمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات . وأول من اتخذ الديوان وأول من مسح السواد وأول من حمل الميرة من مصر الى المدينة وأول من أخذ زكاة الخيل . وأول من اتخذ الدرّة وأول من استقضى فى الامصار وأول من مصّرها . اختط الكوفة ومصّرها . والبصرة . والجزيرة . والشام ومصر . والموصل . وأول من اتخذ دار المؤن ليعين منها المنقطع . فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق مايصلح من ذلك

وله من الكرامات الغريبة ومن أشهرها أيضا وأعجبها صيحته وهو على المنبر (ياسارية الجبل) وكتابه لنيل مصر وابطاله تلك العادة السيئة وقطعها عن أهل مصر . ودعاؤه على أهل العراق وقد حصبوا أميرهم : اللهم قد لبسوا علىّ فالبس عليهم وعجل بالغلام الثقفى يحكم فيهم حكم الجاهلية لايقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم . والحجاج يومئذ ماولد

وأكبرها دلالة على فضله وأشدها علامة على نبله رضى الله عنه ماذكره بعض المؤرخين (١) ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر فيكثرون بالمشرق وبلاد المغرب

(١) راجع الجزء الاول من كتاب علم الدين صحيفة ٣٣٩

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

لم يغب عن القارئ انا تركنا جيش المسلمين (ببابل) تحت قيادة بشير ابن الخصاصية الذى استخلفه المثنى حينما قصد المدينة لملاقاة الصديق (كما ذكرنا فى ترجمته) وقلنا ان نهر الفرات أصبح حداً لمملكة فارس . وتركنا جيش المسلمين كذلك فى حرب الروم باليرموك بعد هزيمة الروم عنها . وسنأخذ الآن فى سرد ماافتتحت جيوش المسلمين فى بلاد هاتين المملكتين فى مدة هذا الخليفة رضى الله عنه وأرضاه

﴿ أمر فارس ﴾

ندب الناس مع المثنى وأمّر عليهم أسبقهم انتدابا وكان أبا عبيد بن مسعود وقال له وأوصاه وصية رجل دخل بين الأمم وطبائعها فقال له : ستقدم على أرض المكر والخديعة تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون . احفظ لسانك ولا تفشين سرك حتى لا تكون بمضيعة

ثم أمر المثنى ان يتقدم الى ان يلحق الجيش وأمره ان يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة في عشر وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين ببعض اختلافات داخلية على من يلى ملكهم ثم اتفقوا أخيرا على ولاية « بوران بنت كسرى » وأن يقوم بأمرها « رستم » حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى يصلح للملك فاستعد رستم لقتال المسلمين وجهز الجيوش فارسل جيشا الى الفرات وجيشا الى كسكر (١) وآخر لملاقاة المثنى . وأغرى الفلاحين

(١) كسكر بلد على الشاطيء الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة وعلى انارها واسط

ان ينتقضوا على المسلمين فخرج المثنى من الحيرة الى خفان(١) وانتظر أباعبيد حتى وصل بعد شهر فسار منها الى الفرس فهزمهم ولحقوا بكسكر فقصدها أبوعبيدة وقد كانت جيوش الفرس تلاحقت فالتقى بهم أبو عبيدة وهزمهم شر هزيمة وبث سراياه وتجمع بما حواليه من الأنهار واعتصم بمعاقله حتى جهز الفرس جيشاً آخر تحت قيادة (بهمن) المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كاويان)(٢) طولها اثنى عشر ذراع فى عرض ثمانية أذرع مفصلة من جلود فحدثت بين المسلمين والفرس وقائع على الفرات انتهت بهزيمة الفرس وتقدمت العرب حتى مكنها الله من سواد العراق واجلاء الفرس عنها

تضايقت الفرس من امتداد أيدى المسلمين لأخذ الجزية واستعمال ما افتتحوه من البلاد وزوال سلطتهم من غرب الفرات وضعف بلاد الجزيرة وغير ذلك من الطوارئ التى تتبع الهزيمة والانكسار فقامت عامة الفرس وخاصتهم تتدارك هذا الاضمحلال والزوال فاجتمعوا ورأوا من آل كسرى رجلا اسمه «يزدجرد» فتوجوه ونادوا به ملكا عليهم فجمع القادة وسير الجيوش.

بلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب فجمع جيشا عظيماً تحت قيادة سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بوصية تنفذ في القلوب قبل الاذان فقال له . (ياسعد بن أم سعد لايغرنك

---

(١) ماسدة قرب الكوفة

(٢) راية فريدون أحد سلاطين العجم وفيما تقول الناس انه كان حدادا فى عصر الضحاك فلم يصبر على ظلمه فجمع الجلود التى كان يستعملها فى صناعته مئزرا صنع منها هذه الراية وثار على الضحاك فتبعته الاهالى ثم قتلوا الضحاك وولوه عليهم

من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله . فان الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا بطاعته فالناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة فانظر الامر الذي رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه) . فسار سعد يقود هذا الجيش الشديد ويستأنس برأى أمير المؤمنين السديد ومعه أهل البأس والرأى وأهل الجهاد والصبر يضم اليه أقاصيه وطلائعه ويجمع اليه مكيدته وقوته ويتأمل فى عورات عدوه ومكاره مقاتله ويرهب عدو الله وعدوه حتى وصل الى « زرود » فبلغه وفاة المثنى من جراحه التى أصابته فجمع سعد جيش المثنى وضم رجاله الى رجاله وعبى الجيش ورتب المقدمة والساقة والميمنة والميسرة وسار نزل القادسية(١) فأقام شهراً لا يأتيه عدو . ثم تراسل مع « يزدجرد » ملك الفرس وانتهى الحال على خروج رستم فى مائة ألف أو يزيدون لقتال المسلمين

فلما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معدي كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الاسدى يستكشفان خبر الجيش فلم يسيرا الا قليلا حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف فرجع عمرو وظل طليحة سائراً حتى دخل جيش الفرس وعلم حقيقة مافيه ورجع

تلاقى الجيشان ووقعت واقعة « القادسية » التى استمرت أياما وليالى ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة لنفار خيل العرب منها وأشدها ليلة الهرير التى حاربت فيها العرب والفرس من أذان العشاء حتى قام قائم الظهيرة وترك المسلمون فيها الكلام فلا تسمع الا صوت الحديد كأنما ساحة القتال سوق القيون وانتهى الأمر

(١) قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الآن

بهزيمة الفرس التى لم يسمع بمثلها وأخذت تلك الراية العظمى وقتل فيها رستم مع الكثير من مشاهير الفرس وقوادهم وباد عسكرهم قتلا وغرقا وأصبح أمر فارس بعد مالاقته من العرب فشلا لم تغن عنها الرجال ولا الافيال ولا الاقيال

مكث سعد ريثما استراح جيشه ثم قام عازماً على فتح المدائن فسار يفتح البلاد التى فى طريقه ففتح (البرس) و (بابل) والله ينصرهم بالرعب والفرس مدحورون لانهزامهم فى واقعة القادسية فى أسرع من لفت الرداء وناهيك بقتال من ملئ رعبا فهربت قوادهم . قصد أحدهم (نهاوند) والثانى (الاهواز) وبقية المهزومين قصدوا المدائن فتتبعتهم العرب تشردهم وتشتتهم ويفتحون مايلاقونه ففتحوا (كونى) و (ساباط) وصالحوا أميرها على الجزية ثم سار الجيش قاصداً المدينة الغربية فرأى المسلمون ايوان كسرى يلوح امامهم أبيض ناصعاً فتذكروا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على مارواه مسلم عن جابر بن معمرة ان رسول الله قال (عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسري أو آل كسرى) فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وازداد اقبالهم واشتاقت نفوسهم الى أن يكونوا تلك (العصيبة) المعنية بالذكر فى حديثه صلى الله عليه وسلم فنادى ضرار بن الخطاب (الله اكبر) هذا أبيض كسري هذا ماوعد الرحمن وصدق رسوله وكبر المسلمون وحاصروا المدينة وفتحت القرى المجاورة . وقد جمعت الفرس المعابر الا معبرة واحدة أو مخاضة تصلح للعبور دل المسلمين عليها أحدهم فعزم سعد على قطعها . فأمر فعبرت جماعة منهم (عدى) ليحمى الفراض حتى يعبر المسلمين . ثم أمر المسلمين فعبروا فلم يلتفت الفرس الا والفراض محمية والمسلمون يعبرون وقد

سقطت الفرس فى أيديهم فهرب «يزدجرد» الى حلوان(١) ودخل المسلمون المدينة من غير معارض ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وصلى وقرأ فى صلاته قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين » وأرسلوا البشائر والغنائم لأمير المؤمنين فلما رأى رضى الله عنه ذخائر كسري قال (ان قوماً أدوا هذا لذو أمانة) فقال له على (انك عففت فعفت الرعية) . ثم فتحت (جلالاء) وترك يزدجرد حلوان هرباً وسار الى الرى وفتحت (تيكريت) و (نينوى) و (الموصل) و (ماسبذان) و (هيت)

ثم مكثت « المدائن » قاعدة أعمال العراق زمنا حتى رأى سيدنا عمر فى وجوه العرب تغيراً وفى أبدانهم ضعفاً فأمر سعداً أن يرتاد منزلا فاختار الكوفة(٢) بعد اختيار واختطت وبنيت دورها باللبن وجعل النهج (الشارع الاعظم) ٤٠ ذراعاً وما يليه ٣٠ ذراعاً وما بين ذلك ٢٠ ذراعاً والازقة ٧ أذرع وأسس مسجدها وصارت قاعدة أعمال العراق وتتبع لها من أعمال الفرس الباب . واذربيجان . وهمدان . والرى . واصبهان . وماه والموصل . وقرقيساء . وكلها في الجهة الشمالية

ثم فتحت « تستر » فتحها جيش البصرة . ثم السوس . وواقعة نهاوند وتم الانسياح فى بلاد العجم لضعف شوكة الفرس فاصبح سيدنا عمر أمير المؤمنين لايخاف على المسلمين شيئاً من توغلهم فى البلاد فعقد الألوية وسارت الجيوش حتى فتحوا تبريز و (الباب) وهو (الفاصل بين الفرس وأرمينيه ودولة

---

(١) بلدة بينها وبين بغداد أربعة مراحل وهي تنتهى العراق شرقا

(٢) ومعناها الرملة الحمراء المستديرة أو التى يخالطها حصباء

الروسيا) وسار الاحنف الى خراسان ليلاقى «يزدجرد» الذى أقام (بمرو) يثير الفرس على المسلمين فبلغ (هراة) من بلاد الافغان فافتتحها وسار نحو مرو الشاه جان وكتب الى خاقان ملك الترك والى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما فلم يغنياه شيئاً ثم افتتحوا. كرمان. وسجستان. ومكران. وانتهوا الى دوين النهر الى الحدود بين الفرس والسند

الى هنا انتهى مافعله المسلمون بالبلاد الفارسية جئنا منه بنتف مختصرة تدلك على غايته مفصلا

لاشك ان الاشراق النبوى كان ملازما لهؤلاء الفاتحين والمدد المحمدى يمدهم والا فكيف تبتدئ هذه الحروب سنة اثنتى عشرة من الهجرة بفتح أول بلد من بلادهم وهى (الايلة) من حدود بلاد العرب غربا وتنتهى الى ماوراء النهر وبلاد السند شرقا والخليج الفارسى جنوبا وبحر الخزر وأرمينيه والروس شمالا فى هذه المدة التى لاتكفى مرتاداً يريد ان يتعرف طبيعة هذه البلاد لشدة جسامتها

جاء (الهرمزان) المدينة ولاقى سيدنا عمر بن الخطاب وقال له فيما قال (ياعمر كنا وايا كم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا فقال له عمر انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا) لم ينكر سيدنا عمر بن الخطاب غلبتهم للعرب ولم ينكر السبب فانظر لهذا الائتلاف والاتحاد فى القلوب كيف جعلها قلبا واحدا تجرى برأى واحد وان كانت فى أجساد مختلفة

عم الدين الاسلامى فجمع الحائدين للصراط السوى والمنهج القويم وأخرج الناس من الظلمات الى النور ومن جور الملوك الى عدل الاسلام

اجتمع الفرس والعرب فى وقائع كثيرة مشهورة ولم ينكسر لقوادهم راية . ولم يفل لهم جيش . ولم ير المسلمون في واقعة من الوقائع مساوين لاقرانهم فى العدد والعدد بل كانت الفرس فى كل واقعة أضعاف العرب . فما هذا الحال العجيب والنصر الغريب الذى لو أضيف اليه ماهو محقق باليقين فى الفرس من المهارة في تعبية الجيوش وإحكام معدات الدفاع ووفرة الاموال والعلم بطرق الدسائس والخداع لعدت مغلوبيتهم نادرة وغلبة العرب معجزة . انظر لنور الايمان الذى سطع فأزال كل مايلحق النفوس من الجبن . والذل . والخوف . وصرف الايدى عن النهب والغارة . وانظر للقوادالذين لايخشون تهديداً ولا وعيداً ولم يسلكوا بالامة مسلك الاهواء لانهم لم يكونوا دخلاء يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم . كانوا متفانين فى حب الدين ليس لهم شأن الا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك الزهو والكبرياء وحب الدنيا

هذه يد بيضاء فعلت فى الفرس ماتبين لك أمره فانظر لاختها كيف كان اثرها أيضا مع دولة الروم

قلنا فى أول الكلام اننا تركنا المسلمين فى حرب جيش الروم باليرموك بعد موقعتها الهائلة وهزيمة الروم عنها وأمير الجند أمين الامة أبو عبيدة عامر بن الجراح

بلغه رضى الله عنه ان مدداً أتى دمشق فحصرها المسلمون . أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى ودام الحصار سبعين ليلة حتى فتحت . وفتح بعدها . حمص . وحماه . والمعره واللاذقية . وحلب . وقنسرين . حتى وصلوا الى قرب انطاكيه

ثم بدا لسيدنا عمر أن يطوف على المسلمين فى بلدانهم لينظر آثارهم فسار

عن المدينة ومعه غلام وبعير واستخلف عليها سيدنا على بن أبى طالب وقدم الشام فسد فروجها ورتب صوائفها (١) وشواتيها واستعمل سيدنا معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الاردن وقال ماعزلته عن خيانة ولا جور ولكن أريد رجلا أقوى من رجل

ثم قيل له لو أمرت بلالا فأذّن فأذن فأمره فلم يبق أحد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم الا بكى حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء

ثم استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وذكر له خبرها وانها قوة عظيمة لملكة الروم وكان عليها وال من قبلها يقيم بالاسكندرية . فسيره . فقام لها بجيش كثيف . ثم اتبعه الزبير بن العوام وفتحت وعاقد أهلها على الأمان ونزل المسلمون «الفسطاط» واختطوا حوله وأسس عمرو مدينته . وشيد مسجده ثم سار الى الاسكندرية واجتمع له بينها وبين الفسطاط جماعة من الروم والقبط فانخنهم ثم وصل الاسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح مصر فلم يقبلوا ففتحها عنوة وغنم مافيها وجعلهم ذمة وارتحل الروم الى القسطنطينية وأقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو وأبقى المقوقس على رئاسة قومه وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل من المهمات الى ان توفى وكان يقيم بعض الاوقات باسكندرية وفى بعض الاوقات بمنف بمصر

وبفتح مصر انتهى مافعله المسلمون أيضا مع الروم فى مدة سيدنا عمر . أخذوا ولايتين عظيمتين . الشام . ومصر وجزأمن الاناضول وبالاجمال أضعفوا شوكتهم وأزالوا ملكهم وأذلوا دولتهم

انظر لهذه الفتوحات التى أطاش أمرها الاحلام وحير الافكار والأفهام

(١) (الشواتي والصوائف) هى السريات التى تحارب صيفا وشتاء

وتأمل لمنصب الخلافة الحقيقية فى تلك الايام وما يحف جماعة المسلمين من حرية فى دين وعلم فى يقين وسعة فى الوسائل المدنية الحقة والأمة قريرة العين بما تغنمه من نهضات الهمم بالفتح والاصلاح والامور مستقيمة على مثل مادعا اليه الاسلام . ونوره ساطع على الديار التى بلغها أهله والقلوب تفيض غيرة منه والالسنة تتدفق فصاحة به وكأنما المسلمون ربيع يساقون الى جدب فلم ينزلوا أرضا حتى يحيى الله مواتها بهم وينقع غلتها ببركتهم

انظر لمقام الخلافة مقام النيابة عن رسول الله تراه مشغولا بحراسة الدين وسياسة الدنيا مستمدا لافعاله وأعماله وأقواله من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والامة باذلة له الطاعة فى سرها وجهرها وهو لا يعتقد فى نفسه انه أرقى درجة منها . يقول سيدنا أبوبكر (قد وليت عليكم ولست بخيركم) والفاروق رضى الله عنه يقول (من رأي فى اعوجاجا فليقومه) وحاله بين المسلمين فى مالهم وجبايتهم وخراجهم كوصى اليتيم ان استغنى استعفف وان افتقر أكل بالمعروف . وشغله بعد هذا النظر فى طلبات الرعية وتفقد أحوال البائسين من الأمة حتى لا يكون لاحد عليه حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون فتراه يحمل الدقيق على ظهره ليوصله الى الفقراء والمساكين أو يدرك بالطعام صبية يتضاغون وأمهم تلهيهم حتى يناموا وهو رضى الله عنه (غلق الفتنة) كما قال صلى الله عليه وسلم : لا يزال بين المسلمين وبين الفتنة باب شديد الغلق ماعاش هذا بين أظهرهم

وأركان الدين قائمة . الصلاة الصلاة . امامة المسلمين فى الصلاة راجعة الى أرفع وظائفه . (والزكاة) القاطعة لكل احتيال بين افراد الأمة فلا سلب ولا سرقة ولا ضغينة تولدها عداوة . والحج من بقاع

الارض يجددون به للأمير عهدهم ويشهرون طاعتهم. والصوم الذي به تهذب النفوس وتذوق به الاغنياء مرارة الفقر فترحم الفقراء . والحدود قائمة لا يختل نظامها أبداً والجهاد على ماعلمت من أخبار هذه الفتوح

انظر لمواضع الشبه والنزعات الفكرية تجدها واقفة عند حد سلامة الاعتقاد . والفقه عبارة عن علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) . والتوحيد عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الاسباب والوسائط وهكذا والناس فى شغل شاغل بنصرة دين الله والاجتهاد في تعميم أمره عن المشاحنة فيه . ماذا يعده الدهر الخؤون من البلايا والمصائب ينزل بها على المسلمين وهم فى أهنأ أوقات حياتهم وزيادة عزهم وسلطانهم ؟ وبماذا تخرج الأيام عليهم وقد ظفروا بكل ماشتهوا ونالوا جميع مابتغوا فتحرمهم لذة ماذاقوا وتقطع عليهم مايتذوقوا ؟ أي مصيبه تعدها الليالى افسادا لحفاظ هذا النظام وسلبالروح هذا البقاء ؟

مقتل سيدنا عمر بن الخطاب

ليس بعد المصيبة برسول الله أعظموا كبر منها به قاصم الظهور وجائح النفوس نزعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الانسانى . قوضت الاصل وخرمت العلائق بين الصحب والأهل ولاحول ولاقوة الا بالله

أتت مصيبة على المسلمين وكأنهم لم يسمعوا بالمصائب ويجهلون طرق العزاء فيها فأدهشتهم. فهم الى انهم مذهولون منها أكثر مما هم محزونون

أصيب رضى الله عنه في المسجد بعد ما كبر. سمع عنه يقول قتلنى أو أكلنى (الكلب) حين طعنه أبو لؤلؤة. وهو غلام مجوسى كان بعثه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة لما يعلمه من الصنائع والاعمال التى فيها منافع للناس فضرب عليه مائة درهم فى الشهر فاشتكى الى عمر رضى الله عنه فقال له ماخراجك بكثير فانصرف ساخطا يتذمر ثم بعد أيام سأله عمر رضى الله عنه عن رحى تطحن بالريح كان أوصاه عليها فقال له سأصنع لك رحى يتحدث الناس بها فقال عمر لاصحابه لقد أوعدنى العبد. ثم كان منه الذى كان من طعنه بخنجره وطعن كل من يمر عليه فى المسجد يمينا وشمالا حتى لقد طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ثم انتحر

نظر عمر رضى الله عنه فيما عليه من الدين وأوصى بوفائه ثم استأذن عائشة رضى الله عنها ان يدفن مع صاحبيه فاذنت له ثم قيل له اوص يا أمير المؤمنين قال لا أتحملها حيا وميتا ان استخلفت فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وان أتركم فقد تركم من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال فأوصى بالانصار خيرا والمهاجرين والاعراب واستقبل الله بقلب سليم رضى الله عنه وأرضاه

سيدنا عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف الأموى القرشى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الأموى

ولد فى السنة السادسة من الفيل وأسلم قديماً وهو ممن أجابوا دعوة الصديق حين دعاهم للاسلام . وهاجر الهجرتين الاولى الى الحبشة . والثانية الى المدينة . وشهد المشاهد كلها (الا بدراً) لشغله بتمريض زوجته بنت رسول الله وأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم في غنيمتها وزوّجه بنته الثانية ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبىّ غيره ولذلك سمى ذا النورين فهو من السابقين الاولين وله خصائص جميلة منها انه هو أول المهاجرين . وأحد العشرة المشهور لهم بالجنة . وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض . وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن . (جمع الناس على مصحف واحد) .

وله أوليّات . منها . انه أول من أقطع القطائع . وخفض صوته بالتكبير وخلّق المسجد . وأمر بالاذان الاول يوم الجمعة . وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة . وأول من فوض للناس اخراج زكاتهم . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ فى المسجد مقصورة . مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر (وما أغنى حذر)

بويع له بالخلافة بعد مادفن عمر بثلاث ليال والناس تستشير وتختلف الى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه فى من يلى منصب الخلافة . ولا يخلو به رجل ويعدل بعثمان أحداً . وكذلك كان رأى اكثر أعيان الصحابة وأغلبية الشورى

شب عثمان رضى الله عنه على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة والحياء الذى خصه الله منه بأجل السهام وضرب فيه بأوفر الحظوظ والاقسام حتى كانت تستحى منه الملائكة . كانت له اليد البيضاء فى تجهيز جيش العسرة الى تبوك فقد أنفق من ماله ما لايجود به غيره وحفر بئر (رومة) وتصدق بها وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد من الناس

زاد فى مسجد المدينة ووسعه وبناه بالحجارة وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج وجعل طوله ١٦٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وناهيك برجل مامرت به جمعة منذ أسلم حتى أعتق فيها رقبة . كان عاملا أمينا للخليفتين رضى الله عنهما بعد النبى صلى الله عليه وسلم . وعمل فى خلافته ست سنين لاينقم عليه أحد وكان أحب لقريش من عمر بن الخطاب . لان لهم ووصلهم وفعل معهم خيراً

﴿ أعماله في خلافته ﴾

فى حفظ القارئ انا ذكرنا ما وصلنا اليه من أمر عسكر المسلمين الفاتحين فى مملكتى الروم والفرس في عهد الخليفتين . الصديق . والفاروق . ولنذكر الآن مازاد على ذلك من الفتح فى أيام الخليفة ذى النورين وماجري فى هذه البلاد

﴿ الكوفة ﴾

استفتح سيدنا عثمان فى بدء خلافته باستعمال سعد بن أبى وقاص عليها عملاً بوصية عمر رضى الله عنه ثم عزله لخلاف وقع بينه وبين ابن مسعود الذى كان على خراج الكوفة . وعين بعده الوليد الأموى وعزل عتبة بن

فرقد عن (اذربيجان) فانتقض أهلها فغزاهم الوليد وأغار على أهل (موقان) و (الطيلسان) ففتح وغنم وصالح كور (اذربيجان) وسير جيشا الى أهل ارمينية فشتتهم وأقام والياً على الكوفة حتى شرب خمراً وشهدت عليه جماعة فأفتى على رضى الله عنه بعزله بعد جلده فعزله عثمان وجلده وولي مكانه سعيد بن العاص فقبلها على كره لأنه ممن أحس بالفتنة هناك خصوصا وقد حمله عثمان رضى الله عنه على تفضيل أهل السابقة . والقدم . ومن فتح الله على يده تلك البلاد

فشت القالة في الكوفة فى حق سيدنا عثمان وسعيد عامله رضى الله عنهما . ثم سار الكوفيون لفتح (طبرستان) ففتحوها فلما بلغوا (اذربيجان) تلاقوا بجيوش الشام وكانت بلية حب الرئاسة دبت فى النفوس واستقرت في الصدور بسبب التنافس فى الاغراض . فاختصم رجال الجيش . ثم وقع من الكوفيين ماوقع من الاستخفاف بأولياء أمورهم وكثرت وقائعهم فحملت رؤساؤهم الى الشام لمعاوية رضى الله عنه فلم تفدهم نصيحته فبعثوهم الى (حمص) لعبد الرحمن خالد بن الوليد فأدبهم . ثم اتفق أهل الكوفة على خلع سعيد فخلع وتولى أبو موسى وبقى مع أهل الكوفة ينازعهم وينازعونه حتى مات سيدنا عثمان

﴿ البصرة ﴾

وكان والى البصرة « أبو موسى الأشعري » فعزله أيضا وولى عبد الله ابن عامر فبعد قليل انتقض أهل فارس على أميرهم عبد الله وقتلوه ثم غدرت أهل « اصطخر . وخراسان » فسار اليهما عبد الله بن عامر وصالح أهلهما ثم انتقل لغيرهما من البلاد حتى مكن الله الامن في تلك الجهات وبينما هو كذلك واذا بعبد الله بن سبأ اليهودي نزل على حكيم بن جبلة العبدى بأراء غير مقبولة فأوغر الصدور على سيدنا عثمان ثم طردوه فدار الامصار حتى أتى مصر وكان

من أكبر الأسباب التى دعت لشق الطاعة فيها والافتراق والاختلاف

﴿ الشام ﴾

أما الشام فقد كان جمعها فى أول خلافته رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان فقام بالغزوات البرية والبحرية حتى بلغ عمورية وتمكن من الحصون التى بينها وبين طرسوس وانطاكية ثم افتتح (جزيرة قبرص) وكان المستعمل على غزو البحر عبد الله بن قيس فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها ثم قارب طليعة فانتهى لمرفأ من الروم فجاؤا فقتلوه وبينما الحال كذلك خرج أبو ذر الغفارى في الشام بمذهب يشبه مذهب الاشتراكيين (استغفر الله العظيم) الآن لانه كان ينادى يامعشر الاغنياء واسوا الفقراء وكان يستدل بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهاجباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) فشكا الاغنياء مايلقونه لمعاوية وحق لهم ان يشكوا لان أول واجب على أهل السلطان تأمين الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم وهذا الحال من أكبر مواضع الخوف فكتب الى عثمان رضى الله عنه فى شأنه بما كتب فطلب منه ان يشخصه اليه فلما وصل المدينة ولاقى سيدنا عثمان رأى الاولى به ان يسيره الى الربذة (١) فأقطعه قطعة من الابل وأقام منفرداً الى ان مات

﴿ مصر ﴾

أما مصر فقد كان فيها فاتحها عمرو بن العاص فجعله سيدنا عثمان على الجند وولى عبد الله بن سعد خراجها فلم يتفقا فجمع سيدنا عثمان لابن سعد الخراج

(١) موضع قرب المدينة

والجند وعزل ابن العاص عنها ثم رأى ان يغزو أفريقيا فسير جيشا للغزو فيها وفتح ماشاء الله أن يفتح وقتل جرجير ملكها وما كاد هذا الحال يتسع ويستقر حتى وصلها عبدالله بن سبأ يحمل أسباب الفتنة ودواعى الشر كما سيجىء اليك

﴿ فصل ﴾

تأمل تجد في كل مصر من الامصار بادرة كأن الدين وقع في يد من لايفهمه أوفهمه وتغالى فيه أولم يمتزج حبه بقلبه أوامتزج ولكن ضيق عقله ضل عن تصريفه . أوكأنما افتكت من المسلمين العزيمة الاصلية أواختلت دعائم الاعتقاد القديم فاما إفراط باسم الدين كمقالة أبى ذر الغفارى التى لاتنطبق على مصالح البشر وأما تفريط كالكلام في التنفير والانحراف عن سيدنا عثمان رضى الله عنه كدعوى عبدالله بن سبأ (والعياذ بالله)

يعجب الانسان ان اهل الدعوة للخير أصبحوا وليس لهم قدرة فى استعمال أى ضرب من ضروب القوة فى حمل الامة على الآداب الدينية كأن نورها الذى كان اخترق القلوب نفذ منها

ساءت حال أمة انتقل بأسها من أعدائها لنفسها فهى أقرب الى الفوضى من الاصلاح وادعى للتفرقة من الالتئام والسبب العظيم لهذا البلاء الجسيم هى الفتن لعن الله مثيرها . ولذلك قال تعالى (الفتنة أشد من القتل) وقال (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقيل فى الاثر (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)

قلنا ان سيدنا عثمان ولى الخلافة واستمر ست سنين لاينقم الناس عليه شيئاً وانه لأحب الى قريش من سيدنا عمر بن الخطاب لأن عمر رضى الله

عنه كان شديداً عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ثم توانى فى أمر بعضهم لما رآه فيهم .

اضطرت حالة ظهور القالة وفشو المنكر فى الامصار ان يستعمل عليها أقرباؤه وأهل بيته فى الست الاواخر من عهد خلافته لاختصاص أولئك به أكثر من غيرهم فكان هذا العلاج من دواعى استفحال الداء وزيادة الانحراف عن باب الخلافة

استكمل الفتح للأمة . واستكمل الملك . ونزل العرب بالأمصار على حدود مابينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة ومصر فالمختصون بصحابة رسول الله وهم المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم يمتّون بذلك ويتشرفون به (ونم الشرف) وسائر العرب الذين كان لهم فى الفتوحات قدم يرون لأنفسهم فضلا ويفخرون به (وحق لهم الفخر) . نبههم لذلك وألفتهم لمعنى التفضيل والسابقة انغلاق باب الفتوح وتناسى ذلك الحال وذل العدو وزواله واستفحال الدعوة الاسلامية لهم وعظم ملكها فيهم فأخذت عروق الجاهلية تنبض وأنوف نفوسهم تشمخ .

وافق ذلك أياماً من أواخر عهد سيدنا عثمان وقد كانوا أخذوا عليه قبلها اخراج أبى ذر الغفارى الى الربذة (وقد سمعت خبره) وزيادة النداء الثالث يوم الجمعة (وانما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى انحاء المدينة) واتمامه الصلاة في منى وعرفة وكان الامر فى عهد رسول الله والخليفتين على القصر . (وعذره فى ذلك ان حاج اليمن جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاته رضى الله عنه فلم يرض بذلك لان اتخذ بمكة أهلا وله بالطائف مال) . وتنازله لمروان بن

الحكم عن خمس مغانم أفريقية ولم يمنع الشرع ان ينفل من شاء من المسلمين وقد كان رسول الله ينفل . نقموا هذه الامور على سيدنا عثمان ولم يكن فيها مايشينه ولم يخرج فى شئ منها عن حدود الشرع ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لانفسهم ماليس لهم فحقت عليهم العقوبة

قال الامام العينى فى تاريخه عقود الجمان (وقد ذكر السبب فى ذلك) مامعناه روى أرباب السير منهم هشام . والواقدى . وسيف . وغيرهم عن عقبة عن يزيد النقسى . كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء أسلم فى أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان وكان قصده بوار الاسلام . كان يتنقل فى البلدان يحاول الفتنة فطاف الحجاز والشام والعراق ومصر وطاف كورها وأظهر الامر بالمعروف وهو ينفّر الناس من عثمان فخرج معه جماعة من مصر من أهل خربتا وهو أول وفد قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان على أعمال عماله الامويين بالامصار

دارت رحى الفتنة فى المدينة وملؤها كلاما فى حق أمراء الامصار وبعث سيدنا عثمان الى عماله ان يوافوا الموسم فقدموا عليه وهم عبدالله بن عامر أمير البصرة . وعبد الله بن سعد أمير مصر . ومعاوية ابن أبي سفيان أمير الشام وبعد كلام كان معهم استشارهم فى تسكين هذه الفتنة فقال عبد الله ابن عامر (اشغلهم بالجهاد) . وقال ابن سعد (استصلحهم بالمال) . وقال معاوية (اجعل كفايتهم لأمرائهم وأنا أكفيك الشام) وقال عمرو (أرى انك قد لنت ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريق صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين) فقال سيدنا عثمان قد سمعت كل ماأشرتم به ولكل أمر باب يؤتى منه . ان هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه

الأمة كائن .وان بابه الذي يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين الا فى حدود الله فان فتح فلا يكونن لاحد علىّ حجة وقد علم الله انى لم آل الناس خيراً وان رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكّنوا الناس . وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا ثم نفر ونفر الامراء الى بلادهم

أما أصحاب الفتنة الناقمون على عمال الامصار المنحرفون عن عثمان فلم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم فيها اقدموا علينا فان الجهاد عندنا فاتّعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج .

اجتمع الكل بالمدينة ٥٠٠ من مصر وعليهم الغافقى بن حرب . ومثلهم من الكوفة وكذلك من أهل البصرة . وكل هذه الطوائف متفقة على الانحراف على عثمان (مختلفة فيمن يتولى الخلافة بعده) لكل منهم رأى وهوى فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله . والبصريون الزبير بن العوام . والمصريون «عليا» فجاء كل قبيلة لمن لهم فيه هوى وسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم وأتى أهل مصر «عليا» فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم. فصاح بالمصريين وطردهم وقال لقد علم الصالحون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك قال طلحة والزبير . ثم استقر الحال على الاذعان بما طلبوه من اعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم واستعمل على مصر محمد بن أبى بكر وكتب له عهده وخرج محمد ومن معه يريدون مصر وانصرف الجميع مظهرين الرجوع

لم تتفرق أهل المدينة الاّ والتكبير فى نواحيها وقد أحيط بدار عثمان ونودى من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم واستغربوا من رجوع

الثوار بعد الاذعان وجاء محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم ما الذى ارجعكم بعد ذهابكم فقالوا أخذنا كتابا من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا فسأل البصريين عن مجيئهم فقالوا لنصر اخواننا وكذلك قال الكوفيون فقال كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم من صاحبه على مراحل حتى رجعتم الينا جميعا (هذا أمر أبرم بليل) فقالوا اجعلوه كيف شئتم لاحاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا فاخذوا منهم الكتاب . فاذا هو من سيدنا عثمان الى عبدالله بن أبى سرح . يقول له فيه اذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم . فقالوا لهم وكيف اتصل بكم هذا الكتاب قالوا بينما نحن مع محمد بن أبى بكر على مسيرة ثلاثه أيام من المدينة واذا بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلب أو يطلب فقلنا له ماقصتك وماشأنك كأنك هارب أوطالب فتلجلج ومرة يقول انا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول أنا غلام مروان فقتشناه فوجدنا معه اداوة يبست فيها شئ يقلقل فشققناها فاذا فيها ذلك الكتاب . فلم يبق أحد من أهل المدينة الا حنق على سيدنا عثمان وسألوه في ذلك فقال والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال «على» ومن معه من كبار الصحابة صدق عثمان فقال المصريون اذاً من كتبه فقال عثمان لأدرى قالوا فيجترأ عليك . ويبعث غلامك . وجمل من ابل الصدقه . وينقش على خاتمك . ويكتب الى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لاتدرى . قال نعم قالوا ماأنت الا (صادق) أو (كاذب) فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا وان كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الامر ولا ينبغى ان يترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك فقال لاأخلع قميصا ألبسنيه الله

امتد الشقاق بقوة سلطان المغالبين فلم يلهم الله أحدا ان يحقق أمر هذا الكتاب ويبين للناس ما اختلفوا فيه ويكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه. أو يتفكر فى كيفية رجوع هذه الفرق معاً بعد افتراقها وبعد سلوكها طرقا مختلفة . أو يكشف الغطاء عن ذلك السم السارى من قديم الذى دعى مثل عبد الله بن سبأ للخروج والتجول فى الامصار . أو يوفق الله جماعة الصحابة الى الوقوف أمام هذه الفتنة وقد كثرت عن نابها . بل ضاع السداد وضعف الرشاد وقامت نزعة الحرب بين أهل الدين وقد كان اطفاء مثل هذه النار من أسهل الامور قبل ذلك على أى رجل من الجمهور الاسلامى

دافع سيدنا عثمان رضى الله عنه كثيراً عن نفسه وكتب للناس كتابا قرأه عليهم ابن عباس يوم التروية وأكثر من الرضوخ الى مطالبهم وكلما سد بابا فتحوا غيره . حتي منعوا عنه الماء فجاءهم على رضى الله عنه فقال ياأيها الناس كيف تقطعون الماء والماده والروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى فقالوا والله ولانعمة عين

ثم ان الثوار منعوا الناس عن مخالطته ومكالمته وقصدوا باب داره وحصروه فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة فأمر عثمان بالكف عن القتال (انظر الى وازع الدين الذى كان في نفس هذا الخليفة رضى الله عنه جعله يؤثره على أمور الدنيا وان أفضى ذلك للهلاك وحده دون الكافة فمنع المقاتلين عنه) ثم جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى ذلك لهلاكه

ثم أحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله ما رأى

عن تلاوته ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الىّ عهداً فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الاّ وهم يريدون أعظم منه وأمرهم بالانصراف ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاء فقتلوا هذه النفس الزكية

قتلوا خليفتهم . وزوج بنتى نبيهم . ذى النورين . قتلوه ظلما . فقاتله ظالم . وخاذله معذور . مات شهيدا مبشرا بالجنة على بلوى واختبار بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت . واطنوا (١) أصبعين من أصابع زوجته ولم يكن مافعله من تجهيز جيش العسرة وحمد رسول الله مسعاته وقوله له ما على عثمان بن عفان ماعمل بعد اليوم ولا على احتجاجه عليهم ولا اخامه رادعا لهم ولا كاسرا من غربهم حتى وطئوا أضلاعه بعد موته وألقوا على التراب جسده بعد سحبه ولا حول ولا قوة الا بالله العلىّ العظيم

نعم . قد قرر الاسلام العبودية لله وحده . والحرية فى ضمن دائرة الشريعة المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات واطلاق الارادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس ومقتضى ذلك ان يكون المسلم عبدا كاملا لله حرا كاملا بالنسبة لما سواه

نعم . كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم الرأى قائلين له هل هذا شئ قلته من عندك يارسول الله . أو نزل به وحى فأن قال هو من عندى جاؤا بما عندهم من الرأى وربما رجع النبى الى رأيهم كما قد جرى فى بعض الغزوات والأمور المعاشية وقوله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمور دنياكم)

نعم . وقع أبلغ من هذا ان النبي صلى الله عليه وسلم طعن سواد بن غزية

(١) أطن أصبعه قطعه

بقدح (١) فى بطنه وهو مكشوف ليستوي فى الصف يوم بدر فقال قد أوجعتنى فأقدنى فكشف له عن بطنه وأذن للناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه واذا كان نحو ضرب فليقتص منه . وأذن لرجل ان يضربه حين ادعى انه ضربه يوما فقال انى كنت عارى الكتف أو الظهر فألقى الرداء عن عاتقه الشريف . وشأن الرجلين ان يتمسحا به ويتوصلا لهذا الشرف العظيم . نعم . ان الصديق . والفاروق . اقتديا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الاعمال فاوقف سيدنا عمر بن الخطاب « عليا » مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة فعاتبه (على رضى الله عنه) بعد المحاكمة بأن لم يسو بينه وبين خصمه . كناه هو . وسمى ذاك وفى التكنية تعظيم . وراجعته امرأة وهو على المنبر فى مسألة تحديد المهر محتجة بآية (وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر

كان هذا كله وحسن التربية شائع فى الامة على منهاج الكتاب والسنة وكل فرد حاصل على دقائق الأدب . والتهذيب علما وعملا وتخلقا وتحققا جار على أكمل نمط . وطهارة الظاهر تحاكى طهارة الباطن صافية عن الكدر . والآداب راقية بذويها وأهلها الى مصاف الملك فضلا عن البشر

أهين بهذا التطرف والغلو في الأفئدة مقام الخلافة الذي كان حفاظ الدين . وكانت تلك الصدمة الأولى . أهين ذلك المنصب الشريف الذى كان اليه المرجع في حل المشكلات . والضياء في ظلمة الشبهات . واحتلبوا بذلك دما لاتطير رغوته . ولاتسكن فورته . ولا يكل طالبه . وكيف يضيع دمه وقد انفصمت بذلك عروة الوحدة وانحلت رابطة الاجتماع ونجم عن التفرق في الخلافة

(١) سهم لانصل له

الافتراق فى الدين نفسه فآلت الامة الى الشقاق وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة وابتلى الدين وأهله بالمنازعة التى انقضى الزمان والأمة تتكلف علاجها ولا تمان عليه وصدق «على» رضى الله عنه فى قوله «ان قتلته ثلموا فى الاسلام ثلمة لاتسد الى يوم القيامة» . ومن يرد التعدد الى توحد والافتراق الى اجتماع وهو من وظائف الخلافة التى حدث عنها هذا الشقاق

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء

هذه نتيجة الخروج على أولياء الامور وأهل السلطان . فليندب المسلمون حظهم بعد هذه البلوى التى أصابت مستقر الحقيقة بسبب الاسراف فى حرية الدين والفكر الى هذا المقدار وجعل مزاياه الشريفة من العوادى عليه بسبب سوء الاستعمال . وليتق الله كل واحد من الزعانف الذين لعبت بهم الاهواء وأشعرت قلوبهم الاعداء بمثل هذه الظنون السيئة

استقامت الدنيا فى عهد الصاحبين ففتحت الفتوحات العظيمة التى لا نزال نفاخر بها الاجيال المتأخرة ولو استمر الحال على ما كان لأمسى الدين الاسلامى نطاقا على الكرة الارضية لابدعوة الغلبة والقهر على لسان السيف كما يدعون ولكن بدعوة الحجة والبرهان على لسان الحق ان كانوا يعقلون

هذه بعض آياته . اتفاق ووفاق . وارادة سامية . وحرية فكر مطلقة . ومحافظة على الجار والجوار . ومحبة اتصلت بأعماق القلوب . وجد فى العمل وكراهة للقعود والكسل . وميزان قسط قائم بالحق بين الناس . وبصيرة فى كل شئ . وقواعد عدل تمنع الاسترقاق . وتحظر الاستعباد . وحفظ عهود . وصدق ووفاء . وتحريم للفواحش ماظهر منها ومابطن فلا غدر ولا خيانة . ولا خديعة .

ولاغيلة . والدين بين المسلمين النصيحة الخالصة يتواصلون بالحق ويتواصون بالصبر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

أية أمة ترى هذا ولاتهاجر فى طلبه وتفتخر بعمله وتتباهى بالوصول اليه ولكن قضى الله أن يسلط على الأمة شرارها فتصبح ولا تتواصى بحق ولا تعتصم بصبر ولا تتناصح في خير بل نعيش افذاذاً ونعمل (ان كنّا نعمل) افرادا كأن لم تجمعنا مع أحد صلة ولم تضمنا اليه وشيجة فضلا عن المذاهب المتعددة التي انتشرت بين المسلمين وأخرجتهم عن كثير من مزايا الدين بل أوقفتهم على أبواب الكفر والزندقة والكذب على الله والزور والافتراء على أنبيائه وأوليائه وأصبح الحديث بالتظني . كل واحد يأتيك منه بما ينصر مذهبه ويؤيد طريقته حتى أصبحنا والحال كما قيل عن المسلمين لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين .

سيدنا على بن أبى طالب

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى القرشى بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وهو أول خليفة أبواه هاشميان . ولد رضى الله عنه فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين فأقام بها رضى الله عنه نحواً من خمس سنين لم يصف له فيها يوم وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

بعث عليه الصلاة والسلام و«على» رضى الله عنه دون البلوغ . وكان معه فى منزله فاهتدى بهديه وسلك سبيله . ولم يتدنس بدنس الجاهلية . ولم يعبد وثناً قط . فهو أحد السابقين الى الاسلام وأحد العلماء الربانيين . والزهاد المذكورين . والخطباء المعروفين . وأحد من جمع القرآن الكريم . واكرم أهل العباء والمباهلة وأخ رسول الله في المؤآخاة . (أخرج الترمذي عن بن عمه قال آخى رسول الله بين أصحابه فجاء «على» تدمع عيناه فقال آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد فقال النبى أنت أخى في الدنيا والآخرة)

شهد الغزوات كلها (الا غزوة تبوك) فأنه استخلفه النبى على المدينة فلما أسف رضى الله عنه قال له النبى صلى الله عليه وسلم (أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى) . كان له القدم الثابت فى جميع الغزوات . فهو أول المبارزين يوم بدر . وأول الثابتين يوم أحد وحنين . أصابته فيه ستة عشر ضربة . وأول الفاتحين يوم خيبر . وأول السابقين يوم الفتح .

أنابه عنه صلى الله عليه وسلم في الأقامة بعد هجرته بمكة أياماً أدى فيها

الامانات والودائع وقام بالوصايا فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم افتداه بنفسه ونام على فراشه والمشركون يظنون انهم يحاصرون النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبحوا ووجدوا عليا رضى الله عنه . ثم أنابه أيضا فى قراءة أوائل التوبة فى موسم الحج ايذاناً ببراءة رسوله من المشركين

ماذا يقول القائل فى هـذا الامام . وكل وصّاف منسوب الى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول وكفى بشهادته صلى الله عليه وسلم بأنه باب مدينة العـلم دليلا على مكنون السر الذى فيه . فهو أول فى العلوم . أول فى الشجاعة . أول فى السخاء . أول في الحلم والصفح . أول فى الفصاحة . أول فى الزهد . أول فى العبادة . أول فى التدبير والسياسة . أشد الناس رأيا وأصحهم تدبيراً . لولا تقاه لكان أدهى العرب

كأنما أفرغ من كل قلب . فهو محبوب الى كل نفس . ظهر من حجاب العظمة بمعاليه فاستولى الاضطراب على الاذهان والمدارك وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة . أهل الذمة تحبه والفلاسفة تعظمه . وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها . ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها . كأنما هو فأل الخير وآية النصر والظفر

ينقطع اللجاج مع هذا القضاء الحاتم الذى ألم بالامام رضى الله عنـه فى أيام خلافته فلم يستطع ان يأتى فيها بشئ مع هذا العرفان العظيم وأصبحت أيام خلافته قضاء (النجاة من تبعته السكوت عنه)

لابد للقارئ أن يستحضر فى ذهنه الحال الذي كان فيه المسلمون بعد قتل خليفتهم المظلوم ويشخص فى فكره حالة الحيرة التى أطلق لها الذهول العنان فجالت فى الضمائر بما يسعه الامكان . فوضى لاملجأ ولا سند . حيارى لاقوة ولا عضد

وامامهم فتنة كالحسكة شاكة من كل طرف . والاضطراب قد ألم بمستقبلهم وماضيهم وحاضرهم

قتل سيدنا عثمان كما علمت فبقى (الغافقى بن حرب) أميراً على المدينة خمسة أيام . وعلىّ ممتنع عن البيعة . وأتى الكوفيون الزبير . والبصريون طلحة فامتنعا أيضا . وأهل الامصار رأوا ان رجوعهم الى الامصار بغير امام يوقع الخلف والفساد فبقوا وهم لايملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً . وهرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام ومعهم قميص عثمان وأصابع زوجته فأثاروا الشعور وهيجوا الافكار ونصبوه على منبر دمشق وقامت الناس تطالب القود . وطار الخبر لمكة واتصل بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى عائدة . ونادوا فى المدينة برجوع الاعراب الى بلادهم فأبوا

هكذا كانت الحال فى هذه الامة التى فاضت ينابيع حياتها حتى شملتها فجمعت شملها. وكانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وأهل الارض بمدنيتها

ثم اجتمع كثير من المهاجرين والانصار . وأتوا عليا يبايعونه (فأبى) لانه قدر المستقبل حق قدره وعلم انه انما يستقبل فتنة سائرة لامرد لها فقال لهم (التمسوا غيرى) أوقال (أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ومن اخترتم رضيته فانا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لاتقوم به القلوب ولاتثبت عليه العقول) فناشدوه الله والدين وألحوا عليه وقالوا لانعلم أحق منك ولا نختار غيرك (فابى) فخوفوه الله فى مراقبة الاسلام حتى غلبوه فى ذلك فقال (قد أجبتكم)

رأوا ان هذا الامر لايتم الا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب اليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه . قال قوم (كرها) وقال قوم . اشترطا عليه اقامة الحدود.

(يريدون القود من قتل عثمان)

ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع كبير من أكابر الصحابة فى المدينة . كسعد بن أبى وقاص . وسعيد بن زيد . وعبدالله بن عمر . وأسامة ابن زيد . والمغيرة بن شعبة . وعبدالله بن سلام . وقدامة بن مظعون . وأبى سعيد الخدرى . وكعب بن عجرة . وكعب بن مالك . والنعمان بن بشير . وحسان بن ثابت . ومسلمة بن مخلد . وفضالة بن عبيد وغيرهم

رأى الامام رضى الله عنه ان بيعته تمت بالاغلبية فقام وخطب الناس ودعاهم الى الخير وحذرهم الشر وبدأ فى أعماله

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

بدأ بتغيير عمال الامصار (ولم يسمع رأي القائلين باستبقائهم حتى يستقر الامر) وكيف لا يبدأ بهم وهم داعية الفرقة وسبب الشتات ومن نجم من بينهم الاختلاف فبعث على (البصرة) عثمان بن حنيف الانصاري بدل عبدالله بن عامر . وعلى (الكوفة) عمارة بن شهاب بدل أبى موسى الاشعري وعلى (اليمن) عبيدالله بن سعد . وعلى (الشام) عثمان بن حنيف بدل معاوية ابن أبى سفيان . وعلى (مصر) قيس بن سعد بن عبادة بدل عبدالله بن سعد.

فاما صاحبا (البصرة . واليمن) فلم يرد هما عنهما أحد . فأقاما . وافترقت مصر على صاحبها ففرقة دخلت فى الجماعة . وفرقة اعتزلت وقالت لا نكون مع «على» الا أن قتل قتلة عثمان وفرقة قالت نحن مع «على» الآن استقاد من اخواننا (١)

(١) انظر لهذا الخلاف فى الافكار فرقة ترى لزوم القود من المصريين الذين اشتركوا فى قتله وفرقة ترى العفو

ولاقى صاحب (الكوفة) وهو قريب منها طليحة بن خويلد الاسدى فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا فرجع وقابل صاحب الشام عند تبوك خيلا عليها رجال من الشام فردوه وامتنع سيدنا معاوية عن مبايعة «على» لانه ظن فيه هوادة(١) فى نصرة عثمان على قاتليه ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيما في القصاص من قتلة عثمان لانه وليه والله تعالى يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل) ولم ير فى الامتناع عن البيعة خروجا على الامام لعدم انعقاد البيعة لتخلف كثير من أكابر الصحابة عنها ولم تكن باجماع الحل والعقد فأرسل رجلا بطومار ليس فيه شئ من الكتابة وعنوانه (من معاوية . الى على بن أبي طالب) وأمره اذا قدم المدينة ان يرفعه ليعلم الناس انه مخالف ففعل الرجل ماأمر به حتى رفعه الى على رضى الله عنه فقضه فلم يجد فيه كتابا فقال للرسول ماوراءك فقال . آمن أنا . قال نعم . قال تركت قوما لا يرضون الا بالقود . قال . وممن . قال . منك . وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق . فقال اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان . قد نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله .

أصبحت الأمة مضطربة مختلفة المقاصد (ووجهتها كلها الحق وهو ضالتها). معاوية يرى ان البيعة لم تنعقد والامام يري انعقادها . وطلحة والزبير يرفضانها لأنهما اشترطا اقامة الحد على قتلة عثمان . والامام يقول لا قدرة لى على شئ مما تريدون حتى يهدأ الناس وتنظر الأمور وتؤخذ الحقوق . وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها منادية في الناس بدم عثمان لانها متحققة بأنه قتل مظلوما

(١) الهوادة اللين أو مايرجى به الصلاح

في البلد الذي يأمن فيه الطير فى الشهر الحرام.

خطبت أم المؤمنين فى الناس وانتصرت لسيدنا عثمان وطلبت القود له من الغوغاء والعبيد الذين اجتمعوا عليه وتبعها كثير لأن معظم الناس ذهبت عقولها ولم يبق من خصال العرب الكريمة الا أشدها (ثوران فى العقول لأخذ الثار) وأكثر الصحابة يرون ان أول واجب على المسلمين فى هذا الوقت تتبع القتلة. والقصاص منهم إقامة لحد الله الذى لا يصح تأخيره مهما نتج منه. جعلوا إقامة هذا فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصله اليه ولذلك لم ير الزبير ولا طلحة في هذا خروجا على الامام لان البيعة لم تنعقد له

الوقت الذي يؤول فيه أمر الانتقاض على الخليفة الى قتله ويتناسى الناس فيه ذلك الحال القديم من احترامه وتكون فيه الافكار مرتعا لخطرات الخروج من كل طرف لا يبعد ان يكون من مصائب الامام «على» فيه رميه بأنه منحرف عن الحق فى حق قتلة عثمان

استقام رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين على قصد البصرة فقصدوها فلما قاربوها راسلها أميرها فأعلمته انها جاءت لتخبر الناس بمقتل عثمان وان الغوغاء استحلوا الدم الحرام وسفكوه وقتلوا امام المسلمين بلا ترة ولا عذر وأظهر الزبير وطلحة انهما بايعا (كرها) فصمم صاحب البصرة أولا على منعها ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالئ طلحة والزبير فدس لأهلها واحدا من الناس فظهر له ان فيها أنصارا لهذا الامر فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس فتبعها جمع من أصحاب عثمان وخرج لها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة وقاتلهم حتى اذا ذاقوا حر السلاح تنادوا الى الصلح حتى يرسلوا الى المدينة ليعلموا أكانت بيعة طلحة والزبير طوعا

أوكرها فان ثبت انهما أكرها تركه ابن حنيف البصرة فذهب كعب بن سور قاضى البصرة رسولا من عند أهلها فلما قدم المدينة قال يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة اليكم أسألكم أأكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين فقال اسامة بن زيد بأنهما أكرها فلقى أسامة بن زيد من والى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف اهانة وبلغ هذا الخبر عليا فأرسل الى عثمان بن حنيف يقول والله ما اكرها على فرقه . ولقد أكرها على جماعة وفضل فان كانا يريدان الخلع لا عذر لهما وان كان يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما زاع خبر اكراه الزبير وطلحة طلبا من أبى حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجا بكتاب من « على » . فاستولوا فى ليلة على الكوفة وحبسوا ابن حنيف فبلغ ذلك حكيم فاقبل وقاتل حتى قتل كثير ثم أقامت أم المؤمنين ومن معها بالبصرة

كل هذا والامام بالمدينة يعبّى فى جيشه الى الشام فلما بلغه الخبر دعى وجوه أهل المدينة لانه يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل ان يصلا البصرة فخف قوم وتثاقل قوم وظهر آخرون برأى مثل أبى موسى الاشعرى وقد سألوه الخروج والقتال مع « على » فقال (ان بيعة عثمان لفى عنق وعنق صاحبكما فان لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا) .

أصبحت هذه الفتنة صمّاء لا يعلم فيها . ان كان النائم خير من اليقظان . أم القائم خير من القاعد . فكم من رجل أغمد السيف وآخر نصل السهم . وكثر الجدال فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه حتى قام القعقاع ابن عمرو وقال (أيها الناس لا بد من امارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم وهو يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الامة الفقيه فى الدين فمن نهض اليه فانا سائرون معه) ثم قال الحسن بن على رضى الله عنه

(أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لأن يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وان أمير المؤمنين يقول قد خرجت مخرجى هذا ظالما أومظلوما وانى أذكر الله رجلا رعى حق الله الا نفر فان وجدنى مظلوما أعانى وان وجدنى ظالما أخذ منى . والله ان طلحة والزبير أول من بايعنى وأول من غدر . فهل استأثرت بمال أوبدلت حكما فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر) فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم فى نهر الفرات والباقون ركباً فالتقوا بأمير المؤمنين فرحب بهم وأثنى عليهم ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير فقدم القعقاع البصرة وبدأ بأم المؤمنين فقال أى أمه ما أقدمك هذه البلدة قالت أى بنى الاصلاح بين الناس قال فابعثى الى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما فبعثت اليهما فحضرا فقال القعقاع انى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الاصلاح فهل أنتما متابعان قالا نعم قال فاخبرانى ما وجه هذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا الامر إن ترك كان تركا للقرآن قال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وطلبتم حرقوص ابن زهير فمنعه ستة آلاف فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذي حذرتم وقوبتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون . وهذا أمر دواؤه التسكين فان سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثار وان أبيتم فعلامة شر قالوا أصبت وأحسنت فان رجع « علىّ » وهو على مثل رأيك صلح الامر فرجع الى علىّ

وأخبره الخبر وأشرف القوم على الصلح وأقبلت الوفود من كل جهة وأصبح الكل متفقين على الصلح

سمع بذلك السبئية (أصحاب بن سبأ) وتحققوا ان الصلح انما يعود عليهم بالوبال لانه إن تم كان على قتلهم لانهم هم الذين أثاروا أمر عثمان فباتوا شر ليلة وقد أشرفوا على الهلكة . باتوا يتشاورون فلم يجدوا غير انتشاب الحرب ثم أصبح الناس والتقى الجيشان خارج البصرة وخرج الزبير على فرسه بين الجيشين فخرج اليه علي حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال علي للزبير لعمري لقد أعددتما سلاحا ورجالا ان كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله (ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ألم أكن أخا كما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل ذلك . فقال طلحة ألبت على عثمان فلعن على قتلة عثمان . ثم ذكر الزبير باشياء منها انه قال له (أتذكر يوم مررت مع رسول الله في بني غنم فنظر الي فضحك وضحكت اليه فقلت له لايدع ابن أبي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه لتقاتلنه وانت ظالم) فرجع الزبير وهو حالف أن لايقاتل علياً . وشعر انه أخطأ في اجتهاده وأصبح الرجوع للحق أولى لانه يعمل لله ثم رجع الناس والجميع لا يشكون في الصلح وباتوا بأهنأ ليلة وبات الدخلاء بأسوأ حال .

فلما كان الغلس قاموا من غير أن يشعر بهم أحد وقصد مضرهم . مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة . ويمنهم يمن البصرة واعملوا السلاح وثار كل قوم في وجوه أصحابهم ودسوا لكل طرف من يعلن الخبر فسأل طلحة والزبير عن الخبر فقيل لهما طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا قد علمنا ان علياً غير منته حتى يسفك الدماء وسأل علي فقيل له ماشعرنا إلا وقوم منهم يعملون فينا السلاح

فقال قد علمت إن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء . ونادى في الناس ان كفوا واخرجوا أم المؤمنين فى هودجها لعل الله يصلح بها فرموها بالنبل وهى تنادى (اذكروا الله والحساب) ولا يأبون الا اقداما واشتدت حمية أهل البصرة لحرم رسول الله ولم يكن محيص عن القتال فاقتتلوا وترك ابن الزبير القوم ورجع فتبعه من يعرف بابن جرموز وقتله وهو يصلى بوادى السباع

أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة والنجدة فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم واشتد أهل الكوفة على الجمل لانهم رأوا ان البصريين لا ينهزمون مادام واقفاً فرامه كثير وكل من رامه قتل فعقروا الجمل وتفرقوا عنه ثم حملوا هودجها وهو مثل القنفذ من كثرة السهام وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الذى لم يكن فيه لاحد مأرب ثم دفنت القتلى وأطاف عليهم «على» فلما أتى على طلحة قال لهفى عليك أبا محمد انا لله وانا اليه راجعون والله لقد كنت اكره ان أرى قريشا صرعى وانت كما قال الشاعر

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... اذا ماهو استغنى ويبعده الفقر

سيرت أم المؤمنين الى مكة ورجع علىّ الى الكوفة التى اتخذها مقر خلافته وأرسل يدعو معاوية للدخول فيما دخل فيه الناس فامتنع حتى تقتل قتلة عثمان ويختار المسلمون لانفسهم إماما

سار الامام لمحاربة أهل الشام وسار اليه معاوية والتقى الجيشان فى سهل صفين ومشت السفراء بين الطرفين فكان فى سفراء الامام من يجهل باب الاصلاح والفساد فاحتد فى الكلام حتى اشتد معاوية فى الخصام وقال مابيننا الا السيف

تناوشا وقتاً حتى دخل شهر المحرم لسنة ٣٧ فعقد علي ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعاً فى الصلح واختلفت بينهما الرسل وانتهت المخابرات على اصرار علي على مبايعته ثم النظر فى أمر قتلة عثمان وأصر معاوية على أخذ القود من قتلة عثمان أولا ثم النظر فى البيعة

نبذ كل طرف عهد هدنته وابتدأ القتال أول يوم من صفر طول النهار وهكذا الايام التالية فلما كان مساء الثلاثاء ثامن صفر أجمع علي على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله فلما أصبحوا التقى الجيشان وانصرفا وكل غير غالب ثم دارت رحى الحرب بشدة يوم الخميس عاشر صفر ودخل الليل ولم يصد الناس عن القتال اقباله فاستمروا فلما أصبحوا كان الملل والسآمة فى جيش الشام أبين ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكما بيننا وبينهم فرفعوا المصاحف على الرماح ونادي منادٍ يقول هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رآها أصحاب علي اختلفوا ثم اتفقوا على ارسال رسول يسأل عما أريد من رفع المصاحف فقالوا الرجوع الى ما أمر الله فى كتابه تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلا نرضاه يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه. ورضيت الناس بهذا وقبلت واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكتبوا بذلك عهداً وان يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو باذرح فى رمضان

انصرف الناس من هذا المكان المشؤوم الذي اجتمعت فيه فئتان عظيمتان من المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً. ولكن الذى يخفف البلية ان الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لان الجميع لم يقصدوا فى محاربتهم غرضا دنيويا لأيثار باطل

أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم فى الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق فأقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما بقصد الباطل انما قصد الحق وربما أخطأ والكل كانوا فى مقاصدهم على حق

رجع الامام الى الكوفة ووقع الشقاق فى جيشه . فريق راض بالتحكيم وفريق كاره له وهؤلاء اعتزلوا الامام ونزلوا حروراء وبايعوا شيث بن ربعى على القتال وان يكون الامر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم جاءهم الامام ونصحهم فثابوا الى رأيه ودخلوا مصرهم

انقضى الاجل وحل رمضان واجتمع الحكمان من السنة السابعة والثلاثين وخلع كل منهم صاحبه وأثبت عمرو معاوية وكتبا شيئاً رأى الامام ان كل واحد اتبع فيه هواه وافترقا ولم يفيا بما تعهدا به فصمم على حرب معاوية مرة ثانية ولحق عمرو بالشام وبايعه مع أهلها

أصبح الحال وجيش أمير المؤمنين موطن فتنة كلما أطفئت واحدة قامت أخرى فمن خوارج عليه . ومن غلاة فيه . ومن محاربين معه . ومن مقاتلين لاجله . والسلطة تسير الى الوراء . وأصبح المقاتلون معه محرضين بالفصاحة والبلاغة لا بالطاعة والامتثال كأنما حربهم معه مجاملة . ومعاوية بالشام مستقيم له الامر وجنده أحسن جند فى طاعة الامراء . بعث عمرو بن العاص الى مصر وفيها قيس بن سعد بن عبادة فبايعه أهلها وهو أخبر بطرق استجلابهم . واعتزلت طائفة منهم وعليهم يزيد بن الحارث الدلجي بخربتا ووقع الخلاف بين الامام وبين قيس فى شأنهم فعزله وولاها محمد بن أبى بكر . وعلم أمير المؤمنين ان معاوية بن خديج دخل مصر مطالبا

بدم عثمان ورأي ان محمدا لاتمكنه المقاومة فولى على مصر الاشتر بن الحارث النخعى وكتب اليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة ولكن قدر الله بموته فى الطريق وبقي في مصر محمد بن أبى بكر حتى دخلها معاوية بن خديج وقتلوه وحرقوه فى جوف حمار . وبقتل محمد بن أبى بكر صارت مصر في طاعة معاوية وبايع له أهلها . وبعد ان تم له ذلك سير الى البصرة عبدالله بن الحضرمى وسير السرايا الى بلاد أمير المؤمنين حتى دخلت الحجاز واليمن فى طاعة معاوية وأصبح الامام في وسط من الخلق مضطرم بالخلاف والشقاق . فريق شيعته وآخرون خوارج (لاعليا ولامعاوية) وفريق منافق يظهر الطاعة ويخفى العداء وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف وتغيرت الناس حتى سأل رجل عليا رضى الله عنه مابال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر قال لان أبا بكر وعمر كانا والييين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك ومل أمير المؤمنين الامارة وسئمها وكأنه استشعر راحته من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى بضمه الى إخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فصرح بذلك في كثير من خطبه ومواعظه الاخيرة

اجتمع ثلاث من الخوارج وتذاكروا ماحل بأخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم فاتفقوا على ان يذهب أحدهم عبدالرحمن بن ملجم المرادى الى الكوفة ليقتل عليا . ويذهب الثانى وهو البرك بن عبدالله التميمى الى الشام فيقتل معاوية ويذهب ثالثهم وهو عمر بن بكر التميمي الى مصر فيقتل عمرو بن العاص واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ماتفقوا وهى صبح ليلة الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان فأما البرك فذهب الى معاوية وانتظره في صلاة الصبح فضربه بالسيف فوقع فى إليته ولم يمته فامر به معاوية فقتل .

واما عمـر بن بكر فذهب الى عمرو بن العاص فلم يخرج الى الصلاة لعذر أصابه واستناب خارجة بن حبيب السهمى فضربه الخارجى فقتله ظنا منه انه عمرو فغاب ظنه وقبض عليه فقتل وضرب به المثل «أراد عمرا وأراد الله خارجة» وقصد عبد الرحمن بن ملجم أشقى البرية الكوفة وانتظر علياً فبينما أمير المؤمنين ينادى الصلاة الصلاة الصلاة إذ ضربه بسيفه قائلا (الحكم لله لالك ياعلى ولا لأصحابك) فقال على (لايفوتنكم الرجل) فشد عليه الناس وأخذوه ثم قال على «النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلني ضربة بضربة ولا تمثلوا به وان بقيت رأيت فيه رأيي» ثم دخل جندب فقال إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما (أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شئ أزوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع واصنعا للأخرى وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصراً واعملا بما فى كتاب الله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم) ثم نظر الى محمد الأكبر ابن الحنيفية فقال له (هل حفظت ماأوصيت به أخويك قال نعم قال فانى أوصيك بمثله) ثم لم يزل يذكر الله حتى مات فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص

ليتأمل القارئ مقدار تبدل الأحوال واختلاف العقائد وتشتت الاهواء بالفتن . قتل سيدنا عمر رضى الله عنه سراً . وتولى بعده سيدنا عثمان فازداد الطيش حتى قتل رضى الله عنه جهراً . وتولى الأمام فكان بين لجاج وعناد حتى جهزت لحربه الجيوش . وهكذا كل أمر يصعد منزلة منزلة حتى يبلغ الغاية ولا سبب لذلك الا مفارقة أدب الدين . وقد مكث رضى الله عنه فى

الامارة ماشاء الله ان يمكث وكأن الله سبحانه وتعالى أراد ان يظهر سخطه لمن عصى ورضاءه لمن أطاع فأذاق الامة كأس الضر فى نكث بيعة خليفة رسوله وقتله ظلما . أو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمثل للمسلمين عيانا مزايا الوحدة والمحبة والائتلاف . وضرر التعدد والعداوة والشقاق . فأوقع بأسهم بينهم حتى يتوبوا ولا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق العصا بينهم وبين أئمتهم وليعلم جماعة المسلمين فى كل آن أن نصر الله بعيد عنهم كلما فشلوا وتنازعوا وصرفوا التعلق عما كانت عليه الناس فى عهد السلف الصالح

لو أصلحت دعوة من النفوس فاسدها وداوت مرضها لكان لدعوته رضى الله عنه في صلاح حال المسلمين جميل الأثر . ولو ساعد الدهر لارتقت الامة العربية في عصره حتى شقت الفلك بارتقائها ونافست بواسطته الامم فى كل شئ وناهيك بمن جمعت بعض حكمه فقاقت بها الأسفار وتليت بعض معجزات بلاغته فزلزلت على لينها ما استحجر من الارواح . أى وجدان لطيف هو يخاطب الناس بما يقيمهم ويعينهم وينعشهم ويرقي بهم بسلم البرهان الى الكمال . تنغلق الأفكار دون الاتيان بمثل عهده رضى الله عنه للأشتر النخعى الذى ملأه بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالب الناس بالطاعة عليه وحملهم باتباع مافيه . هو أول قانون لسير العمال فى الامة الاسلامية جلى فيه رضى الله عنه عن الغاية بما لم تصل مدارك الكثير الى مرماه . ولما كان هو من أحسن ماتتعلق به النفوس وتتشوق لرؤياه العيون بعد سيرته رضى الله عنه أتينا به خاتمين سيرته الشريفة بخير أعماله . وليشهد الناس هذه الحكم التى تفيض من الافئدة والفصاحة التى تتدفق عن الالسنة . والله على كل شئ قدير

لولا عجائب صنع الله مانبتت هذى الفضائل فى لحم وفى عصب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ماأمر به عبد الله علىّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر فى عهده اليه حين ولاّه مصر : جباية خراجها . وجهاد عدوها . واستصلاح أهلها . وعمارة بلادها .

أمره بتقوي الله . وايثار طاعته واتباع ماأمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التي لايسعد أحد الاّ باتباعها ولايشقى الا مع جحودها واضاعتها وان ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه .

وأمره ان يكسر نفسه عند الشهوات ويزعها (١) عن الجمحات فان النفس امارة بالسوء الا مارحم الله

ثم اعلم يامالك انى قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور . وان الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح (٢) بنفسك عما لايحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا

(١) يكفها عن مطامعها

(٢) شح بنفسك أى أبخل بها عن الوقوع فى غير الحل

تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان : إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالى الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك وقد استكفاك (١) أمرهم وابتلاك بهم

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فانه لا يدى (٢) لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو . ولا تبجحن بعقوبة . ولا تسرعن الى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن انى مؤمر آمر فاطاع فان ذلك ادغال (٣) فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير

واذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على مالا تقدر عليه من نفسك فان ذلك يطامن اليك من طماحك (٤) ويكف عنك من غربك ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك .

إياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم . ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله ادحض حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب وليس

---

(١) طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم

(٢) لا يدي لك بنقمته أى ليس لك ان تدفع نقمته أى لا طاقة لك بها يقال ليس لى بأمر كذا يدان أى طاقه

« ٣ » الادغال ادخال الفساد

« ٤ » الطماح النشوز

شئ ادعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد

وليكن أحب الامور اليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية فأن سخط العامة يجحف (١) برضى الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وا كره للانصاف واسأل بالالحاف (٢) وأقل شكرا عند الاعطاء وأبطأ عذرا عند المنع واضعف صبرا عند ملمات الدهر من اهل الخاصة . وانما عماد الدين وجماع المسلمين (٣) والعدة للأعداء العامة من الامة فليكن صغوك لهم وميلك معهم

وليكن أبعد رعيتك منك واشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فان فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ماظهر لك والله يحكم على ماغاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ماتحب ستره من رعيتك .

اطلق عن الناس عقدة كل حقد . واقطع عنك سبب كل وتر (٤) وتغاب عن كل ما لايصح لك ولا تعجلن الى تصديق ساع فأن الساعى غاش وان تشبه بالناصحين ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر . ولا جبانا يضعفك من الأمور . ولا حريصا يزين لك الشره بالجور . فأن

---

(١) يجحف أى يذهب برضى الخاصة فلا ينفع الثاني معه اما لو سخط الخاصة ورضى العامة فلا أثر لسخط الخاصة فهو مفتقر

(٢) الالحاف الالحاح والشدة فى السؤال

(٣) جماع الشيء بالكسر جمعه أى جماعة الاسلام

(٤) الوتر بالكسر العداوة والاوتار العداوات

البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة (١) فأنهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه أولئك أخف عليك مؤونة . وأحسن لك معونة . وأحنى عليك عطفاً . وأقل لغيرك إلفاً فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه واقعاً من هواك حيث وقع .

والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك (٢) بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة

ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء فأن فى ذلك تزهيداً لاهل الأحسان فى الاحسان وتدريباً لاهل الأساءة على الأساءة والزم كلا منهم ماألزم نفسه

واعلم انه ليس شئ بأدعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم (٣) فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلا وان أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وان

---

(١) بطانة الرجل بالكسر خاصته

(٢) يطروك أى يزيدوا فى مدحك ولا يبجحوك أى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك لم تكن فعلته

(٣) قبلهم بالكسر أي عندهم

أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدث سنة تضر بشئ من ماضى تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت بها

وأكثر مدارسة العلماء ومنافسة الحكماء في تثبيت ماصلح عليه أمر بلادك وإقامة مااستقام به الناس قبلك

واعلم ان الرعية طبقات لايصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة . ومنها قضاة العدل . ومنها عمّال الانصاف والرفق . ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسالمة الناس . ومنها التجار وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سمي الله سهمه ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً

فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الا بهم ثم لاقوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثم لاقوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد(١) ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها . ولا قوام لهم جميعا الا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم . ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم مالا يبلغه رفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم

(١) وفى نسخة المعاهد

وفي الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر مايصلحه وليس يخرج الوالى من حقيقة ماألزمه الله من ذلك الاّ بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل

فولّ جندك انصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك . وأنقاهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب . ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو عن الاقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف .

ثم ألصق بذوي الاحساب وأهل البيوتات الصالحة السوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من أمورهم مايتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن (١) في نفسك شئ قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعهدتهم به وان قل فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لايستغنون عنه

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل (٢) عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وأن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودّة الرعية وانه لاتظهر مودتهم الا بسلامة صدرهم ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فأفسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتمديد ماأبلى ذوو البلاء منهم . فان كثرة الذكر لحسن

---

(١) تفاقم الامر عظم

(٢) أفضل عليه وتفضل بمعنى

أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل ان شاء الله ثم اعرف لكل امرئ منهم ماأبلى ولا تضيفن بلاء امرئ الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرئ الى ان تعظم اكثر من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما

واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول) فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر (١) من الفيئ الى الحق اذا عرفه ولا تشرف (٢) نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون اقصاه . أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج . وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على كشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل مايزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا

ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة فانهما

---

(١) حصر كفرح ضاق صدره أي لا يضيق صدره من الرجوع الى الحق

(٢) الاشراف على الشيء الاطلاع عليه من فوق

جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام المتقدمة فانهم أكرم أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اشرافاً وأبلغ فى عواقب الامور نظراً. ثم اسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ماتحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة (١) لهم على استعمالهم الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الاعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن (٢) عليك شئ خففت به المؤونة عنهم فانه يذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن

---

(١) حدوة أى قدوة يباروبها

(٢) ثقل المضروب . أو نزول آفة . أو انقطاع بالة أى مايبل الارض كالمطر أو تحويل البذر الي فساد بالتعفن لما اغتمرها الغرق

ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك (١) لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه لطيبة أنفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وإنما يؤتى خراب الارض من اعواز أهلها وإنما يعوز أهلها لأشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك واسرارك بأجمعهم لوجود صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجتري بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عمالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك . فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شئ ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فأعمد لأحسنهم كان فى العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجها فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من

(١) اجمامك أى اراحتك لهم

المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته (١) وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك . وفى حواشى بلادك . واعلم مع ذلك ان فى كثير منهم ضيقا فاحشاً وشحاً قبيحا واحتكاراً للمنافع وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه . فنكل به وعاقب فى غير اسراف

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البوسى والزمنى (٢) فان فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً . واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى (٣) الاسلام فى كل بلد . فان للأقصى منهم مثل الذى للأدنى . وكل قد استرعيت حقه . فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييعك التافه (٤) لأحكامك بالنظر فى الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم . ولا تصعر خدك لهم . وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون . وتحقره الرجال . ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشيه والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار الى الله يوم تلقاه . فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف

---

(١) البائقة الداهية

(٢) الزمنى بفتح أوله جمع زمين وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاي أى العاهة يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب

(٣) جمع صافية وهى أرض الغنيمة

(٤) التافه القليل

من غيرهم وكلّ فاعذر الى الله فى تأدية حقه اليه . وتعهد أهل اليتم . وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسئلة نفسه وذلك على الولاة ثقيل . والحق كله ثقيل . وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم

واجعل لذوى الحاجات منك قسما . تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك . من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع . فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن . (لن تقدس أمة . لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعى . ونح عنهم الضيق والأنفة . يبسط الله عليك بذلك اكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته واعط ما أعطيت هنيأ . وامنع فى اجمال واعذار .

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها . منها . اجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك . ومنها اصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور اعوانك . وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم مافيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الاقسام . وان كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية

وليكن فى خاصة ماتخلص به لله دينك اقامة فرائضه التى هى له خاصة فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووف ماتقربت به الى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص . بالغا من بدنك مابلغ واذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا . فان فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهنى الى اليمن كيف أصلى بهم فقال

(صل كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما)

وأما بعد فلا تطيلن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل وإنما الوالى بشر لا يعرف ماتوارى عنه الناس به من الامور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وانما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخت نفسك فى البذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه . أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك اذا آيسوا من بذلك . مع ان أكثر حاجات الناس اليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة . أو طلب انصاف فى معاملة

ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف فى معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال . ولا تقطعن لاحد من حاشيتك وحامتك (١) قطيعة . ولا يطمعن منك في اعتقاد (٢) عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ (٣) ذلك لهم دونك . وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة . والزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن فى ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة ذلك محمودة . وان

(١) الحامة كالطامة الخاصة والقرابة

(٢) الاعتقاد الامتلاك

(٣) مهنأه منفعته

ظنت الرعية بك حيفا فاصحر (١) لهم عذرك . واعدل عنك ظنونهم بأصحارك فان فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك واعذارا يبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق

ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى فان في الصلح دعة لجنودك . وراحة من همومك . وأمنا لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل . فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة . فحط عهدك بالوفا . وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت . فانه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين . لما استوبلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك . ولا تختلن عدوك فانه لا يجترئ على الله الا جاهل شقى وقد جعل الله عهده وذمته امنا أفضاه بين العباد برحمته . وحريما يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره . فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك

اياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس شئ ادعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه

(١) صحر كفرح أظهر وأبان

مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لان فيه قود البدن وان ابتليت بخطأ وافرط عليك سوطك . أو سيفك أو يدك بعقوبة فان فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن ان تؤدى الى أولياء المقتول حقهم

واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء . فان ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق مايكون من احسان المحسنين

واياك والمن على رعيتك باحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك . أو ان تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فان المن يبطل الاحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس. قال الله تعالى (كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون).

واياك والعجلة بالامور قبل أوانها والتسقط فيها عند امكانها. أو اللجاجة فيها اذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه

واياك والاستئثار بما الناس فيه اسوة والتغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون فانه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الامور وينتصف منك للمظلوم

أملك حمية أنفك وسورة حدك . وسطوة يدك . وغرب لسانك. واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد الي ربك

والواجب عليك أن تتذكر مامضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو اثر عن نبينا صلى الله عليه وآله أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت

مما عملنا به فيها . وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت اليك فى عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك الى هواها

وانا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وان يختم لى ولك بالسعادة والشهادة إنا اليه راغبون . والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا والسلام

فصل

في خلافة سيدنا الحسن

لابد لنا من كلمة على خلافة سيدنا الحسن يتصل بها الكلام ويعلم منها كيف استقام الأمر لسيدنا معاوية فقد تركنا أغلب الناس فوضى بعد قتل الامام في العقل والشريعة معاً

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ثم بينما هو يتجهز للمسير قتل فبايع الناس وهذا الجيش ولده الحسن وبلغه ان معاوية سائر اليه في أهل الشام فتجهز هو أيضا بهذا الجيش الموثق بالايمان والعهود الى لقاء معاوية . فلما نزل الحسن المدائن حدث في جيشه من الشقاق والنفاق ما دعاه لتأخير ما عزم عليه . رأى ان جند العراق لاتقوم به دولة لما هو واقع بينهم دائماً من النزاع والتطلع الى ماليس لهم (حتى نازعوا الحسن في بساط كان يجلس عليه) .

رأى ان بيعته كبيعة أبيه ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق . فراسل معاوية بن أبي سفيان يبذل له الصلح واشترط عليه شروطاً وقال له ان أنت أعطيتني هذا فأنا سميع مطيع . وكان معاوية قبل وصول كتاب الحسن اليه ختم صحيفة في أسفلها وكتب للحسن يقول له اشترط في هذه الصحيفة ماشئت فاشترط وأهم شروطه تأمين جيشه وشيعة علي كلهم فقبلها معاوية وقدم العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وصدق رسول الله في قوله عن الحسن (ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين)

تم دور الخلافة بالخلفاء الراشدين بتسليم سيدنا الحسن الامر وانتهى دور الفتن والشقاق الذي ابتدأ من قيام الثوار على سيدنا عثمان بن عفان ونهايته قتل الأمام على رضى الله عنهما .

فتن دامت عشر سنين لو كانت فى أمة أخرى لهدمتها وقوضتها ولكن الله نظر الى دينه القويم بعين عنايته فألف كلمة اهله وحفظه كما وعد (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) . ثم انقسم المسلمون على أنفسهم وأصبحوا فرقا فمنهم الشيعة ومنهم الغلاة والروافض والخوارج وغيرهم من أهل الملل والنحل . يقفون فى وجه كل اصلاح ويشقون عصا كل طاعة لحد الآن كما سيأتى تفصيله

ألا مخبر يخبرنى لولم يقدر الله هذه الفتن إلى أى ركن من أركان الدنيا كان يصل الاسلام . والى أى درجة كانت ترفع كلمته . والى أى عدد كانت تنتهى شيعته . والى أي شرف كانت تصل رفعته؟.. أظنه كان يستأمن بقوته أعظم قوى الكون ويصبح كل شئ دونه منحطا ومتضائلا خاضعاً ومستكينا اليه

لو نظر الناظر لما وجد لهذا الشقاق الذى حصل الا تطاول الأيدي لقتل سيدنا عثمان ونقض بيعة له فى أعناقهم مع ان الخروج عن طاعة الأمام لم يجعل النبى صلى الله عليه وسلم له سببا الا الكفر البواح الظاهر الصريح الذي لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم . وكأن مصيبته هذه لم تكف حتى أعقبها الله بافتراق الامة في داخليتها فكان لكل جماعة رأي وليس هذا بالامر الهين . وكيف يكون هيناً وقد أدّي للقتال والخروج على الامام وعمل السيف فى رقاب المسلمين ما عمل ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم دالت الدولة لبني أمية وتوالت فتوحاتها برا وبحرا وانتظم الشمل بعد شتاته وجبر الوهن بعد ثلمه واشرأبت أعناق أرباب الدولة الى إعزاز جانبهم

واذلال مجانبهم واظهار دينهم وقد نما فيهم احساس المحاماة عن الحوزة فاتجهت جيوش الدولة وأساطيلها الى الفتح فلم تمض الايام ولم تنصرم الليالى حتى فتحت الجزر فى البحر الابيض المتوسط والمدن والحصون فى قارة أسيا وأصبح كنف الامة مكينا يكلؤ الوادعين فيه . ثم مازال أرباب الدولة قائمين بتشريفها بالرأى السديد والعزم الشديد حتى أخذت الجزية من ملك بالقسطنطينية بعد الحصر والتضييق والعذاب الأليم واستدامت لها الهداية الى أن أنسى الله سبحانه وتعالى بعض القوم أدب الدين وحدود المحافظة على المواثيق والعهود ونشزت طوائف منهم زائغة عن السداد ومتنكبة عن الصواب والرشاد فادت حالتهم الى اضمحلال بعض الاطراف من ملكهم فخرجت عليهم منها غارات وفتن كانت مقدمة لانتقال الدولة من بنى أمية الى بنى عباس كما سيرد عليك ببعض التفصيل بعد هذا فتدرك منه مايؤدى الى الزيادة والبركة ومايورث الفشل والاختلال (وتلك الايام نداولها بين الناس)

ان الصدور لاتزال تكمن مافيها . ولذلك فان شيعة على رضى الله تعالى عنه لاتزال ترى هذا الامر في أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وقد صارت لهم مذاهب ونحل يعجز القلم عن استقصائها والخوارج لاتزال ترى التحكيم ضلالة ولا ترى البيعة الا شورى ولا تنتخب الا رجلا على مذهبهم ومعتقدهم وتفرقوا شيعا كل له مذهب يتبعه (ولو بغير امام) وجماعة منهم يقولون ان معاوية هو الذى أحال الخلافة ملكا (وانى لمعاوية ذلك) وانما الذي أحالها ملكا هى العوامل الطبيعية التى اذا عرضت للامة تضطرها الطلب الانفراد بالمجد والاستئثار به وقد وقع هذا بالفعل لبنى أمية ولم يكن لمعاوية ان يدفع تأثيره عن نفسه

وقومه لانه أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته الأمة فاستماتت دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالامر لوقع فى افتراق الكلمة ولم يكن للحسن رضى الله عنه ذلك بل كان القوم فى نهاية الشقاق . يدل على ذلك انه لما تراسل مع سيدنا معاوية فى أمر تسليم الخلافة خطب الناس . فحمد الله وأثنى عليه وقال والله ما ثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى مسيركم الى صفين ودينكم امام دنياكم . وأصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم . الا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره وأما الباقي فخاذل وأما الباقى فثائر . الا وان معاوية دعانا لامر ليس فيه عز ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبي السيوف وإن أردتم الحياة قبلناه واخذناه بالرضا . فناداه الناس من كل صوب وناحية « البقية البقية وامض الصلح »

فأين هذه العصبية من عصبية بنى أمية ومثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى عمله حجة وفعله قدوة يخشاها . كان اذا رأى القاسم بن محمد بن أبى بكر يقول لو كان لى من الأمر شئ لوليته الخلافة ولو أراد ان يعهد اليه لفعل . ولكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر ان يحوّل الامر عنهم لئلا تقع الفرقة ومثل هذا هو الذى وقع للمأمون منذ عهده للرضا ومن هذا أيضا الذى نراه فى أهالى الدول المتمدنة الذين يحرصون على تقاليدهم فهم فى عصبية تامة يخيفون بها الحكومة ويغرسون فى قلوب أربابها بذور التقية والحذر فلا يتأتى لحكوماتهم ان تجلب لبلادها من البضائع الا ماليس له وجود عندهم فضلا عن انها تستخدم الغير فى عملها . على

ان الملك انما ذم منه الشارع التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات ولم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح . واذا كان الملك مخلصاً يحمل الناس على عبادة الله وجهاد عدوه . لم يكن مذموماً . والملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية وخلافة سيدنا معاوية لم تكن كذلك بل من رأى كثير من المؤرخين الذين لم يصح عندهم حديث (الخلافة بعدى) ان تلحق دولته بدولة الخلفاء الراشدين وأخباره باخبارهم فهو تاليهم فى الدين والفضل والفتح العظيم برا وبحرا ومن بعده من خلفاء بنى مروان وبنى العباس الذين فتحوا الفتوحات وأعلوا كلمة الله فى الارض وان شق ذلك على جماعة فى هذه الايام شغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل وتضليل وجلسوا مجلس الحكم في هذه القضية من قبل ان يتحروا أوثق مصادرها والايام تسوق لهم كل يوم حديثا عن سياسة دنياهم وقد صرف الله قلوبهم عن النظر فيها وأولى بهم ان يتناصحوا فى خيرها وشرها ولا يتركوا الناس افذاذاً لا يعلم أحدهم بما يكون من عمل أخيه

اللهم ألف كلمة المسلمين ولم شعثها ووفقها لما تحبه وترضاه بمنك وكرمك انك على كل شئ قدير

سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه

هو الفاتح لأعظم ركن من أركان الخلافة الاسلامية . البلد الذي هو واسطة عقدها . أموية . وعباسية . وتركية . البلد الذى لم يتمصر قبله مصر . ولم يذكر قبل أهله حى . البلد الذى كانت أعمال أهله ولا تزال

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

تقدمه على غيره لعلاقة السلطان . الذى بينه وبين هذا البلد وأهله لانه أول فاتح اسلامى تولى فتحه بسيفه وحكمه بعدله . ولعلاقة الدين . لانه أول من شرح الله صدور أهله اليه على يده وأطلع فى صدورهم نبراسه بواسطته . وأول مسجد خشعت فيه الاصوات للرحمن وسجدت فيه الجباه للديان مسجده الذى أسس في مصر منذ فتحها ووقف على اقامة قبلته (أى على تحريرها) ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من أجلهم

هو سيدنا عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد (بالتصغير) ابن سهم بن عمرو بن هصيص (بالضم) بن كعب بن لؤي القرشى السهمى

اختلف الناس فى وقت اسلامه فقائل قبل الفتح وقائل بين الحديبية وخيبر وقائل بأرض الحبشة. وعاش تسعين سنة وكان يذكر ليلة ولد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان أدعج أبلج قصير القامة عليه مهابة الأمارة وسيماؤها . أخرج ابن أبى خيثمه من طريق الليث قال : نظر عمر ابن الخطاب الى عمرو (رضى الله عنهما) يمشى فقال ماينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الارض الا أميراً

وكان لسناً بادى الحجة يسد برأيه ثلمة السيف (وقد سدها) ويفل

بالرويّة حده(وقد فله) . قائل لم يقل بغير تفكير ولم يعمل بغير تدبير . قال ابراهيم بن مهاجر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآناً ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سراً بعلانية منه

بلغ مقدار لحنه بحجته ودهائه في مايريد وما يراد منه ان سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان اذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه يقول : أشهد ان خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد (يعنى خالق الاضداد)

وذكر الزبير بن بكار ان قريشاً بعثت لعمرو تناظره بعد ان اسلم فقال لرسولها : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك نحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال نحن أهدى . قال فنحن أوسع عيشاً أم هم ؟ قال هم . قال فما ينفعنا فضلنا عليهم ان لم يكن لنا فضل إلا فى الدنيا وهم أعظم منا فيها إصراً فى كل شئ وقد وقع في نفسى ان الذى يقوله محمد من ان البعث بعد الموت ليجزى المحسن باحسانه والمسيئ باساءته حق ولا خير في التمادى على الباطل.

وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرفع طرفه اليه. وكان للمعضلات حلالا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة الجراح رضى الله عنهم وكان أميرهم وكانوا يصلون خلفه .

وبعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم أئتنى فلما أتاه قال له انى أريد أن أبعثك على جيشى فيسلمك الله ويغنمك وارغب لك من المال رغبة صالحة فقال يارسول الله ماأسلمت من اجل المال بل اسلمت رغبة فى الاسلام فقال ياعمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح

وأتى النبي صلى الله عليه وسلم على ثباته إذفزع أهل المدينة فزعا فتفرقوا

فنظر عمرو بن العاص الى سالم مولى أبي حذيفة فى المسجد فاذا عليه سيف فعمل مثله فخطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال الا يكون فزعكم الى الله ورسوله ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان

ذاق لذة الحاضرة وعرف حال استيطان الريف وأدرك صعوبة جلافة البدو ومازجفاء الاعراب فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب لم يعجزه استكمال شئ دون استعماله مع أهله على الوجه الذى يحسن مسمعاً ويلطف من القلب موقعاً

نظر الى دولة الروم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور وسبر تركيبها بمسبار الحكمة مع شدة احتفائهم وقتها بسياسة الخفاء فى مجامع رجال دولتهم المعروفة عند جماعة المؤرخين بـ(سوسيتيه سكريت) فتبدى له من أمر الدولة الفراق فى فراقها وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن وتخضيد شوكة هذه الدولة عن مصر

فلما كانت سنة ثمان عشرة وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الجابية) قام اليه وخلابه وقال له فيما قال إئذن لى أن أسير الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين وكره ذلك فلم يزل به من تعظيم أمرها وتنبيه خاطره الشريف الى مزارعها ومنافعها ومحاصيل أرضها وبرها وخيرها وفيضان نيلها وحال أهلها حتى ركن لذلك وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك فسار وافتتحها (وفى كونها فتحت

صلحاً أوعنوة خلاف) ولم يخنه الرأى فى شئ مما قال ولم تعرف له كذبة فيما روى كانما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر وربى فيه

كان نظره فى ذلك على الغيب (والبلاد فى عالم العماء والخفاء) أثقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة (والكرة الارضية أبسط من كف) فكم قدروا قوة أخصامهم واخطأوا وكم وطئوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا فى حروب انتهكتهم ظنوها فى أول أمرها لعباً ولهواً

ثم وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصفاً يقصر عنه المخالط والعشير فمنه انه قال له عنها (بينما هى لجة بيضاء اذا هى زبرجدة خضراء نيلها عجب . وترابها ذهب .وأمراؤها جلب .وهى لمن غلب)

كيف يرى المصرى الآن . هل قدر بعد ثلاثة عشر قرناً ان يفلتها من وصف عمرو بن العاص ام هى هى فهمها عمرو ليعلمها وعلمها ليحكم عليها.وكيف يرى الناظر مكان العظمة فى مقال هذا البدوى ومقدار العظة والاعتبار فيه مع انه لم يتحلك بعلوم أصول الكلام ولم يتحنك بفلسفة الحكماء ولم يشهر علمه بشهادات التدريس ولم يمل عليه الانور بصيرته التى هى نتيجة حسن المنبت وطيب المغرس وصيغة الأدب الديني الذى هو فردوس النفوس تنقد بواسطة الحقائق ويحكم عليها حكماً صحيحاً تؤيده الايام ويحققه المستقبل

وكان مع هذه الدنيا المقبلة والسعادة الخادمة والسلطنة القاهرة النافذة وقوله وهو على المنبر (لقد قعدت مقعدى هذا ومالاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إن شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت) .أسبق الناس لحق وأبعد الناس عن باطل فلم يعهد عليه أثناء ولايته عليها نقضه لعهد ولا خفره لذمة ولا هتكه لعرض ولا نظره لما فى يد الناس من الأموال والثمرات

والعروض ولم يستأثر لنفسه خيراً دون من يعول ويرعى

يستظهر على ذلك من تأنيه وتؤدته في ارسال ما كان يحمل من مصر الى المدينة من الطعام ونظره فى ذلك لطوق البلاد والعباد وكتاب أمير المؤمنين يلى الكتاب بطلب ذلك وهو يحتمل العتب منه ولا يحول عن سبيله. وكما يؤخذ من جبايته لها أقل من جباية غيره . وقول سيدنا عثمان رضى الله عنه له (ان اللقاح بمصر قد درت ألبانها بعدك يا عمرو فقال له لانكم أعجفتم أولادها)

ثم أزال عن أهل مصر كثيراً من البدع واذاقهم حلاوة الدين وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ومن ازالتها من حسنة

وحسبك من مناقبه الاسلامية الغراء رضاؤه بالحق على نفسه واذعانه له . أخرج ابن عبد الحكم عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال عذت بمعاذ قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين فكتب عمر الى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه معه فقدما فقال عمر أين المصري خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمر فقال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو (بم استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)

وناهيك بهذه المنقبة الاسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستق منها جميع العالم معانى الحرية والمساواة والاخاء والعدل والاحسان

أفلا يأسف المصرى على نفسه اذا قايس بين ترقيها فى ذلك العهد وبين

انحطاطها الآن . شتان بين نفس تسافر لوقتها من مصر الى الحجاز لتشكو ضربة من سوط وبين أخرى ترى حقها من جميع الوجوه مضاعا وهى مستأنسة بالظلامة لاتحس بالألم فضلا عن أن تهم بالشكاية منه

أفلا ينبغى للمتبجح بفضل الاجانب أن يقصر بعد هذا الفضل وأمثاله من مكارم الاخلاق عن الافراط فى الاطراء عليهم . أفلا يوجب عليه العدل أن يشرك قومه معهم ويضعهم فى طبقتهم فيذكرهم اذا هو ذكر (الكونت ميرابوه) أو (الجنرال دولا فيت) أو (روبسبيير) أو (مارا) وغيرهم من الفرنساويين أو (كروميل) أو (أو ليفيه) الانكليزيان أو (واشنطون) أو (فرنكلين) الاميريكانيان أو (چوردانولورونو) أو (جريبالدي) أو (كافور) التليانيين لان سعى هؤلاء فى تحرير أنفسهم ومساواتهم ببعضهم لم يكن بأشرف من المعنى الذي قصده أمراء الاسلام ولكن هؤلاء نشأوا بين قوم عرفوا فضلهم فاذاعوه وسمعوه فوعوه وفضلنا ضيعته أصحابه ولا حول ولا قوة الا بالله

هذا بعض الشئ من سيرة هذا الفاتح وبقى شئ لابد من ذكره والتنويه به تذكرة لاخواننا القراء . قال ابن حجر فى الاصابة : « ان عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم واخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم) وقوله (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من

ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) وقوله (لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) وجميع ذلك مع الاحاديث الشهيرة الكثيرة يقتضى القطع بتعديلهم ولايحتاج أحد منهم مع تعديل الله له الى تعديل أحد من الخلق على انه لولم يرد من الله ورسوله فيهم شئ مما ذكرناه لاوجبت الحال التى كانوا عليها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده من الهجرة والجهاد ونصرة الاسلام وبذل المهج والاموال وقتل الآباء والاولاد والمناصحة فى الدين وقوة الايمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم وانهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم » . ثم وجدت بين المسلمين طوائف من العجم والفرس ديدنهم التنكر لكل دولة ذاهبة ليحتلبوا خير كل دولة مقبلة أولئك أداهم هذا الضرب من النفاق الى الكذب والبهتان فى حق خيار من سلف وخلقوا لهم صغائر وكبائر . وهذا الفاتح الجليل ممن أصيب ببهتان كبير من هؤلاء وأدي فجور الكاذب عليه ان يخلق له أفعالا ويختلق عليه أمورا ليمحى بسيئاته المكذوبة حسناته هذه . وهيهات وقد أخذ الناس يهرج هذا القول وزور الكلام المصطنع واغفلوا هذه المكارم وما علموا ان موقع الرجل من الملة والامة هو الموقع الذى تخطبه له هذه المحاسن وتوجبه له هذه المناقب . لاما ترميه به الاعداء . ولم يدركوا ان الامويين لم يشتموا الا لارضاء العباسين وان الزارى بهم لم ينظر فى عمله الى شئ من خدمة الحق أو اعلاء كلمة الدين وان الكل مابعد ذلك مقلدون

سيدنا معاوية رضى الله عنه

هو أبو عبدالرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية عبدشمس بن عبدمناف القرشى الاموى

كان أبوه أبو سفيان أحد أشياخ مكة أسلم بعد الحديبية على ماحكاه الواقدى وقال غيره بل يومها وكتم اسلامه عن أبيه وأمه حتى أظهره يوم فتح مكة (وهو مثل الذي وقع للعباس رضى الله عنه اذ أسلم ببدر وكتم اسلامه الى قبيل الفتح)

قال أبونعيم: « وكان من الكتبة الفصحاء وهو ممن كتب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أمينه على وحى ربه جل وعلا »

وكان من أكابر العرب نسباً وقربا منه صلى الله عليه وسلم حاز شرف الاسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف المصاهرة المستلزمة لمرافقته له صلى الله عليه وسلم فى الجنة وشرف الحلم وشرف العلم وسودد الامارة والخلافة وكفى بنسبه فخراً قول النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ». ميزه بذلك صلى الله عليه وسلم دون غيره زيادة في اعلان شرفه ومجده

روى عن أجلاء الصحابة كأبى بكر وعمر وأخته أم المؤمنين أم حبيبة وروى عنه اجلاؤهم وفقهاؤهم كعبد الله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير وغيرهم فروي عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى مائة وثلاثة وستين حديثا

كان عاقلا لبيباً عالماً حكيما داهية فى السياسة والكياسة وهو الذى

قال «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» قالوا وكيف ذلك يا أمير المؤمنين قال « اذا جذبوها أرخيتها وان أرخوها جذبتها »

حسن التدبير حكيما فصيحاً بليغا يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة والحلم عنده أغلب . كريما باذلا للمال يكرم الوافدين ويحسن القرى ويقضى الحوائج . اختلفت الناس فى حبه ولم تختلف في فضله

مخايل فضل نشأت فيه وثبتت ونمت معه حتى صرن شمائل كمال وخلال خير وجلال . اخرج أبو سعيد المدايني قال نظر أبو سفيان الى ولده معاوية وهو غلام فقال ان ابني هذا لعظيم الرأس وانه لخليق أن يسود قومه فقالت أمه (قومه فقط ! ! ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة !!)

قال ابن عباس رضى الله عنه وكان من النقاد « مارأيت للملك اعلى من معاوية » . رواه البخاري فى تاريخه أو قال : « مارأيت أليق من اعطاف معاوية بالرئاسة والملك » وقال عبد الله بن عمر مارأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية بن أبي سفيان . قالوا وأين أنت من أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ؟ قال أولئك أفضل منه وهو أسود منهم

ووصفه عبد الملك بن مروان عند مامر بقبره فقال : « انه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم . كان اذا أعطى أغنى واذا حارب أفنى »

نعم لقد كان سائس أمم ومربي دول وراعى ممالك وكفى بقول سيدنا عمر بن الخطاب لجلسائه يوما : « تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية ؟ » دليلا على انه سباق للعظائم من الامور

وكان يهون عليه كل شئ اذا انتظم أمر الملك وبدا صلاحه فابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه اليها أحد . منها الاسطول لحماية الثغور ووقاية فروج

البلدان من تطرق الاعداء . والبريد لسرعة وصول الاخبار بمتجددات الاحوال وناهيك بها من نعمة علمت مزاياها الملل الآن فما زالت ترقيها حتى كان من بعض خدامها تيار الكهرباء وأجنحة البخار . وديوان الخاتم وهو ديوان به نواب فاذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الامور ووصل التوقيع الى ذلك الديوان اثبتت فيه نسخة وختم عليه بالشمع وختم بختم ذلك الديوان لمضاهاته عند اللزوم لمراجعة الحساب

وفضائله كلها غرر منها مارواه البخارى ان مولى لعبد الله بن عباس قال له انى رأيت أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان أوتر بركعة فقال له «ان معاوية فقه»

ومنها مارواه الترمذي وقال انه حديث حسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لمعاوية فقال : « اللهم اجعله هاديا مهديا » ومنها ماأخرجه الحارث بن أسامة من انه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الاربعة الخلفاء وجماعة آخرين من أصحابه ثم قال : « معاوية بن أبي سفيان أحلم أمتى وأجودها » . محا عنه بهذه الدعوة المباركة المقبولة مضائق النفس وثورانها ونزع عنه حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة . ولا أحسن من هاتين الصفتين كما لاأقبح من الغضب والبخل . وأخرج مثله « المنلا » فى سيرته ونقله عنه المحب الطبرى فى رياضه انه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الخلفاء الأربعة وجماعة من اصحابه ثم قال : «ومعاوية بن ابى سفيان أمينى وصاحب سري»

ومنها انه دخل صلى الله عليه وسلم على زوجته أم حبيبة ورأس معاوية فى حجرها وهى تقبله فقال : « اتحبينه فقالت ومالى لاأحب أخى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ان الله ورسوله يحبانه »

ومنها مارواه الحافظ أحمد بن منيع قال قال النبى صلى الله عليه وسلم

« عزيمة من ربي وعهد عهده الى أن لا أتزوج الى أهل بيت ولا أزوج بنتاً من بناتي لأحد الا كانوا رفقائي في الجنة »

ومنها بشارته بالخلافة فقد روى أحمد بسند حسن ان معاوية رضى الله عنه أخذ الاداوة(١) لما اشتكى أبو هريرة وسار بها الى النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يوضئ رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه اليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال يامعاوية ان وليت أمراً فاتق الله واعدل

ولى قيادة الجنود في الشام وثغور الروم فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب (وذلك بعد موت أخيه يزيد الخير الذى كان قائد هذه الجنود فمرض فاستنابه منابه حتى مات فأقره سيدنا عمر بن الخطاب) وناهيك ببصيرته الفاروقية فى الانتقاد والانتقاء لمثل الشام فى ذلك الوقت الملتهبة فيه قلوب أهل البلاد بنار الحقد على جماعة المسلمين إثر الفتوحات الاسلامية والمصاعب المكتنفة بذلك المقام فأقام فيها نحوا من عشرين سنة عاملا لسيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان ثم أضاف اليها مصر ثم تسمى بالخلافة ومكث نحواً من عشرين سنة أخرى خليفة ولم يشك أحد من معاوية رضى الله عنه بل كانت الناس راضية عنه عاملا وهم فى عهد خلافته أرضى .

ومن عجائب فراسته انه قال « ان أهل مكة أخرجوا رسول الله فلا تكون الخلافة فيهم ابداً . وان أهل المدينة قتلوا عثمان فلا تعود الخلافة اليهم أبداً »

مثل اذا شئت معرفة فضل سياسته وشخص ان أردت الوقوف على مقدار مدارك عقله ونبله الموقع الذى صارت اليه الامة الاسلامية

---

(١) الاداوة المطهرة وهي اناء للماء من جلد يردف خلف الراكب وهو مايعبر عنه فى العرف (بالزمزمية)

بعد فتح الشام وثغوره والمقام الحرج الذي صار فيه قائدها وحاكمها وتأمل كيف كان حالها فى نظر أمة الرومان وجمهورية رومة أولا. ثم امبراطوريتها ثانيا. لاعتبارهم اياها أقدس مكان لانها وطن الانبياء. ومكان المعجزات. وميدان الاديان. وبعد فتح مصر التى أقل وصف لها ماقاله الاسكندر المقدونى « ان مصر مركز للعالم بأسره اذا انبعثت منها أنصاف اقطار فانها تمر بجميع الامصار فيسهل على القابض عليها أن يصل منها الى حيث يريد ويختار » لاأشك فى انك تدرك مركز الشرق الاسلامى ازاء هذا الحال. ومركز الغرب إزاءه أيضاً وتعتقد انه من أعسر المواقع واحرجها

أنشأ سيدنا معاوية رضى الله عنه فى سنة ٢٨ وهو عامل الشام فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه اسطولا سافر به في البحر فافتتح جزيرة قبرص وكان في عمله هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حرام. أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن أم حرام (بالفتح) بنت ملحان وكانت خالته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من القيلولة) فى بيتها فاستيقظ وهو يضحك فسألته فقال « عرض علىّ اناس من خيار أمتى يركبون ثبج البحر الاخضر كالملوك على الاسرّة قالت فقلت يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم قال أنت من الاولين » قال فتزوجها عبادة بن الصامت فاخرجها معه فلما جاز البحر ركبت دابة فصرعها. وقال بن الاثير وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدفنت فيها (١) وكان أمير ذلك الجيش سيدنا معاوية

(١) أم حرام لاأم هانيء كما زعم بعضهم (عند ذكر خبر المسجد الذى شيده مولانا السلطان فى قبرص) قالوا على قبر أم هانيء

وأم هانىء لم تهاجر من مكة والدليل على ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابن أبي سفيان وضرب عليها جزية عظيمة

ثم فتح من الجزر إقريطش (كريد) وجزيرة (كوس) وجزيرة (رودس) وجزيرة (ارواده) قرب القسطنطينية ومن البلاد لحد قيسارية (قيصريه)

انظر لعمله رضى الله عنه فى فتح هذه الجزر تجده أدرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول أوروبا فيها الآن وأصبحت تتناطح عليها من أجله وان عمله في ذلك الوقت عمل الحكيم الحليم العاقل الحازم الذى قيل فيه

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

صان كرسى الملك بالابهة والعظمة وجلب اليه القلوب بحسن المجاملة وملكها بجميل المعاملة فهابه العدو وطمع فى كرمه الصديق وجيش المسلمين فى ذلك الوقت لم يصل الى مائة ألف مقاتل وجميعه منتشر فى البلاد من الشام الى أرمينية ومنها الى مصر وغيرها من الجزر القصوى والاراضى التى افتتحت من بلاد العرب الى الصين

كانت الدولة فى عهده بدوية حضرية فكان اجتماعها وتعاونها فى حاجاتها بالمقدار الذى لايورث الرفه والدعة والترف البالغة مبالغها فى عهد المعاش والمسكن فكانت الامة مقبلة على الدنيا بالمقدار الضرورى فقط . محافظة

خطبها بعد هرب زوجها هبيرة الى اليمن وبقائه على كفره حتى مات فقالت له اني مصابة فأخاف أن يؤذوك يارسول الله فاثنى عليها فقال (خير نساء ركبن الابل صوالح نساء قريش احناه على ولد وأرعاه على زوج فى ذات يد) ثم لما نشأ بنوها عرضت نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الآن فلا فقد أنزل الله قوله تعالى (انا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك اللاتي هاجرن معك) فأم هانيء ماهاجرت مع الرسول فضلا عن الذهاب لقبرص

على البعد من الانغماس فى الترف وأسباب الشهوات التى لا توجد دواعيها الا في نهاية العمران والحضارة اللذين هما نهاية الشر والبعد عن الخير

ثم انفرد له الامر فحارب الروم بحرا وغزاهم برا وأغرق من سفن قسطنطين الثانى جزأ عظيما فى خليج (الصيالوق) بسواحل اقليم (ليسيا) من الأناضول فى سفح جبل (فينكس)

ثم زاد فى مقدار اسطوله وسيره فى زمن الربيع حتى بلغ به سواحل مرمرا فنزل غرب القسطنطينية وحاصرها ست سنين يؤخر فى كل سنة (فى تشرين الثانى) الموافق (نوفمبر) أساطيله الى مينا (سيزنقه) التى كان استولى عليها ثم يعود للحصار زمن الربيع

ثم سير جيشه الكثيف وأمر عليه سيدنا سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معه فتثاقل واعتل فأمسك عنه ثم أصاب الناس فى غزاتهم جوع ومرض شديد وسمع عن يزيد بيتين وهما

اذا جلست على الأنماط مرتفقا ... فى دير سمعان حول أم كلثوم

فما أبالى بما لاقت جنودهم ... بالفرقدونة من حمى ومن موم

فعلم انه أراد بتثاقله اتمام لذائذه فاقسم ليلحقن بسفيان بن عوف في أرض الروم ليصيبه ماأصاب الناس وسار وكان فى الجيش سيدنا أبو أيوب الانصاري فاقتتل المسلمون واشتدت الحرب بينهم وتوفى أبو أيوب عند القسطنطينية بالقرب من سورها وهو ممن شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفين مع « على » وغيرها من حروبه

وفى تشديده على يزيد فى اللحاق بالجيش مالا يخفى من انه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ولا يعرف فيه قرابة ولا رحما ولا يصون نفسه ولا أولاده

عن الجهاد فى سبيل الله ومقاسمة المسلمين فيما هم فيه من خير ومن شر ثم استمرت الغزوات براً وبحراً وقواده فيها (بسر بن ارطاه) و (سفيان ابن عوف) و (فضالة بن عبيد الانصارى) و (مالك بن عبد الخثعمى) و (عمرو بن يزيد الجهنى) حتى فتحوا من البلاد فى مدة وجيزة مالو أردنا ذكر خبرها لاستلزم أسفاراً ضخمة

اختصوا بالعناية الالهية فخالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة فلم ينحرفوا عن سنن الاعتدال ولم يغلب الرجل منهم على رأيه غالب. ولم يلفته عنه أدنى الرضا وأدنى السخط . وثقوا من أنفسهم فوثقت بهم الامة وأصبحوا متحدين فى آرائهم غير مختلفى الاهواء

والى هنا يحق للقلم أن يقف دون وصف غرابة هذا المشهد الذى تفاوتت فيه مراتب الهمة والعزيمة الى أعلى مايمكن من منازلها الرائعة . يحق له أن يقف دون العجب من هذا الحال الذى فات سعة العلم وتعدى قوة العقل واصالة الحكم وذهب بكثير من الناس الى ماوراء عجب المحسوسات وعلابهم فوق ماتخيله الافكار . ألا عارف يخبرنى كيف كان ذلك : مقام الخلافة يحفظ . ومعظم جزر البحر المتوسط تؤخذ . وبلاد الى حدود الصين تفتح. والروم تهدد وتحصر وجيش الدولة لايبلغ مائة ألف نفس على الاكثر منتشر فى الجهات كما ذكرنا وعلى فرض اجتماعه فهو جزء من ثمانين من الثمانية ملايين الذين تحت حكومة هولاندا من مسلمي الجاوه الآن فضلا عن بقية الملايين المنتشرة على وجه الارض

مابالهم تعددوا بعد توحدهم وتفرقوا بعد تجمعهم ؟ أين التناصح بالحق والتواصى بالصدق والاعتصام بالصبر ؟ أين الحق الذى فرض على كل مسلم

القيام به لدينه ونفسه وأهله وبلده ووطنه ؟ اللهم اما ان أولئك كانوا ارتقوا عن أفق الانسانية الى عالم سماوى أوتكون هـذه الملايين انحطت عن أفقها الانسانى الى أفق العجماوات !

اذا كان لابد من مذكر بالخير ومشير بالرأى فليحقق لمن هو مطلوب منهم الاصلاح وموكول اليهم أمر الامة وهم المسؤلون عن كل صغيرة وكبيرة تلامسها بين يدى الخالق والمخلوق . ان البدع والتعاليم الفاسدة التى فرطوا فى منعها جعلت المسلمين شيعاً وأذاقت بعضهم بأس بعض حتى صار الكل غرضا لسهام مظالم الاعداء . ولا تزال الامة تزداد تفريقا حتى تزعزعت عقائدها وفسدت آدابها وتجرأت الناس على استباحة المحظورات وأصبح لها أقبح الاثر فى العوائد والاخلاق

ان باب هذه الفتن انما فتح على الأمة بانصراف كبرائها عن الجادة المستقيمة وان الله لمطلع على أحوالهم عالم بما أضاعوه من أمر عباده ولقد كان لهم سوء الأثر فى تضليل هذه العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم فليتقوا الله في هذه الأمة ولتعلم هى انها أسرفت على نفسها وان هى أفاقت أسفت كل الأسف على مافرطت وندمت وان كان الندم لاينفعها على مافات فربما ينبهها الى ماهو آت

هذا بعض الشئ من هذه السيرة الجليلة سيرة هذا الفاتح وأصحابه ورجال دولته الذين جمعوا أمرهم بعد الشقاق عسانا نتعظ بها فنلم شعث الفرقة . وقد نبع قوم ينتقصون فعله وينالون منه وهم أقل من ان يعدوا فى مصاف الرجال (وإن يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه) ولكن أهل السنة جميعاً على حب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ودفع التأثيم عنهم كالشأن في المجاهدين لان

الله امتن عليهم بمنة لم يشاركهم فيها أحد وهى حلول نظر رسول الله صلي الله عليه وسلم فيهم وامداده لهم بما قطع غيرهم من اللحوق بهم فى باهر فعلهم وكمالهم وعظيم استعدادهم وسعة علومهم وحقيقة شرفهم فاللهم ارض عنهم واحشرنا معهم واجزنا بمحبتهم خيراً واهدنا لبعض عملهم هذا . آمين يارب العالمين

الوليد بن عبدالملك

هو الوليد بن عبدالملك بن مروان ابن الحكم بن أبى العاصى بن أمية ابن عبدشمس بن عبدمناف أبوالعباس الاموى بويع له بعهد أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ثانى الخلفاء المروانيين

أى بلادفتحت وأى مساجد عمرت وأى آيةللحضارة والعمران ظهرت في عهد هـذا الخليفة المجاهد المقـدام الفاتح أبى الايامى وثمـال اليتامى وملجأ العجزة والمساكين الذى شرح القلوب المحزونة ببره وفتح البلاد المستحكمة بسـيفه وعدله شبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فعـله وفتحه وانتشار الاسلام بفضله حتى قالوا وأيامه كايامه

كأنما كان فى فعله متحريا مكان الوجدان من القلوب ومقر التصديق من العقول . لذلك تجد الذى عمره من المساجد وشـيده من مواضع العبادة من أنفس مايتقـرب به الى الله العامل العابد . وما فتحه من البـلاد والممالك من أشرف مايفتخـر به الانسان الفاتح القائد . فتراه مثلا يجـدد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المشرق ويفتح الاندلس للمسلمين بالمغرب . ان ذلك لمن أعظم نتائج الفطنة وثمرة العقل . ولذلك كان عصره من أرقى العصور مدنية وأغزرها فتحاً واتساعا وعمرانا وأجلها عظمة وأبهة لاشتراك الامة فى أعمال الخير وانصرافها في سبيل المجد والاجتهاد وتوجه سعيها فى التغلب على الغير والذب عن الحوزة

ولى الخلافة فى أواخر سنة ست وثمانين كما قدمنا فما دخلت سنة سبع وثمانين عليه الا وهو مقسم أوقاتها بالفكر والخيال جاعل أيامها وساعاتها ينابيع

سعادة ووسائل ارتقاء

بدأ بتعيين عماله فى البلاد التابعة للخلافة الاسلامية بانتقاء وانتقاد يفوقان حد الوصف ويتعديان موضع التحرى وحسبك انتقاء مثل سيدنا عمر بن عبدالعزيز أميراً على مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد جمع بين المسجد وحمامته وخلى بين الخطيب ومنبره

ثم شرع فى بناء جامع دمشق الذى هو احدي عجائب الدنيا جمع فيه مائة الف ماهر من الصناع وحمل اليه أربعين حملا من الفسيفساء هدية من ملك الروم ثم أتت وفوده لمشاهدته فصرعتهم عظمته واستفزتهم أبهته وناهيك بهيبة مكان سلاسل قناديله من اللجين المسبوك . ثم كتب للجهات بتوسيع المساجد وبنائها فكتب بادخال حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده وتوسعته بمائتى ذراع وهكذا جدد المسجد الحرام ومسجد قبا ومسجد مصر

ثم والى الفتوح وسير قتيبة بن مسلم الباهلى من أكابر قواده ففتح خوارزم وسمرقند وسردينيا

ثم دخلت سنة ثمان وثمانون فجهز مسلمة أخاه والعباس ابنه لغزو الروم فجمعت خمسون ألفا فلما التقى العسكران غلبت الروم وفتحت بلاد كثيرة من مملكتها

وفى سنة تسع وثمانين فتحت جزيرتا (منورقه) و (ميورقه) من جزر بحر الروم شرق الاندلس . وفى سنة تسعين فتح عسكر الاسلام (نسف) ومدائن أخرى وحصونا من أذربيجان كثيرة وفتح محمد بن مروان جهة دربند (١) وحصونه ودان له ماوراء باب الابواب (١) وفتح الحجاج

---

(١) راجع دائرة المعارف وجغرافية ملطبرون فى الكلام على هذين الموضعين نجد مايدل علي ان دربند أو باب الابواب هو سد ذى القرنين عليه السلام

بخاري ووصل محمد بن القاسم لارض الهند ودخل قتيبة (قشغر) اول مدن الصين وافتتحها بعد حرب عوان لاقي فيها ابن أخت ملك الصين فى مائتى ألف مقاتل

ثم دخلت سنة اثنين وتسعين وكان موسى بن نصير أمير المغرب وعامله على افريقية وكان استنزل يوليانوس لطاعة المسلمين بعد حروب كثيرة وعرف منه السبيل لفتح الاندلس فارسل خيرة القواد طارق بن زياد الليثى لفتحها فجاز طارق البحر فى (٣٠٠) فارس من العرب واحتشد معهم من البربر نحوا من عشرة آلاف وصيرهما عسكرين ترأس على أحدهما ونزل به جبل الفتح الذي سمى باسمه . والآخر رأس عليه طريف بن مالك النخعى فلقيهم رودريك فى نحو من أربعين ألف فارس فهزموه وافتتحوا البلاد وغلبوهم على ما بأيديهم مع كثرتهم وقوتهم لانهم مقبلون بقلوبهم متحدون بوجهتهم

فلما بلغ خبر هذا الانتصار موسى بن نصير استخلف على القيروان ولده عبد الله ونهض فى سنة ثلاث وتسعين فى عسكر عظيم ودخل الاندلس وأتم الفتح الى برشلونه فى الشرق وأربونه فى الجوف وصنم قادس فى الغرب

أصبحت الاندلس وهى المملكة المعدودة فى الرتبة السادسة بين الممالك الاوروباوية داخلة تحت حكم مملكة العرب وجناح الاسلام يرف فوقها غربا وفوق قارة اسيا شرقا

انظر لعزيمة هذا الفاتح الجليل ومضاعفة الدين واليقين لقوته . أجمع رأيه أن يأتى الى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام خائضا ما بينهما من أمم الفرنجة والاعاجم وغيرهم يعنى انه يخترق مملكة فرنسا من شمالها فيدخل فيها ثم يعرج من غرب أرض سويسره أو مملكة جرمانيا ثم يدخل في مملكة

استوريا ثم الى الروملى الى القسطنطينية الى الاناضول فدمشق أوما حوالى ذلك . وكاد يكون ذلك لولا حرص الوليد على جماعة المسلمين وقلقه عليهم وموالاة كتبه لموسى بن نصير بالعودة ولزوم طاعته فقفل راجعا وولى ابنه عبد العزيز عليها وأسكنه قرطبة ومن هنا اتصلت العرب بأراضى الفرنجة وتوغلوا فيها ثم دخلت سنة ثلاثة وتسعين ففتح فيها مدينة أردبيل والكرخ والبيضاء وخوارزم وفتح فى سنة أربع وتسعين كابل وفرغانه والشاش وفتحت أقاصى جهة الباب ومدينة طوس فى سنة خمسة وتسعين

ثم دخلت سنة ست وتسعين التى أراد الله أن يتقلص ظل هذا الخليفة العادل عن الدولة فيها ولا معقب لحكمه ولا رب سواه فقضى رحمه الله بدير مرّان وحمل على أعناق الرجال ودفن بدمشق وتولى دفنه سيدنا عمر بن عبد العزيز فودع الدنيا مصاحفاً لخير أهلها . وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر استقر فيها نصاب الدولة فى مقر عزه من السلطان والقدرة وكمال الفضيلة ولولا ان عاجله الفناء لاقتطع من الممالك الاوروباوية ممالك عظيمة وشيد خلافته ومهد لعصابته ماهو أجل وأفخم مما شاده وبناه وقد رزقه الله حظا فى نفسه وذريته وأهل بيته فولد له من الذكران أربعة عشر ومنهم ولده عمر فحل بنى مروان الذى كان يركب فى ستين من صلبه

اتسعت ممالك الاسلام فى دولته اتساعا لم يعهد له مثيل وجبى من الاموال شيئاً كثيرا وكانت الدولة فى عهده غاية فى الثروة وكان فى بيت ماله ما يكفى الحاجات وذوى الحاجات ستة عشر سنة وحث الناس على الابنية والعمار وبناء الضياع وأصلح الله به وبهم الارض فاحالوا القفار حواضر وتهيأت الامة واستعدت لقبول كل خير وكان مع اتساع هذا الملك وزيادة عمرانه يقظا فى أمر دولته

لا تفوته الذرة ولا تكاد نفوس أعدائه تحدّث سرها بمخالفته وكانت له عيون تطالعه باخبار الناس منبثة فى كافة أرجاء ممالكه ليقفواله على متجددات الاحوال . من ذلك مايحكى ان الهيصم بن جابر أحد الخوارج عليه اختفى وهرب الى المدينة لما أحس بشدة التضييق عليه والطلب له ثم أطال شعره واختضب وغير من شكله وهيئته ودخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ثم بلغ الوليد ان أمره هذا قد أعيى الحجاج فنقب عليه مرة فعلم ان الرجل بالمدينة على الهيئة التى ذكرناها فكتب الى عثمان بن حيان بالمدينة ينبئه بأن الرجل عنده ويصف له من أمره وحاله ماهو عليه فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس فنظر اليه رجل كان بجانبه وقال له ما أنا بمخليك وقبض عليه وأتى به عثمان ابن حيان وأقر أنه الهيصم

ومن فضائله انه كان يختم القرآن فى ثلاث وكان يبر حملته ويقضى عنهم ديونهم وكان محباً للخير محبوباً عند الناس ساهراً على مافيه سمو مقام الخلافة . وهو أول من حمل الطعام الى المساجد

ومن غرر أعماله التى سبق بها من جاء قبله وأتعب بها من جاء بعده انه حبس المجذومين والعميان والزمنى وأجرى لهم الارزاق وبنى لهم البيمارستانات وحشر اليها المرضى وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا وشيد التكايا وجمع فيها المعوزين وقال للمحتاجين لاتسألوا

هو اول من لاحظ أمر الصحة بأشرف معانيه فقطع بين أصحاب العلل والاصحاء ووصل بينهم وبين النعمة والاحسان فمنع تلك الوجوه المحتاجة من الخروج للطلب فى الاسواق وكلف القادر الصحيح بالخدمة والعمل فحقق انصافه بين الرعية بالعدل لان في انزواء المقعد ظهور القادر الذى وفقه

الله للعمل يتميز بعمله منهم ويربأ بنفسه ان يري عالة على الناس . وتناهى فى الاعتناء بأمر الصحة حتى كان من عوائده سؤال الاطباء عن أهوية البلدان ونفعها للامراض فلما سمع منهم ان هواء دمشق ينفع المجذومين أسس هناك بيمارستانا للمجذومين لاتزال آثاره باقية خارج المدينة للآن

وهو اول من وضع المنار في الطرقات وناهيك بهامن نعمة تحقق الأمن العام وتستدعى زيادة العمران

وهو أول من وضع علامة الاميال فى الطرقات مابين المدينة والشام وغيرها ورقم عليها اعداداً ليعلم المسافر القدر الذى قطعه والباقى عليه من سفره

وهو أول من حفر الآبار من الشام للمدينة ومن المدينة لمكة يشرب منها الوارد والمتردد

أفلا ينبغى لنا ان نذكره بالخير اذا رأينا الآن اهتمام الممالك والجمعيات بأمر الصحة العمومية وجمع الاعانات لها وعجزهم على كثرة مواردهم عن القيام بما كان قائماً به الوليد

أفلا ينبغى أن نذكره بالخير اذا رأينا الآن عدد الكيلومترات على جانبى السكة الحديدية وهى العلامات التى كان هو أول من وضعها بالفوائد التى بيناها ولضبط مواقع الوقائع من خير أو شر . نعم ينبغى لنا ذلك لنعرف للمبتكر حقه فى الفضيلة وللمخترع قدره فى الاحسان. وبالجملة فقد كانت الدولة والأمة فى مدته آية فى العمران والحضارة وتشييد مواطن الخير والبر والاحسان فلا تجد بقعة الا وفيها شئ من ذلك

كثرت فى عهده الخيرات ولم يعهد عليه فيها شئ من أبواب الظلامات كتسخير الرعايا بغير حق أو اغتصاب شئ من معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم

ولم يدخل الضرر على أحد بانتقاص عمرانه أو تخريب جداره لغاية له . ولم يتسلط على أموال الناس بشراء مابين أيديهم بأبخس الاثمان ولم يجنح الى المكوس وزيادتها والتناهى فيها للحد الذي لايجيزه دين ولا شرع ولاعقل ولاطبع كما رأيناه وسمعنا به . وهذا مصداق ماقاله الموبذان (ابهرام) ملك الفرس من ان الملك لايتم عزه الابالشريعة وهى بحبوحة العدل والخوف من الله وهو رأس الحكمة (لأنه لاشئ بعد القيام لطاعة الله والتصرف تحت أمره ونهيه) ثم لاقوام بالشريعة الابالملك ولاعزّ للملك الابالرجال ولاقوام للرجال الا بالمال ولاسبيل للمال الابالعمارة ولاسبيل للعمارة الابالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الله وجعل الملوك قيمة عليه

هذا حال الدولة وهى فى نشأة الحياة تسرى روح العدل فيها من السلطان الي أهله الى حاميته الى جنده الى أمته الى جميع رعيته بالتشبه والاقتداء فتجد الكل سواء فى الملابس والشارات والعوائد والاخلاق والاحوال والتماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت وهذا معنى قولهم «الناس على دين ملوكهم» لان الملك غالب والرعية مقتدون لاعتقادهم الكمال فيه . أما حالها وقد صارت الى غير ذلك فالتكاسل والاستعباد حتى تصبح الامة عالة على غيرها ويقصر الأمل فيها ويضعف الاعتمار ببطلان النشاط واختلال القوى وتتلاشى المكاسب والمساعى لعجز الناس عن المدافعة عن أنفسهم وعما فى حوزتهم وتنقبض الايدى عن العمل فيصبح طعمة لكل آكل ثم يذهب ماللملك من الابهة والجمال وتغشى الناس أخلاق الحقد والحسد فاذا تم ذلك والعياذ بالله عمت النكبات والمصادرات وضعفت الشوكة الخارجة وأصبح سهم القدرة لايتعدي الامة وأصبحت هى معرضة للهلاك والله أعلم

سليمان بن عبد الملك

هو سليمان بن عبد الملك أبو أيوب من خيار خلفاء بني مروان . ولي الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه في جمادي الآخرة سنة ست وتسعين . وتوفي في سنة تسع وتسعين . فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر . بدابق . بين حلب وعنتاب . كان طويلا جميلا فصيحا لسناً أديباً متورعا عن الدماء مؤثرا للعدل محباً للغزو . روي قليلا عن أبيه وعبد الرحمن بن هبيرة وروى عنه ابنه عبد الواحد والزهري . كان حسن السيرة يرجع الى دين وصحبة للحق واتباع للقرآن واظهار للشرائع الاسلامية . وهو أسخى بني أمية وبني مروان بالدرهم والدينار

استكتب يزيد بن المهلب والفضل بن المهلب وعبد العزيز بن الحارث ابن الحكم . وكان خطيباً فمن خطبه الموجزة :

« أيها الناس اتخذوا كتاب الله اماماً وارضوا به حكما واجعلوه لكم قائدا فانه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده »

كان وزيره سيدنا عمر بن عبد العزيز صفوة أهل زمانه فكان يمتثل أوامره في كل خير وكلها خير فأصبح جميع ماأسرف فيه الحجاج منسوخا : عزل عماله وأخرج من كان في سجن العراق ورد المنفيين وأحي الصلاة لأول وقتها . ثم استخلف عنه سيدنا عمر ففتح أعماله بخير وختمها بخير فسموه مفتاح الخير

لم يقصر في مدته على قلتها من التوسعة على المسلمين بل كانت أيامه ذات فتوح متوالية وكان غيوراً شديد الغيرة فامتدت الدولة في مدته الى آخر بلاد

الأندلس واستتب له الأمر فيها وفتحت مدن الصقالبة . وحصن الحديد وسردا . وشفا . وجرجان . وطبرستان . وناهيك بهما وهما مما أعيي سابور ذا الأكتاف وكسرى قباذ . وكسرى بن هرمز . بل مما أعيي عمر وعثمان ومن بعدهما من خلفاء الله تعالى رضى الله عنهم

كانت الطريق قبل فتح جرجان مخوفة يتوسطها الاشقياء فيقطعون السابلة ويفسدون فى الأرض . فكان بهذا الفتح إسبال ستر الأمان على كل قاصد لتلك الجهات للانتفاع من خيراتها التى كانت محجوبة بيد هؤلاء الاشقياء

حج بالناس سنة سبع وتسعين ومعه سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ففرض لأهل المدينة أربعة آلاف فرض لقريش خاصة ليس فيهم حليف ولا مولى . فدخل جماعة من قريش عليه وقالوا له : انا جعلنا ذلك لموالينا . ففرض سليمان أربعة آلاف أخرى

ثم بعد قضاء الفريضة على أكمل أوجهها عاد الى مقر خلافته وندب أخاه مسلمة وقطع معه البعوث على أجناد الشام والجزيرة وجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك من أدوات زمانه . وعقد له على الجيش برا وبحرا وخرج معهم بهيئة الخلافة وهيبتها ومعه جماعة من الفقهاء حتى نزل «دابق» وجاءته الاجناد من كل ناحية فأتم أمر الجيش

رحل « مسلمة » أخوه بالجيش فسلك طريق مرعش وافتتح مدينة الصقالبة كما ذكرنا وشتا حواليها ثم سار لطلب القسطنطينية حتى نزل عمورية وبطريقها « ليون » بن قسطنطين المرعشى فوادعه مسلمة وأعطاه رهنا وأخذ منه مثله وتعاهدا على المناصحة والمظاهرة على أهل القسطنطينية وحلف « ليون » أن يكون عوناً له . ثم أخذ ينتقل به الحال حتى دخل القسطنطينية و « تيدوس »

حاكم عليها فما زال يلعب بكرة الأروام مرة وبصولجان المسلمين أخرى حتى دس لتيدوس من قتله وتفرد بالملك من غير منازع . ثم غدر بمسلمة ونقض عهده وأغراه بحرق ذخيرته فى كلام طويل يطلب فى مظانه من كتب التاريخ (١) ولاقت المسلمون من الأذى والشدة مالم يلقه أحد وأكلوا الدواب والجلود وابلوا فى سبيل الله بلاء حسنا . وكل ذلك سببه سلامة النية وصدق الوعد والبقاء على العهد ولا حول ولا

كل خليل كنت خاللته ماترك الله له واضحه
فكلهم أروغ من ثعلب ماأشبه الليلة بالبارحه

هذا وسليمان مقيم بدابق لايقدر على إمدادهم بشئ من الازواد لكثرة البرد والثلج الذى قطع بينه وبين جيشه العظيم الذي يبلغ نحوا من مائة الف مقاتل وقواده ابنه داود ومسلمة بن عبد الملك أخوه وجماعة من اهل بيته وعمر بن هبيرة

مرض بالحمي فأقسم أن لايعود الى مقر خلافته حتى يأتيه خبر فتح القسطنطينية أو يموت حيث هو . فلما اشتد عليه المرض سأل « رجاء بن حيوه » - وكان وزير صدق لبنى أمية - فى أمر العهد فقال له « ان مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين من بعده الرجل الصالح » قال « كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟ » فقال « أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما » فقال « هو والله على ذلك » وأشار على « رجاء » أن يجعل يزيد بن عبد الملك أخاه ولى العهد بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز فكتب كتابا وختم عليه ودعا الناس الى بيعته مختوما وقال له « اخرج الى الناس فليبايعوا على مافيه » فبايعوا . ثم مات

(١) راجع ان شئت نبذة من عيون الحقائق مطبوعة فى ليدن تجد هذا مفصلا

سليمان وفتح الكتاب فاذا فيه العهد لسيدنا عمر بن عبد العزيز . فتغيرت وجوه بنى أمية ثم لما سمعوا بعده اسم يزيد بن عبد الملك أخيه تراجعوا فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة

اللهم لا زراية(١) على السابق ولا تذرية(٢) للاحق . ولكنها فعلة فاتت الجميع حتى الولى والوصى . فلم يعهد فى جاهلية ولا اسلام عهد عهد رعاية للورع والصلاح والاهتمام بأمر المسلمين أجل من هذا

لم يمت سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه عن غير عقب بل عن أربعة عشر ولداً من الذكور منهم داود قائد جيشه فى حرب القسطنطينية وغيرها ولا عن غير قرابة . فاخوانه كثيرون ومنهم مسلمة الذي أبلى فى حروبه وفى حصار القسطنطينية وغيرها فى عهده وعهد الوليد أخيه بلاء حسناً . ولكن رأى ان حقوق هؤلاء من جهة لحمة نسبهم به وقرابتهم اليه أقل من حق جماعة المسلمين الذى جعله الله فى عنقه فسلم الخلافة لخير أهل زمنه فخرج من عهدتها طاهر الذيل . وناهيك بكلمات وزيره « رجاء بن حيوه » معه فى هذا الموقف الحرج

يدلنا هذا الحال على ان العلماء فى كل زمن هم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الامة فصلاح حالها بصلاحهم وفساده بفسادهم ولقد ابتلى الله المسلمين فى أزمنتهم الاخيرة ببعض علماء لا يعرفون من دنياهم شيئاً الا نصب هيا كل الاطراء ورفع تماثيل المدح لكل رئيس من الروساء وعظيم من العظماء فضلا عن خليفة من الخلفاء

---

(١) زرى عليه زريا وزراية عابه

(٢) ذريته تذرية مدحته

فسدت أخلاق العامة بالزور والرياء والنفاق والكذب والمحاباة والمصانعة والمداجاة بل تزعزع اعتقادهم بسبب ذلك وأخذوا ينتصرون لهوى نفوسهم الخبيثة واهوائهم الباطلة والعلماء لايصدونهم عن هذا بشرح الحقائق والترجمة عن السجايا الجميلة والاخلاق المرضية

سأل سليمان بن عبدالملك رضى الله عنه « أباحازم » وكان زاهداً فقال له « كيف القدوم على الله تعالى ؟ » قال « أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسروراً وأما المسئ فكالعبد الآبق يعود الى مولاه محزونا » قال سليمان « فما بالنا نكره الموت ؟ » قال « لانكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم النقلة من العمارة للخراب »

ياغوثاه من هذه الكلمات !!! كيف تقال فى وجه خليفة جمعت خلافته بين أوصال المشرق والمغرب وتحت رايته الجيوش الجرارة وآلات الحرب والضرب وأمره نافذ في قارتى آسيا ومعظم أوروبا وما بينهما . فان لم يكن هذا الزاهد من خير علماء الآخرة إذ قالها وهذا الخليفة من خير خلفاء الدنيا إذ اتعظ بها فمن ؟

ومازالت الدول الأوروبية المتمدنة توحى للمسلمين بتمدنها حتى اعتقدوا كما برهنت لهم ان الدين حائل دون الارتقاء وقيد ثقيل لا يمكن الانسان من الوثوب الى معالى الأمور ثم سلكت بهم سبيل الترقى والسيادة الذى هدتهم اليه وملكتهم مقاليد العز والسعادة التى مكنت يدهم منها ولم تمض الايام وتتصرم الليالى حتى انكشف السر وظهر الصبح لذي عينين ورأوا أنفسهم يرسفون فى قيود الذل وان تلك الامم المتمدنة كانت ترمى لغرض آخر تفننت فيه بحسب اطماعها وليس الغرض منه الا ترك هذه الشعوب لآداب

دينهم وعوائدهم وتقاليدهم وادخالهم مضايق دون الاستصباح لها حتى يمسون ويصبحون مضغة للاكل . وكان كذلك

ألا نظرة صادقة من هذه الأمة المسكينة لما كانت فيه ونظرة لما صارت اليه لتعلم انها مخدوعة فيما يبهج الناس منظره ويسر القوم رؤياه فتنتبه لمصابها وتعلم بعلتها فلا تحيد عن الهدى الصحيح والطريق المستقيم حتى تخرج من درك الشقاء ولا تنتهي الى شر المصير

انما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعي

سيدنا عمر بن عبد العزيز

ماذا تسع هذه العجالة من وصف هذا الخليفة العالم الورع الزاهد الخاشع الدين الليّن السهل القريب الذي ملأ الارض عدلا وجاء مصداقا للخبر المأثور : « ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »

ماذا تسع من وصف من أفرد أكابر المؤلفين المؤلفات في أخلاقه وصفته وفضائله وخصائصه وضرب المثل بعدله وشاكل بفعله الجميل أفعال سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حتى قيل : « عدل العمرين »

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الاموى . وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو التابعى الجليل الذي روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن أبي طالب وسعيد بن المسيب والسائب بن زيد ويوسف بن عبد الله وخلائق كثيرين

ولد بحلوان المعروفة (من قرى مصر) سنة احدى وستين وكان يقال له أشج بنى مروان : ضربته دابة فى جبهته وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : « ان كنت أشج بنى مروان انك لسعيد » قال ذلك لان سيدنا عمر ابن الخطاب كان يقول : « من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الارض عدلا »

ولى الخلافة وبويع له يوم مات ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين عن عهد منه اليه (كما قدمنا في ترجمته) من غير علم منه فظهرت

عليه علامات الاستياء من ذلك . قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم . ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ ولست بمبتدع ولكنى متبع ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملا . وان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »

بدت عليه مخايل الورع والدين والصيانة والزهد والنزاهة من أول حركة بدت منه . كان شديد التنعم والاختيال في مشيته فخرج عن جميع ما كان فيه من ذلك النعيم والمأكل والملبس والمتاع حتى النساء . ورد ما كان لزوجته وهى بنت عمه عبد الملك بن مروان الى بيت المال . وكان دخله أربعين الف دينار فرد ذلك كله وخصص لنفقة يومه درهمين . ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يتعد الواحد فكان اذا غسلوه يمكث حتى يجف . ويأكل الغليظ من الطعام ورد جميع المظالم حتى انه رد فص خاتم كان فى يده قال اعطانيه الوليد من غير حق

حدثت زوجته انه يكون فى الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ويجلس ويبكي وهى تقول : « ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين »

علم الناس انه مؤثر دينه على دنياه فآثروا حبه على نفوسهم . أعرض عن ركوب خيل الخلافة والاجتزاء بمركبه الخاص وهجر مكان حكومتها ولازم بيته وكانت خلافته سنتين ونصفا على الأكثر ازدان دست الخلافة فيهما به

فاذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

لم يكن هذا الزهد والتقشف من الجنس الذي رأيته أنا وأنت عبارة عن لزوم الرجل كسر الحائط وهو غريق فى لعابه خارج عن بعض ثيابه جامد

الفكر لا يتعدى إبصاره موضع قدميه فهو الى منزلة البله والعته أقرب . كلا . بل كانت الدنيا عنده في كفة والآخرة فى كفة يزن من هذه لهذه ويزرع فى دنياه مايجزى بخيره في آخرته

كان أول مابادر اليه رضى الله عنه أن بعث الى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك بن مروان يأمره هو ومن معه من المسلمين بأرض الروم بترك حصار القسطنطينية والقفول الى منازلهم لما يعلمه من اشتداد الحال عليهم كما تقدم البيان فى (ترجمة سليمان) وبعث لهم بالطعام الكثير والخيل العتاق

ثم وجه حاتم بن النعمان الباهلى للقتال عن أذربيجان وقد أغير عليها فطرد عنها القوم وأزال عنها الخوف وألبسها لباس الأمن

انظر لعلو رأيه وصائب فكره فى عمله وخبرته برجاله : ولى عدى بن ارطاة الفزاري على إمرة البصرة وناهيك به . واستقضى عليها الحسن البصرى رضى الله عنه فاستعفاه فأعفاه واستقضى مكانه اياس بن معاوية الذكى المشهور والالمعي الذى يظن بك الظ ن كأن قد رأى وقد سمعا

وبعث على إمرة الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. واستقضى عليها عامر الشعبي وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خال بن أسيد . وعلى امرة المدينة أبا بكر محمداً بن عمرو بن حزم

وقد حج بالناس . وأرسل الوليد بن هشام المعيطى وعمر بن قيس الكندى للغزو . وولى عمر بن هبيرة نيابة الجزيرة . ثم أخذ فى فحص الاعمال فناقش اليزيد بن المهلب الحساب وحبسه لانه طالبه بما قبله من الاموال التى كتب الى سليمان بن عبد الملك انها حاصلة عنده فقال انما كتبت بذلك

لأرهب الاعداء ولم يكن بيني وبين سليمان شئ . فغضب عمر لضياع مال المسلمين ثم أمر بأن يلبس جبة من صوف وينفى الى جزيرة دهلك التى كان ينفى اليها الفساق ثم شفع فيه فبقى فى سجنه . وعزل الجراح بن عبد الله الحكمي عن امرة خراسان بعد ستة أشهر أو خمسة لانه أخذ الجزية ممن أسلم من الكفار وكان يقول لهم أنتم انما تسلمون فراراً منها (حبذا العدل والفضل)

ثم دخلت سنة واحد ومائة وكانت بدأت الدعوة لبنى العباس فبقى فى مقر الخلافة وحج بالناس أبو بكر محمد بن محمد نائب المدينة واشتغل سيدنا عمر رضى الله عنه بتبريد البريد من والى المدينة والشام

وفى هذه السنة مات كثير من الصحابة والتابعين لاتحاد ساعات آجالهم وتقارب أعمارهم نذكر منهم الصحابى الجليل سيدنا الليثى الكنانى وهو آخر من رأى النبى صلى الله عليه وسلم ورآه بالاجماع . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يستلم الركن بالمحجنة . وذكر صفته عليه السلام. وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً بالاجماع فى جميع الارض . اجتمع عنده مائة ألف أسير من الروم فساوم دولتهم على ردهم وأخذ « ملاطيه » وما زال حتى أقنعها واشترى هذه المدينة بهؤلاء الاسارى وبناها وأصبحت من المدن المهمة

وفضائل عمر كثيرة أعظم من أن تحصى وتستقصى . فمنها انه أبطل الكلام فى على رضى الله عنه وقرأ على المنبر (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) واستمرت الخطباء على قراءة هذه الآية . ومنها انه جمع القرآن وهو غلام صغير . قال الزبير بن بكار ان أول ما استبين من حرصه على العلم ورغبته فى

الادب انه طلب من أبيه رحلته الى المدينة وقعد الى مشايخ قريش وتجنب شبانهم فتأدب بأدبهم واشتهر ذكره فلما مات أبوه أخذه عمه عبدالملك بن مروان نخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة (١)

قال عمر بن ذر: لما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبدالملك قال له مولاه. مالى أراك مغتما؟ قال لمثل ما أنا فيه فليغتم. ليس أحد من الامة الا أنا أريد ان أوصل اليه حقه غير كاتب الى فيه ولا طالبه منى

ولا عجب في ذلك. فانه كان يتفكر فى الفقير الجائع. والمريض الضائع. والعارى المجهود. والمظلوم المقهور. والغريب الاسير. والشيخ الكبير. وذوى العيال الكثير والمال القليل. وهم في أقطار الارض وأطراف البلاد ويعلم ان الله سائله عنهم

كان لاتأخذه فى الحق لومة لائم. دخلت عنده أشراف بنى أمية يسألون لهم عملا. فقال لهم أتحبون ان أولى كل رجل منكم جندا: ترون بساطى هذا؟ انى لاعلم انه صائر الى فناء وبلاء وانى أكره ان تدنسوه بأرجلكم فكيف أوليكم دينى!! أوليكم أعراض المسلمين!! هيهات!!! فقالوا مالنا قرابة؟ أمالنا حق؟ قال ماأنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الامر الاسواء!!

---

(١) نبذة تاريخية. فاطمة هذه بنت خليفة وجدها خليفة وأخوها خليفة وزوجها خليفة وأغرب منها أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وأم ابنه يزيد. أبوها خليفة وهو يزيد وجدها خليفة وهو معاوية وأخوها خليفة وهو معاوية بن يزيد وزوجها خليفة وهو عبد الملك وعمها خليفة وهو مروان وابنها خليفة وهو يزيد وابن ابنها خليفة وهو الوليد بن يزيد وأولاد زوجها خلفاء وهم الوليد وسليمان وهشام ويزيد أولاد عبد الملك وكل هؤلاء محارم

كان محبا للعدل والقسط يبغض الجور والعسف . لا يرى عنده شيء أفضل من الحق . ومن كلامه : « ان كانت الناس لا يصلحها الحق فلا أصلحهم الله » وكان يقول « عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم لا على قدر أجسادهم » . بلغ بالناس أن يقولوا « ان الغنم والاسد والوحوش كانت ترعى مع بعضها فى مرعى واحد فى عهده »

كتب اليه الجراح بن عبدالله « ان أهل خراسان قوم ساءت أخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى ذلك فعل ورأيه الموفق » فكتب اليه عمر « امابعد فقد بلغني كتابك تذكر به ان أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام »

كان أشد الناس حرصاً على العمل بسنن من قبله من الاصحاب . قال الزهرى : كتب عمر بن عبد العزيز الى سالم بن عبدالله يكتب له بسيرة عمر ابن الخطاب فى الصدقات . فكتب اليه بالذى سأل ثم كتب اليه « انك ان عملت بمثل عمر فى زمانه ورجاله في مثل زمانك ورجالك كنت عندالله خيراً من عمر »

يزعم الاوروبيون ان الشرقيين يعاملون من حكامهم معاملة الانعام البهم لا يقوّمون الا بالسياط وانهم هم الذين رفعوا عنهم سوط العذاب وأدنوهم من شرعة العدالة وكشفوا عن عقولهم غمة الوهم . ألا إنّ هذه الدعوى مما تستخزى النفوس بعد ان اجتث الدين الاسلامى كل جذور الجهل وأخرج الآخذين به عن كل عقيدة باطلة ودعا الناس الى أصول الفضائل التى أتى عليها وأمهات المحامد التى أحياها وقواعد العدل التى أسسها وسد ينبوع الفساد

وقطع ذرائع كل محرم . فهذا عدل خليفة من خلفاء الاسلام على رأس القرن الثانى من الهجرة . كانت أوروبا فيه فى قطع من الظلمات فى كل شئ فان لم ينفرد المسلمون بسوى السابقية فى العدل لكفاهم فضلا

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ماصليت وراء امام قط أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى حين كان على المدينة . قالوا كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقراءة

وكان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو أول من سمى حمامة المسجد) لايأتى أحدا من الخلفاء وكان يأتى الى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة . قال مجاهد أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتي تعلمنا منه . قال ميمون بن مهران كانت العلماء عند عمر بن عبدالعزيز تلامذة وهو معلم العلماء . قال سيدنا سفيان الثوري رضى الله عنه : الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهم . وأجمع العلماء قاطبة على انه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والائمة المهديين وقال مالك بن زياد : يقولون : « مالك زاهد ! مالك زاهد ! أى زهد عندى؟ انما الزاهد عمر ! أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها » ومن عجائبه مايروى انه وقف على راهب فقال له عظنى فقال عليك بقول الشاعر

تجرد من الدنيا فانك انما خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

ودخل يوما على امرأته يسألها ان تقرضه درهما يشترى به عنبا فلم يجد عندها . فقالت له أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ قال « هذا الحرمان أيسر من معالجة الاغلال غداً في جهنم »

انظر لحكمته فى سياسته ولتحريه قطع ذرائع الرشوة واستقامة العمال . كان

يوسع على العامل فى نفقته فيعطيه فى الشهر بحسب عمله من مائة دينار الى مائتين الى ثلاثمائة (هذا مال كثير فاننا اذا اعتبرنا الدينار نصف جنيه انكليزى مثلا كانت الثلاثمائة دينار مما تقرب من مرتبات كبار الحكومة المصرية الآن وكانت الحاجات غير الحاجات والضرورات أخف منها فى هذه الاوقات بكثير كما لا يخفى على بصير) ويتأول انهم اذا كانوا فى كفاية تأملوا الاشغال المسلمين وكان يقول فى دعائه « اللهم ان كان عمر ليس بأهل أن ينال رحمتك فرحمتك أهل لان تنال عمر» وكان يقول « اللهم اصلح من كان فيه صلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم »

أما موته فقد قيل فيه أقوال كثيرة (وما آفة الاخبار الا رواتها) فمن ذلك انهم قالوا ان بنى أمية علموا انه اذا امتدت أيامه أخرج الامر عن أيديهم لانه لا يعهد بعهده الا لمن يصلح الامر فعاجلوه

قيل ان مولاه دس له سما في طعام أو شراب وأخذ ألف دينار فمرض فأخبر انه مسموم ثم استدعى مولاه وقال له ما حملك على ما صنعت فقال ألف دينار فقال هاتها فأحضرها ووضعها فى بيت المال وقال لمولاه اذهب فلا يراك أحد

قيل له هؤلاء بنوك (وكانوا اثنى عشر) الا توصى لهم بشئ فانهم فقراء. قال ان ولي الله الذى لا إله الا هو وهو يتولى الصالحين والله لا أعطيهم حق أحد. وهم بين رجلين: اما صالح فالله يتولى الصالحين وأما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه. ثم استدعى بهم فودعهم وقال لهم هذا الكلام ثم قال انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم

قالوا انه لما احتضر صرف من حوله فخرجوا وجلس مسلمة بن عمه وفاطمة زوجته على الباب فسمعاه يقول «أهلا بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا جان» ثم قرأ « وتلك الدار الآخرة» الآية ثم انخفض الصوت فدخلوا فاذا به قضى رضى الله عنه

هشام بن عبد الملك

هو هشام بن عبد الملك بن مروان ولى الخلافة سنة خمس ومائة لما مات أخوه يزيد بن عبد الملك بعهد منه . كان بالرصافة فجاءته بشرى الخلافة على البريد فركب من ساعته وسار الى دمشق وبويع فيها بالخلافة وكان متنعما . قالوا لم يكن فى بني مروان أعطر ولا ألبس من هشام . يقال انه خرج حاجا فتحملوا ثيابه على ستمائة جمل

كان محبا للعمران . مستجدا فى أدوات الزينة . متناهياً فى تربية الخيل . متباهياً بها وهو الذي أقام الحلبة وجمع فيها أربعة آلاف فرس . قال المسعودى « وذلك مالم يتفق لاحد من الناس لاجاهلية ولا اسلاما »

ولع بجودة السلاح وعدد الحرب ولاماتها . شغف باصطناع الرجال وتقوية الثغور وهو الذي شاد المعاقل صيانة للبلاد واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغيرها رحمة بالعباد

كان حازماً سديد الرأى غزير العقل عالما بالسياسة . قال الهيثم بن عدى والمدائنى وغيرهما ان السواس من بنى أمية ثلاثة : معاوية رضى الله عنه وعبد الملك وهشام

اشتدت فى أيامه الدعوة لبنى العباس وثارت روح العصيان فى الاحزاب المرشحة للخلافة واستعرت حروب أخري وقوى الله المسلمين عليها فانتصروا وغنموا أشياء كثيرة . وفاز عسكر أسد بن عبد الله القسري في غزواته وقتل خاقان الترك ودخل بلاد فرغان وخوقند بعد التعب والنصب والجهد الجهيد وقتل الكثير . وغزا عامله أيضاً نصر بن سيار بلاد « ماوراء النهر » ففتح

وغنم منها خيرا عظيما

فتحت فى أيامه قيصرية الروم بالسيف وغيرها على يد « البطال » الشجاع المشهور وغزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وأرمينيه (بلاد صاحب السرير) ورتب عليه الجزية

تولى الخلافة والفتن ببلاد المغرب على قدم وساق منتشرة فى أرجاء البلاد وكان البربر قتلوا عامله بشر بن صفوان فولى عليها بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ثم رأى انه ليس برجل زمنه فولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيساً نبيلا وأميراً جليلا وخطيباً مصقعا فاستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى

كان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية فتقدم للغزو فى بلاد (الغاله) (١) وانتصر فى غزوات كثيرة رجع منها منصورا غانما وتقدم حتى وصل الى مدينة (بردال) أو (برديل) (٢) بفرانسا ودخل كثير من تلك البلاد فى الاسلام وعزم على فتح بقية بلاد (الغاله) فقطع جبال (البرانات) (٣) وفتح الحصون والمدن وامتدت عساكر الاسلام فى بلاد (اكيتانية) و (بورغونية)

دهم (الغاليين) مادهمهم من هذه الجيوش الجرارة واشتد بهم ماحل بالبلاد من الخراب والدمار فانتخبوا فارسا منهم يقال له (كرلوس) من حاشية

---

(١) الغالة القبائل الاصلية الفرنساوية

(٢) (بردال) هي بوردو الفرنساوية المعروفة

(٣) البرانات هي جبال فى الشمال الشرقي للاندلس معتبرة الآن حداً بين اسبانيا وفرانسا وتعرف بجبال البيرينيه

الملك كان مقداما ذا دهاء وفطنة محبوباً عند أصحابه وهو المسمى في كتب العرب (قارله) وعند الفرنج (شارل مارتيل). جمع الاهالى وأمرهم أن لايعترضوا العرب ولا يعارضوهم ولا يخاطروا بأنفسهم وخطب فيهم خطبة لو وجدت لها من العرب والمسلمين فى ذلك الوقت أذنا صاغية لكانت ثمنا لكل ما خسرته الامة الاسلامية للآن

خطب فى قومه بما معناه: «الرأى عندى ان لاتعترضوا العرب فانهم كالسيل المنحدر يجرف مايصادره وانهم فى اقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم فأصبح الرجل منهم يغني عن كثرة العدد. واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع. فأمهلوهم حتى تمتلئ الايدى من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فاذا كان ذلك فانكم تتمكنون منهم بأيسر مايكون»

كأنما كان منطقه موكلا ببلاء ظهور الفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية واستعان المسلمون على بعضهم ببعض بل على بعضهم بمن يجاورهم من الاعداء

نظر هذا الرجل الحكيم فرأي أن الخصال التى تحيط الامة بالكوارث (كالترف والاسراف والتبذير والانغماس في النعيم الذى أباد الامم والحضارة التى تؤدي الى فقد العادات الشريفة وتعين على الاضطراب وتفريق القوي الجامعة وقطع الصلة وتجديد الخصومات والحسد الذي هو مقام الحدود الحاجزة بين النفوس وبعضها) حائمة بين جيوش العرب وجموع المسلمين فقال اصبروا حتى تتم ويتم له بالحيلة مالم يتم بالحرب والقوة

فلما لم يحترز المسلمون من تدرج خصال السوء بينهم وساروا بحسب

أهوائهم ولم يقتدروا على تقويم المعوج واصلاح الخلل ومداواة العلل والظهور بمظهر الترقى الذى أتوا فيه بالعجب العجاب وثبت له انهم فارقوا أدب الدين فاجأهم هذا القائد بغتة وحاربهم بتفرقهم . باختلاف كلمتهم . بسوء رأيهم . باضاعة حزمهم وحرمة دينهم

جمع شارل جنوده مع ما انضم اليهم من جنود جرمانيا التي باتت مهددة بما وقع لجارتها (فرنسا) وتقابل بجيشه مع العرب بين مدينتى (طوروبواتييه) بغتة فتلاقى الجيشان بل اشتبك الشرق والغرب وتحاربا سبعة أيام انجلت فيها الحال عن هزيمة العرب وقتل عبدالرحمن وانتشر خبر هـذا الانتصار فى كل أوروبا فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب وقطع هـذا الانكسار على العرب فتح فرانسا الذى كانت تفكر فيه زمناً طويلا

فعلت أوروبا مع هذا القائد خلافا لما كان ينبغى أن يعمل مع أمثاله فان انتصاراته كما قال صاحب (ألف ليـله) مما يكتب (بالابر على آماق البصر) ولـكن حالة جهلها فى ذلك الوقت وبلوغها فى الظلم والجهـل مبلغاً لايقـدّر قدّر عليها ان كارلوس هذا صاحب الدهاء والسياسة لم ينل شكراً على عمـله بل حكموا عليه بالهلاك وأهانوا أولاده من بعده لانه استخدم فى هذه الحرب أموال الاساقفة والـكهنة (فتأمل)

(عود) ومن فضائل هشام انه كان لايدخل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون انه قد أخذ من حقه وأعطى منه كل ذى حق

وبنى فى عهـده جامع الزيتونة بتونس وهى دار العـلم بها للآن (أدامه الله كذلك) وهو الذى أقام بها (دار صناعة) (١) لانشاء المراكب الحربية

(١) دار صناعة (أى ترسخانة) المستعملة الآن وهي محرفة من تلك

وتم ذلك وغزت المراكب جزيرة صقلية وضرب على أهلها الجزية

ذهبت جنوده غازية الى الجنوب حتى جاوزوا السوس الاقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة. وهو الذى بنى الرصافة وابتنى فيها قصراً وزاد فى عمرانها وحضارتها

ظهرت فى عهده بدعة الخارجية فى البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب . نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الامم اليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها في طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوي البواعث والاسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم . ولما بلغ الخبر بذلك الى الخليفة هشام عزل عبيد الله عن المغرب وكتب اليه بالقدوم وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألفاً من المقاتلين وبعد قتال شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدي سبا فقامت القيامة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على المغرب والتقى مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الاصنام فهزمهم بعد قتال أبلى فيه بلاء حسنا وكتب الى الخليفة بذلك ففرح فرحا شديدا ثم ولى حنظلة بن الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبله واليا على الاندلس فاستقام له بها الامر حينا من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى أن تطرق الخلل الى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان آخر خلفائهم والله أعلم

يرى القارئ أن بلية الامة الاسلامية فى هذا العهد من أبناء جنسها وملتها أشد من بليتها من أعدائها . مؤن الجيوش المقاتلة التى جهزها هشام لقتال

رعاياه الخارجة عليه أكثر مما جهزه لفتح البلاد المناوية له ولا شك ان الاستظهار على الخليفة ومقاتلة جموعه وجيوشه لايكون الا من فساد القلوب والنيات ومفارقة أدب الدين من أمثال هذه العصائب الخارجة

قلنا ولا نزال نقول ان الصبغة الدينية تذهب بالتحاسد والتنافس وتفرد الوجهة الى الحق والاستبصار بالامور والتساوى في الطلب والاستمانة على العهد . تفنى في جانبها الاغراض المتباينة ويمحق الباطل ويخذل وذلك من شدة تقوي القلوب وسلامة الصدور ونقاوتها . ولذلك لم يقف للعرب فى أول أمرهم أحد ولم يغلبوا على مابأيديهم لان الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم

لاتجد ضعفا فى دولة الاسلام الا وسببه فساد العقيدة . يدخل هذا الفساد بين العصابة وكان سعيها واحداً فى الذب عن الحوزة بأقصى مرامى العز والصولة فما تلبث الا وقد فشل ريحها ورثمت المذلة والاستعباد ثم يتمادى هذا الطغيان حتى تكثر ألوان الشر والسفسفة وتذهب خلال البر والخير

ان الذي يريد بالملة الاسلامية خيراً لايدعوها لشئ من العمل قبل رجوعها الى أدب الدين فانه علاج لهذه الامراض المزمنة وهو الذى يرد الشئ الى جنسه وصنفه ويخلع عليه مقدار عظمته وقوته فمن لم يؤدبه الشرع لأدبه الله

الامير موسى بن نصير ومولاه الفاتح طارق بن زياد

الأمير موسى بن نصير هو مولى عبدالعزيز عم الوليد بن عبد الملك . كان والده نصير على جيوش معاوية رضى الله عنه ويقال انه بكرى من بكر بن وائل . ويقال انه لخمي

كانت ولادته فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويقال انه تجهز مع أم البنين حين ابتنى بها الوليد فأقامت مكانه عنده الى ان بلغ مابلغ برأيه وإقدام مولاه طارق بن زياد

كان موسى بن نصير رجلا عاقلا كريماً شجاعا ورعا تقياً تولى أفريقيا وغزا الغزوات العديدة فلم ينهزم له جيش قط وكان كثير المغنم حتى قالوا لم يسمع في الاسلام بمثل سباياه قط وكان طارق مولاه هماما مدبراً مقداما يحمل على مناويه برويته وتدبيره فيفل من عزمه ويبيد من قوته

هما من أشد قوادم أجنحة دولة بنى أمية التى طارت بها الى الفتوحات العظيمة شرقا وغربا يليق بهما أن يشاطرا الخلفاء (الوليد وسليمان وهشام) الشهرة ورفعة الصيت والتقدم العصرى . فانما الدولة برجالها

هما هما اللذان امتدت بعنايتهما سطوة الاسلام فى أفريقيا وشهرته فى المغرب . وفيما فتح الله من بلاد الاندلس يكفى للدلالة على فضلهما

ان الامير موسى بن نصير ماولى أفريقية فى سنة سبع وثمانين حتى أخذ في رتق الفتق ولم الشعث وأصبح ماخلف مصر الى البحر المحيط بين برّى البربر والاندلس تحت تحدثه ينظم أحوالها ويؤسس نظامها ويقيم قسطاس العدل بين أهلها وينير نبراس الحق فيها حتى أحبه الناس وآثروه على أرواحهم وافتدوه بها

وان طارق بن زياد بني بفتوحه لخليفته من المجد المشيد والذكر المخلد مالا يبلغه الليل والنهار ولاتعفى جديده الاعصار

جمعنا سيرتهما فى هذه السطور من غير افراد لانه لاتفترق يمين عن شمال وإن كنا ألمعنا بشئ من تاريخهما فيما سبق من ذكر خلفائهما

تقدم الامير موسى بن نصير الى مدينة سبته بعد تمهيده الامر مع صاحبها (جوليان) الغوطى فصانعه بالهدايا حتى أذعنه للجزية ثم أقره عليها واسترهن ابنه وابناء قومه على الطاعة فمارأى بقية البربر ذلك حتى استأمنوا جميعاً لموسى فقبل منهم

ثم نظر نظرة فى أمر بلاد الاندلس فأدرك عظمتها وفكر في فتحها وأومأ به الى مولاه طارق بن زياد فماهو الا ان خاضها بالسرايا وعلم عوراتها وفروج ثغورها وتعاريج شطوطها وطالعه بها فجهزه وأمره بفتحها فعبر الاندلس بثلاثمائة عربى واثنى عشر ألفاً من البربر من سبتة الى الجزيرة الخضراء فجمع « رودريك » أكابر دولته وشاورهم واستقر رأى القوم على محاربة العرب فلاقوهم فى مائة ألف نفس فهزموهم ودخلوا البلاد

يقول قوم ان السبب فى هذا الانتصار حقد (جوليان) الغوطى صاحب سبتة على (رودريك) ملك الغوط لانه غشى ابنة له على غير حل مستكرها لها غير ان هذا لايقوله عارف بالخبر . والغالب ان هذه الدعوى فرية مفتر لان فتوحات العرب توالت وتعددت ولا يمكن ان يحتمل الكل فتح جليل فتح جميل . وماذا الذى يظن القائل بهذه الفرية ان يبلغه (جوليان) بالعرب من الخير أوالشر ؟ هب انه بين لهم مداخل عدوهم وأرشدهم الى مكامنه وأظهر لهم عورات جيشه فماذا يفيدهم والعرب عشرة آلاف نفس تقابل

مائة ألف أو يزيدون وهم في بلادهم يصدون عدوهم عنهم

ان الذى بلغ بأمة العرب مابلغ هو اليأس الذي يدفع الانسان الى كل عمل كما فى هذه الحادثة . أو شدة الاستمساك بالدين والتحقق مما ادخره الله للمجاهدين كما وقع فى حرب فارس وملوك الهند وخاقانات الترك وغيرهم من الاقاصرة والاكاسرة الذين هم أشد منها بأسا وأكثر عدداً

ان اليأس من أشد العوامل في النفس حتى قال حكيم من حكماء اليونان « اذا كان لك عدو فلا تيئسه لانه يفعل بك مايشاء »

رأى طارق بن زياد جيوش « رودريك » وانتظامهم وحسن ملابسهم وكمال عدتهم ووفرة عددهم وجودة سلاحهم وما على رؤوسهم من الخوذ وعلى أجسامهم من لامات الحديد السابغة فهاله الامر وخاف على جيشه القليل فأراد أن ييئسه ويقطع عن قومه كل أمل فى العودة فأمر بالسفن فحرقت ثم قام بينهم خطيباً

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : «أيها الناس أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم أهل البلاد بجيشهم وأسلحتهم وأقواتهم موفورة وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ماتستخلصونه من أيديهم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً فشلتم وذهب ريحكم واستعاضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه الفاقة بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا

حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ولم أبدأ فيها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأقوى من حظى . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين

واعلموا انى أول مجيب لما دعوتكم اليه وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على (لزريق) كبير القوم فقاتله ان شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم لبطل عاقل تكلون أموركم اليه وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا القوم بقتله فانهم بعده يخذلون »

ثم حمل وفتحت البلاد وكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية واعلاء الكلمة الاسلامية

التقى مع جيوش (القوط) ودارت رحى الحرب ساعة انقضت فيها ابطال العرب وكانوا ثلاثمائة على صناديد البربر وكانوا عشرة آلاف فبددوا شمل جيش (القوط) وترك (رودريك) مركبته وكانت من العاج الناصع ولم يعلم أين ذهب .

وجد طارق ان هذا النصر المبين فرق عسكر (رودريك) وأهلكه وبدده وأصبح الشعب فى وجل عظيم فبعث رجاله وافتتح « قرطبة » بعد

حصارها ثلاثة أشهر « وطليطلة » بعد حصارها والتضييق عليها وعقد مع أهلها صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن أراد من السكان وترك لاهل الكتاب كنائسهم وبيعهم ومتعهم بحرية دينهم وشرائعهم وأبقى لهم قضاتهم ثم تقدم نحو الشمال وفتح مامر به من المدن بجهات « قسطيلة » وما زال سائرا حتى وصل فى مسيره الى جبال أسطوريا أى بعد مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه ووقف عند مدينة جيجون قرب خليج باسكاليا حيث الاقيانوس ورجع من هناك الى طوليد ليلتقي بالامير موسى بن نصير

جاء الامير موسى والتقى العصى وسار بعسكره الضخم يكمل ما ابتدأه طارق ويوفق للناس ماعاهدوه عليه حتى صفا القطر وطمن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لاقدام المسلمين فى الحلول به

أخذ الامير موسى بناء على اشارة « جوليان » في محاربة بعض القوط الذين لم يخضعهم طارق فتقدم طارق وتبعه الامير بعسكره وسار الى (غديانة) وحصرها وأعجب بأعمال الرومان فيها كالجسر ومصانع المياه وأبنية الملاعب الموجودة فى « لستيانه » ثم فتحت « سرقسطة » واتصل الرعب بأهالى البلاد وأدى مادهمتهم به جيوش المسلمين الى ان هذين الفاتحين صار الايمران يوضع الافتحت لهما أبوابه حتى انتهوا الى وادى (ردونه) ودوخ جيش طارق وسراياه البلاد التى لم تخضع لسلطانه

كان الامير موسى بن نصير مع تقدمه فى السن وما علاه من وخط الشيب مقداما يعشق المجد ويصبو لافتتاح البلاد حازما عاقلا ذا سياسة جليلا . كان فى نيته ان يتقدم فيفتح بلاد فرنسا (المعروفة ببلاد الغالة) وايطاليا المعروفة ببلاد (اللنبارد و) ثم يمر بجانب (جرمانيا) الى (هونكاريا) الى

الاستانة الى أسيا الصغرى ويصل لمقر الخلافة

لم يكن يبنى هذه الصروح على الهواء لان سطوته فى هذا الوقت كانت امتدت الى أعماق القلوب وعدوى الخوف والفزع من جيوش العرب عمت جميع أولئك السكان وسرت من بلد الى بلد ولكن أتاه رسول الوليد يأمره بالحضور وكان قد فتح جميع البلاد ولم يبق فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الا « جليقلة »

أطاع هذا الفاتح أمر خليفته وترك مابيده ولبي أمره بعد ماملك بلادا مثل بلاد الاندلس وألقى بينه وبين مقر الخلافة البحر الزخار وأصبح فى ملك لاتناله الاقدام والحوافر الا بشق الانفس

ترك بلادا هو مفترعها ورجالا هو مستملكهم لايعرفون غير خيره ولا يخافون غير شره وفى يده من الذخائر والاعلاق والاموال والمعاقل والرجال مالو أظهر الامتناع به لنال المرام . فتأمل لمثل هذا الاخلاص . وتحدث بمثل هذه الطاعة

سار الامير موسى الى مقر الخلافة وولى ابنه عبد العزيز على بلاد الاندلس وهو أول من اتخذ له سرير ملك فيها وكان باشبيلية . لان طارق والامير موسى لم يتخذا سريرا للسلطنة فيها

عقد عبد العزيز لأربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين من الهجرة بمحضر أربعة شهود من المسلمين عهدة صلح مع الامير (طودميرس) على المدن السبع التى كانت له بان يعطى (طودميرس) الامان ولا يعارضه فى عمله ولا يعتدى عليه فى ماله ونفسه وعرضه وأولاده وكنائسه على أن يسلم له المدن السبع وأن لايقبل ولا يساعد أعداء الخليفة ولا يكتم من نيتهم شيأ وأن

يدفع في كل سنة عنه وعن كل رجل من (الغوط) ديناراً واحداً وأربعة كيلات حنطة ومثلها شعيراً وقدراً من الزيت والعسل وأتباعهم نصف ذلك

ثم أخذت البلاد في النمو وسمح الامير موسى وطارق لاخوتهما العرب في أفريقيا ومصر بالانتقال فانتقلوا الى (لسبونه) و (موركه) وفى أقل من قرن واحد بلغت واردات البلاد من الزراعة والتجارة والصناعة مالاً لبداً فضلا عن الجبايات وأموال الفتوحات

قدّر آل العرفان ان ما كان يجبى من الاندلس فى ذلك الوقت يعدل مداخيل أوروبا وهذا النمو انما هو من نتائج الحرية وعدم التعرض لاحد في ماله وعرضه ونفسه وقد أيقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين الى العلوم والصنائع وظهر فضل أولى النباهة والذكاء وأحب أهل اسبانيا العرب فآخوهم وارتفعت الحلافات من بينهم حتى كانوا يختتنون مثل العرب ويمتنعون عن المحرمات المحرمة عندهم فدعاهم من شذ عنهم من المجوس (مازارابى) أى انصاف عرب

رزق الله بنى أمية بالفاتحين من الخلفاء وبالخيرة من القواد ففى تلك الازمان امتد حكمهم مسافة مائتى يوم من المشرق الى المغرب وكانت آي القرآن تقرأ في سمرقند كما تتلى فى قرطبة ويتلاقى الهندى مع السودانى فى مكة للحج وكلاهما يدين لبنى أمية . وظهرت على كل الممالك قدرة وغنى . وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة أقسام من الارض : آسيا وأفريقيا وأوروبا ملكوا من براري جبل الطور الى قفار ماوراء النهر ومن وادى كشمير الى منحدر جبل (طوروس) على البحر الابيض وأطراف الاناضول وسائر مملكة الاكاسرة وماعجزت عنه الاكاسرة . ومن الجزر قبرص واقريطش

ورودس وجزائر بلياره وشمال افريقيا والبلاد الممتدة من بغاز جبل طارق الى برزخ السويس . وقسموا سواحل البحر الابيض الى حكومتين احداهما بالمغرب تشتمل على الاقاليم القديمة اليونانية والاخري بالمشرق وهى عمالة مصر وبرقة البحرية . وأخذت الجزية التى قررها سيدنا عمرو بن العاص من بلاد النوبة. كما أخذت من الهند والصين كما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى. وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق حتى صارت دمشق فى نظر المسلمين كأنما هى روميا فى نظر المسيحيين

كانت دمشق ثانى مقر للخلافة الاسلامية بعد المدينة المنورة . وكما كانت تتيه على البلدان بمياهها وأشجارها ورياحينها كذلك كانت تعتز بمقام الخلافة فيها

فيها بقية آثار الملوك الكنعانيين والروم وآل جفنة من العز والعمارة فكانت زينة الدنيا . وأهلها أحسن الناس خلقاً وخلقاً جمعت بين العمال والمجان والزهاد وفيها لكل شئ من ذلك سبب

وجامع الوليد المعروف بالجامع الاموي قائم فيها وهو أفخر مأثرة للملوك بني أمية

الى غير لطائف البلاد الطبيعية ومحاسنها الوهبية التى لا يحصيها لسان ولا يصفها بيان

هذا وقد كدنا أن نخرج بهذه الاوصاف وغيرها عن معنى الترجمة التى قصدناها وانما أردنا أن نبين للقارئ كيف كان مقام الخلافة فى الشام الى عهد هشام

فهرست الجزء الأول من كتاب حماة الاسلام

صحيفة

٢ فاتحة الكتاب

٤ مقدمة المؤلف

١٢ سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

٥٥ شمائله صلى الله عليه وسلم

٥٩ كلمات من حكم رسول الله

٦٢ تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم

٦٩ سيرة أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

٨٦ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١٠٠ سيدنا عثمان بن عفان

١١٤ سيدنا على بن أبي طالب

١٢٩ العهد الذى أمر به سيدنا علىّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر

١٤٤ سيدنا الحسن

١٤٩ سيدنا عمرو بن العاص

١٥٦ سيدنا معاوية

١٦٦ الوليد بن عبد الملك

١٧٣ سليمان بن عبد الملك

١٧٩ عمر بن عبد العزيز

١٨٧ هشام بن عبد الملك

١٩٣ الامير موسى بن نصير ومولاه الفاتح طارق بن زياد



حماة الإسلام

تأليف

كاتب من كبار الكتّاب

الجـــــزء الثانى

{ حقوق الطبع والترجمة محفوظة لصاحب اللواء }

(الطبعة الاولى)

(بمطبعة اللواء بباب اللوق سنة ١٩٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة تاريخية

قد أتينا في الجزء الاول من (حماة الاسلام) على ذكر شئ يسير من سيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى أمية وبنى مروان وخبر بعض قوادها ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى العباس وقوادهم أيضا وماذلك عن قلة ولا سآمة وانما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد الى عهد ومن مقصد الى مقصد لتحصل البركة من كل جانب ونلم بأعمال حماة الاسلام فى كل صقع وناحية ليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذى فعلوه فذلكة لهم

ان الدولة الأموية أجل قدراً من ان تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير أويسع أخبارها مثل هذه السوانح . فماهذا وأمثاله الا غيض من فيض

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم ساداتنا خلفاء بنى أمية وساداتنا خلفاء بنى العباس نبذة تاريخية (وهى هذه) نبين فيها انتقال الدولة ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة لبنى العباس فان كنا أصبنا فيما فعلنا فلله الحمد وان كنا أخطأنا فبيت الخطأ ومعدته

قال الله سبحانه وتعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس » وقال الحكيم وقد عزى بعض من خرجت عنه مملكته : « لو بقيت لغيرك لما وصلت اليك »

دالت الدولة للعباسيين فاذا هى من كبار الدول وأعظمها في الدهاء والتحيل . ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فأطاعها الصلحاء تديناً والباقون رغبة أو رهبة واستمرت الخلافة والملك نحواً من ستة قرون استقبلت فيها عظائم الأمور وطرّت عليها دول كدولة بنى بويه وفخلها عضد الدولة . فناخسرو . ودولة بنى سلجوق . وكبشها طغرليك . ودولة خوارزمشاه وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة عسكره على أربعمائة ألف مقاتل . ودولة الفاطميين بمصر وعسكرهم لم ير أكثف منه . فضلا عن الخوارج والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته وجدع أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الاذى وأقل السخط

كل هذا لم يقو على ازالة ملكهم ولا محو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ويقبل بالعسكر الجرار والخميس العظيم حتى يصل بغداد فاذا وصل التمس الحضور فان أذن له قبل الارض بين يدي الخليفة وقصاري متمناه أن يوليه عملا أو يعقد له لواء أو يخلع عليه خلعة

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبدا حتى ان السلطان «هولاكو» لما فتح بغداد وأراد قتل الخليفة أبى أحمد المستعصم ألقوا فى سمعه انه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم فاحتجبت الشمس وامتنع القطر

أتت لها هذه العظمة وأصبح لها ذلك الاعتبار في النفوس بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه كان يجرى على لفظه الشريف مامعناه

(البشارة بدولة هاشمية) وزعم قوم انه قال لعمه العباس رضى الله عنه (انها تكون في ولدك)

كانت النفوس متطلعة لهذه الدولة ينتظرونها صباح مساء يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه . فكان فيهم عطف عليها وحنان لها

دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم قامت فيها أسواق العلوم ونفقت فيها بضائع الادب وعظمت فيها شعائر الدين ودرّت عليها الدنيا بخيرها وروعيت فيها الحرمات وحصنت الثغور . كانت الدولة مستمسكة بالدين كما كان على عهد الخلفاء يحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض اذا أخل بالعدل والمساواة ويحكمون بالشريعة ويتأدبون بآدابها

بلغت حضارة الاسلام فى دار السلام مبلغاً يندر مثله فأين التفت وجدت جمالا وانى نظرت رأيت مهابة وجلالا . أبهة ملوك ودعة زهاد ورخاء بال وارتقاء حال وانغماس فى طيبات العيش والتصرف الواسع فى التجارة وجمع ظرائف الدنيا وتحري العدل فى كل ذلك باحكامه وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة

اجتمعت العلماء والادباء والامراء والندماء بابواب الخلفاء وعلى الاخص الرشيد الذى ألبس الدنيا جمالا وخلع عليها جلالا بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة والاسواق والمرافق والمكاتب واتصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن نصفه فى مدينة من العالم

قصدتهم الناس وطمعت فى انفجار مكارمهم الخلق حتى صار يضرب

بهم المثل فى سعة العطاء وكان مع ذلك بيت المال فى عمران تشتمل خزائنه على العين والورق والامتعة والكساوى والغلات وغير ذلك . والامة بالغة مبلغها فى العلم والادب والصناعة

انتهى العز والرفاه بأهل الامر والجاه الى أقصى غايته حتى اتخذت الابر للجوارى من الذهب وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب (١) وكسيت حيطان منازلهم بالوشى وتأنقوا فى جميع أدوات الزينة والمباهاة بها كالخيل والسلاح والأوانى والجواهر والغلمان والقيان وجميع طيبات الزمان حتى ضرب المثل بهم في الآفاق وجلبوا الى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين واتخذوا مقاعدهم على حالات غريبة فتراها فى الشتاء كنا كمينا وفى الحر مابين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان والنابع من الارض والمتفجر من جوانب المكان وكل ذلك فى أفواه صور كصور السباع والثعابين وماشابه ذلك . وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ووضعت الحبال التى تجرّبها من الخارج فاذا حركت هب النسيم فترطبت الاجسام ولذّ المنام

لما أراد الله قيام هذه الدولة نما الشر وخلقت أسبابه وكثر الهرج والمرج وفتح بابه وثارت الفتن واضطرب الحبل واختلفت الكلمة فظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس واجتمع عليه كل من له في ذلك رأى من أهل خراسان انظر للبلاد وما كانت عليه . كان أهل الحجاز قليلين وأهل البصرة والكوفة وتلك الحوالى منحرفين عن الوحدة في نظر الناس لخذلانهم وغدرهم

(١) لعل مثلها مثل الآلة الغربية المستعملة الآن لوضع الملابس عليها المسماة فى لغتهم (بورت مانتو)

فى سوابق ماجرى منهم ولم يبق الا مصر والشام مع دولة بنى أمية

ظهر أبو مسلم الخراسانى ومعه أصحابه أصحاب الرايات السود وحارب عسكر مروان تحت قيادة نصر بن سيار وهزمه

يعجب الانسان لهذه القلوب كيف سخرها الله لتنفيذ قضائه العادل وابراز مكنون حكمته فى خلقه . يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش يبذلون المهج وينفقون الاموال ويجبون الخراج وينادون باسم الامام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو فى المسجد لايفارقه وأهل خراسان لايفرقون بين اسمه وشخصه وهو لايدخل أيضا فى شئ من هذا فلا ينفق عليهم ولايعطى أحدهم سلاحا وهم يحملون اليه الخراج

ثم قدر الله أن يقتل هذا الامام الذي قامت باسمه الدعوة كأنما فرغ من عمله وكأنما هو لايصح أن يكون الا مقدمة لغيره

خاف اخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم فهربوا وقصدوا الكوفة ونزلوا داراً أخلاها لهم أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال من كبار الشيعة فدخلوها مع أتباعهم وكتموا سرهم واجتمعت الشيعة بهم وقويت شوكتهم

قصد أبو مسلم دار الخلال وفيها السفاح والمنصور فقال أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور هذا وأشار الى السفاح وكانت أمه حارثية فسلم عليه بالخلافة ثم خرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه الى الجامع فصلى وصعد المنبر وأظهر الدعوة وخطب الناس وبويع له بالخلافة سنة ١٣٢

ثم سلب الله ما كان لمروان آخر خلفاء بنى أمية من الصولة والقدرة

حتى عصته العسكر ونابذته قواده وكان جيشه فوق المائة ألف فلم يغن عنه شيأ وتولى أمره الخذلان حتى انهزم وهرب وقتل فى قرية أبى صير من قرى الغربية على الشاطئ الغربى للنيل الشرقى وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة

ولا بد لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شئ حفظه التاريخ لهذه الخلافة . وهو ان بنى أمية وان كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل فى القضاء وحفظ الامن والراحة (وانى لنا بمثل تلك الايام) فان الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم والاحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول صلى الله عليه وسلم فرقت الامة الى مذاهب مختلفة كالخوارج والمعتزلة والجبرية وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية وأبعدتها عن حدها وعهدها وقام الملك أخيرا على العصبية فانحرفت عن العدالة العامة والعلم الدينى وهما أقوى أركان الخلافة وانتشر التفرق فى البلاد الاسلامية ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة واحدة بل تركوهم مع هذا السيل الجارف

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة وانقسمت الى خلافتين: خلافة عباسية فى دار السلام وخلافة أموية في الاندلس قام بالاولى الامام السفاح وبالثانية الامام عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموى الذى فر من السفاح ولجأ الى قبيلة زناته أعظم قبائل أفريقيا ونحن ذاكرون شيئا من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم

ترجمة أبي مسلم الخراساني

هو عبد الرحمن بن سالم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دولة . أو صاحب دعوة بني العباس . أو صاحب الدولة العباسية . أو بأمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

اختلفوا في نسبه فمن قائل انه عربي . ومن قائل انه عجمي. ومن قائل انه كردي . وقد قال هو عن نفسه « كفاك خبري عن نسبي »

ترعرع أديباً . ونشأ لبيباً . وكان يشار اليه في صغره لفرط ذكائه ووفور عقله

ولد في سنة مائة بأصبهان وكان أبوه قد أوصى به الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين ثم جمع بينه وبين ابراهيم الامام فأقام معه حتى بلغ أشده ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يسمى أبا اسحاق) فتسمى (بعبدالرحمن وتكنى بأبي مسلم) . زعموا ان الامام وجد لذلك شيئاً في الجفر وتحقق ان الامر لا يتم على يده الا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر

ولعله إذ قدم على الامام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به فعقله عنده حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له في خراسان

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم وقصرت أعمارهم فانه ولد سنة مائة والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر دوخ فيها أهل الارض . وكان له يوم قتله المنصور ثلاث وثلاثون سنة فهو كالاسكندر الرومي صاحب الفتوحات

أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب . أو سيبويه شيخ العربية . أو أبى تمام أبى الشعراء . أو ابراهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم ممن لايقطع العقل بجواز ان تكون أعمارهم القصيرة ظروفا لاعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم

كان أبو مسلم جميلا قصيراً أسمر حلوا نقى البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالما بالامور . لم ير ضاحكا ولا مازحاً الا فى وقته ولزومه ولا يكاد يغضب فى شئ من أحواله . تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الجسام فلم ير مكتئباً واذا غضب لم يستفزه الغضب كثير الغيرة شديد البطش شجاعاً فاتكا ذا عقل ورأى وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة والنعوت الشريفة هيأت هذا المقدام الهمام لان تتعلق به دعوة بنى العباس ويكون به اقامة دولتهم وابادة دولة بنى أمية

سئل أبو مسلم فقيل له بم نلت ماأنت فيه من القهر للاعداء فقال «ارتديت الصبر وآثرت الكتمان وحالفت الاحزان والاشجان وسامحت المقادير والاحكام حتى بلغت غاية همتى وأدركت نهاية بغيتى»

ومما يدل على علو همته انه ورد حال الدعوي «نيسابور» ليلا على حمار وليس معه آدمى فقصد دار (الدهقان) فدق عليه الباب ففزع اصحابه وخرجوا اليه فقال لهم قولوا للدهقان ان أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة فقالوا للدهقان فسألهم في أى زي وأى عدة هو ؟ فقالوا وحده فى أدون زى فسكت ساعة ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نيسابور قيل له خذ ماتريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال (ان له عند أبى مسلم يدا) ثم أتته هداياه

فردها ولم يتعرض بشئ له ولالاتباعه

ومن نوادره انه كان يشتغل عند خراز بالكوفة فبينما يخرز شيئاً رأى الناس يتعادون فقال ماالذى بهم قالوا فيل دخل الكوفة فقال وانى فى دخل فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فىّ أقلب دولة وأقيم أخرى

بدأت الدعوة العباسية سنة اثنتين ومائة على ماستقصيناه وكان أول ظهورها بخراسان (بلدة أبى مسلم) وكأنما قارنها فى المولد ليشبامعاً وينشآ سوية

اختلفوا في أول من قدم خراسان . فمن قائل ان ميسرة وجه رسله بالدعوة من العراق اليها . ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدي . الى سعيد حذينة عاملها . فقال ان ههنا قوماً ظهر منهم كلام فى الخلافة وأعلن بهم فسألوهم فقالوا نحن من التجار وان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم

ومن قائل ان أول من دخل خراسان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة . وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبعة ومائة . ومن قائل انهم دعاة (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) . وفيهم زياد أبو محمد مولى همدان . وقد اتفق أصحاب الروايتين ان ذلك وقع في هذه السنة وفي ولاية أسد على خراسان

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية وأطعموا الطعام على حب بنى العباس. وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس حتى بلغ أمرهم أسداً فاحضر زياداً . وقال له ماالذى بلغنى عنك قال الباطل. انما قدمت الى تجارة وفرقت مالى على الناس . فاذا اجتمع خرجت . فأمره بالخروج فلم يخرج . وعاد الى أمره فخاف منه أسد . وأحضره وقتله بالسيف مع عشرة من أصحابه . قالوا

ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال (الحمد لله الذى صدق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل) ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ودعا الى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع اليه القوم وأطاعوه ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعاهم للفجور بنساء بعض وقال ان ذلك بأمر محمد بن على فظفر به أسد والى خراسان وسمل عينيه وقطع لسانه فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم فبعثوا اليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم فصرفه الى خراسان وأرسل معه كتاباً مختوما فقضوه فلم ير فيه الا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك وعلموا أنهم خالفوه . وبعث للنقباء أيضا بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بالنحاس وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهى اشارة لما كانوا عليه من مخالفته ورجوعهم لطاعته (١)

ثم جمعوا أمرهم وقاموا بالدعوة وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية وهاجت عليهم الفتنة وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس وأخذ ما كان بعمان من الاموال وأقبل الى دمشق يلعن الوليد ويرميه بالكفر

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وهى أول سنة الاعمال الجسيمة توجه فيها سليمان بن كثير ومعه أبو مسلم وجماعة من الشيعة الى مكة والتقوا بابراهيم الامام ودفعوا اليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع فكتب كتابا لابى مسلم يأمره فيه بالعمل ووجهه الخراسانى وعمره اذ ذاك نحوا من أربع وعشرين

---

(١) العصى المضببة بالنحاس أو الحديد هي علامة النقيب للآن فى طرق الصوفية ولعلها من هنا أخذت

سنة . قال فى كتابه للاصحاب والشيعة

أما بعد فانى قد أمرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا

أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك . فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه وخرج بعضهم الى مكة ليلاقوا الامام فاذا به مجمع على رأيه على أبى مسلم والزمهم طاعته فأطاعوه ثم كتب الى أبى مسلم (انك رجل منا آل البيت احفظ وصيتى انظر هـذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم وانهم ربيعة فى أمرهم واما مضر فانهم العـدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربيـة فافعل ولا تخالف هـذا الشيخ (يعنى سليمان ابن كثير) ولا تعص عليه واذا اشكل عليك أمر فا كتف به مني)

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ولم يبق قلب ما قلبه على بنى أمية ولا بلد الا أوحشه منهم فغير النوايا وبدل الضمائر والافكار بما بثه وأظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الامور فلم تلبث الا وقد لزمت الطاعـة وتنادت بالدعوة لبني العباس وجاءت من كل الارجاء والمواقع ليقع فى ملكه ما يريد

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء وبث الدعاة وبرز للمغالبة والمباراة فأزال ملك أعدائه عن مستقره وثبت ملك أوليائه فى نصابه فشفى الله صدورا وأدرك بسيفه ثاراً . فتح البلاد وأقام أصل الدولة وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها وأقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها ويموتون عليها

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود يروون حـديثاً مأثوراً معناه

(صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ويقتلون مقاتلها شعورهم شعور النساء وثيابهم ثياب الرهبان) وهم كذلك كانوا أصحاب صدور سليمة وقلوب باسلة لم تفسدها الاهواء ولم تخامرها الادواء ولم تعتقبها البدع وهم خير جند لخير قائد فكأنهم لم يخلقوا إلا لقلب الدول وتأييد السلطان

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة فكتب اليه ابراهيم الامام يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس فسار نحوه في النصف من جمادى الآخرة مع النقباء فلما وصلوا قومس (١) وافاه كتاب الامام يقول له فيه انى قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابى ووجه الىّ قطبة بما معك يوافينى فانصرف ابو مسلم الى خراسان وذهب قطبة الى الامام بما معه من الاموال والعروض ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها مفنون (بلدة بمرو) ولبس السواد وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ودارت رحى الحرب والقتال وانتقل أمرهم من القوة الى الفعل وأخذت البيعة الى الامام علانية ثم عقد اللواء الذي بعثه الامام اليه الذى يدعى (الظل) والراية التى تدعى (السحاب) وأمر باشعال النيران للشيعة وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاماً فقالوا (الظل والسحاب) يعنى ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لاتخلو من الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباسى الى آخر الدهر

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية وأتته الرجال راجلين وركباناً يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى فتربص بهم مكانه وكان عيد الفطر فنصبوا منبراً بالعسكر وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة وكانت بنو أمية

(١) قومس بالضم وفتح الميم صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل

تبتدئ بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان والاقامة مع تغيير كثير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا فقعل ثم انصرفوا بعد الصلاة الى طعام فأكلوه وكتب أبو مسلم الى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتاباً قال فيه .

الى نصر

أما بعد فان الله تبارك أسماؤه عير أقواما في القرآن فقال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من أحد الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفوراً استكباراً فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

فتعاظم نصر الكتاب وكسر له احدى عينيه وقال هذا كتاب ماله جواب

ثم وجه أبو مسلم أشياعه مثل مالك بن الهيثم الخزاعى وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها وذهب غير أولئك الى جهة أخرى فشردوهم عن المواقع والاماكن وقتل من قتل منهم كشيبان الخارجى من أكابر القواد والكرمانى وابنيه ودخل أبو مسلم «مرو» وصفت له على يد أبى منصور طلحة بن زريق أحد النقباء وكان عالماً بالحال ملحنا بالحجة وهو أحد الاثنى عشر نقيبا المنتخبين من السبعين الذين استجابوا الرسول محمد بن على فى أول الامر

ثم دخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة بويع فيها أبو العباس عبد الله بن محمد ابن عبد الله الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على ابراهيم بن محمد الامام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) وكان الامام قد نعى نفسه الى اهل بيته قبل ذلك وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع

أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وبالسمع والطاعة له وأوصى الى أبي العباس الملقب بالسفاح بالخلافة فلما وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم (كما تقدم الكلام في النبذة التاريخية) وجاءت القواد وسلمت عليه بالخلافة ثم لبسوا السلاح وطلبوا خروجه واصطفوا له وأتوا بالدواب فركب برذونا أبلق ودخلوا دار الامارة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم وافت الاخبار بهزيمة مروان بالزاب ثم التقى به عبد الله بن علي عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر الى مصر وقتل

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس وهو الملقب بالسفاح فأقر أبا مسلم على خراسان ولا زال بها لا يفارقها الى سنة ست وثلاثين ثم كتب اليه أبو مسلم يستأذنه في القدوم عليه والحج فأذن له ووافق ذلك طلباً من أبي جعفر المنصور أيضا بالحج فأذن له فلما كانا في الطريق حمل معه ذكر أبي جعفر لان أبا مسلم كان يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطريق وكانت الذكرى له. ولما صدر عن الموسم تقدم في الطريق ثم أتاه خبر موت السفاح فكتب اليه يعزيه ولم يهنئه بالخلافة. كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم في نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقباً وقد غلب عليه سوء الظن حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن فأمضى فيه حكمه وقتله بعد ان استدعاه وأدناه وجالسه مجلساً كثر فيه الاخذ والرد كما سيأتي ذلك في ترجمته ان شاء الله

﴿ موعظة ﴾

(قال الامام الفخري) لما قدر الله انتقال الملك الي بنى العباس هيأ لهم جميع الاسباب فكان ابراهيم الامام ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحجاز جالساً على مصلاه مشغولا بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل وأهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لايعرفه ولا يفرق بين اسمه وشخصه . وانظر الى ابراهيم الامام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لاينفق عليهم مالا ولا يعطي أحدهم دابة ولا سلاحا بل هم يجبون اليه الاموال ويحملون اليه الخراج فى كل سنة

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان وانقراض ملك بني أمية كان مروان خليفة مبايعا ومعه الجنود والاموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه وأمره يضعف وحبله يضطرب فما زال يضمحل حتى هزم وقتل واكلت لسانه هرة

فتعالى الله عما يشركون اه

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب

أبو جعفر المنصور

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لاسباب منها ان جماعة المؤرخين قالوا ان فى بني العباس فاتحة . وواسطة . وخاتمة . والفاتحة عندهم المنصور . والواسطة المأمون . والخاتمة المعتضد . ومنها ان مدة السفاح لم تطل . ومنها ان هذا الخليفة أحق بالتقديم لانه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية

هو أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس . ولد فى شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين وأدرك جده ولم يرو عنه وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ببئر ميمون مع السحر وهو محرم ودفن بمقبرة المعلاه والمسافة بينهما ثلاثة أميال . فمدة خلافته اثنان وعشرون سنة ومدة عمره ثلاث وستون سنة

كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين وقوراً كامل العقل جيد المشاركة فى العلم والادب فقيه النفس فصيحاً بليغاً مفوهاً خليقاً بالامارة وجبروتها مدبراً لامور المملكة

قسم زمانه وساعاته قسمة حكمة فكان صدر نهاره للامر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وتأمين السبل والنظر فى الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدايتهم فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته فاذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه

فاذا مضى الثلث قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل ايوانه

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك وقد سمع منه انه قال «ماأحوجنى ان يكون على بابى أربعة نفر : قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي وصاحب خراج لا يظلم الرعية ثم عض على أصبعه وتأوه فقيل ماهو ياأمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب الىّ خبر هؤلاء على الصحة»

نمت فى عصره القوة العلمية . فقد عاصر كثيراً من الائمة الاجلاء منهم الامام أبو حنيفة والامام مالك بن أنس وكثر تدوين علماء المسلمين فيه العلوم . كالحديث والتفسير فصنف بن جريج بمكة . ومالك الموطأ بالمدينة . والاوزاعى بالشام . وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن . وسفيان الثوري بمكة وصنف ابن اسحاق المغازى وابتدأ تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الائمة فى هذا العصر يعلمون العلوم املاءً من حفظهم

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية بالعربية كاقليدس وكليله ودمنة وكان هو أعلم الناس بالحديث والانساب مشهوراً بطلبه . كان بليغاً لسناً فصيحاً . أخرج الاصمعى وغيره انه صعد المنبر فقال « الحمد لله أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا اله الا الله لا شريك له . فقام اليه رجل فقال ياأمير المؤمنين اذكر من أنت فى ذكره . فقال مرحبا مرحبا لقد ذكرت جليلا وخوفت عظيما وأعوذ بالله أن أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالائم والموعظة منا بدت ومن عندنا خرجت وأنت ياقائلها

فأحلف بالله ماالله أردت وانما أردت ان يقال قام فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها واهتبلها من الله فانى قد غفرتها واياكم معشر الناس من أمثالها وأشهد ان محمداً عبده ورسوله فعاد الى خطبته كانما يقرؤها من قرطاس

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم وله من التدبيرات السديدة مايستحق أن يدون ليحتذى به ويؤخذ منه ويقاس عليه

ومن أغرب مايؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته انه لما أدركته الوفاة قال لابن المهدى يابنى ان فى بيت المال مالا أخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً ولقد أفردت كل شئ منه وكتبت عليه أسماء أصحابه فربما كان منهم مايوجب رده اليهم

كان أعلم الناس بضبط احوال الممالك وترتيب القواعد واقامة ناموس كل شئ . غالب الدهر والايام حتى كف عاديهما عنه وتوطدت اركان الممالك له وعظمت هيبته في النفوس ولولا بأسه وشدته مادانت الأمصار اليه بعيدها وقريبها وأصبحت خلافته موطدة الأركان قويمة البنيان فان آل مروان لم تبل رممهم . وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء

كان حازماً لايعرف اللهو ولا مايشبه اللهو ولم ير فى داره ذلك . قال سلام الابرش كنت أخدم المنصور داخلا وكان من أحسن الناس خلقاً فى الخلوة بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها فاذا خرج من المجلس العام اربدّ لونه وكان مع ما وهبه الله من السودد والمجد فقير النفس فكان يرقع ثوبه ويلبس القميص الخشن (ونعم المبتلى)

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت يقظا لا يفلت عدوه . قال يزيد بن عمر بن هبيرة : مارأيت رجلا فى حرب اوسلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور . حاصرنى تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من عسكره شيئاً وحصرت وما فى رأسى شعرة بيضاء وانقضى الحصار وليس فيها سوداء

يعد مخاطراً من فرط شجاعته حتى قيل انه أخطأ في ثلاث : قتل أبى مسلم وهو فى جماعة قليلة وحين خرج الى الشام . ولو اختلف سفيان بالعراق لذهبت الخلافة . ويوم الراوندية ولو أصابه سهم لدكت المملكة وغدا الكل أثراً بعد عين . فأما قتله لأبى مسلم وخروجه الى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الانام ولكن المعجز يوم الراوندية

وصفوة الخبر أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأى أبى مسلم أحاطوا بقصره وقالوا أنت إلهنا فغضب وقال يدخلهم الله النار في طاعتنا ولا يدخلهم الجنة في معصيتنا وحبس رؤساءهم فعمدوا الى نعش فارغ وحملوه كأن به جنازة وقصدوا السجن فألقوه امامه وكسروه وأخرجوا من فيه وقصدوا القصر فخرج بنفسه ماشياً (١) وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينة وما زال حتى جيء له بدابة فركبها ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها وصار يقاتل قتالا مارؤى قبله ويقتل بين يديه ويحميه حتى طفئت الفتنة

فعن أى ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لاندرى . على ان هذه الامور طالما كانت سبباً لضياع البلاد . تقوم الثورة المدبرة فتنعقد يد الامير عن

(١) لانه لم يكن فى القصر دابة . ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء

التصرف فيها فتتسع « ومعظم النار من مستصغر الشرر » فضلا عن أن تلم بطرف أجنبي فلا تلبث المدينة أو المملكة الا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك

وقد كانت هذه الواقعة سبباً لبنائه بغداد لانه كره الاقامة بالهاشمية فبناها بعد ماأجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها . دجلة والفرات محيطان بها والميرة تأتي اليها فى دجلة من ديار بكر ومن البحر والهند والصين . وفي الفرات من الرقة والشام وخراسان وبلاد العجم متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل وهى مدينة مباركة قالوا انه لم يمت فيها خليفة

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة وأتمها سنة ست وأربعين وجعلها شبه دائرة وقصره في مركزها قالوا ليكون قربه من جميع الناس واحد . فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ من دقة أمره فى حسابها انه تقاضى البواقى لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره)

ثم بنى الرصافة وشيدها

أحاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه فأفنت الفرسان وقتلت الانصار وغلت يد الخلافة وأذاقت الأمة بأس بعضها وأتلفت الحصون والملاجىء وبددت المعاقل

وكفى بالجيوش الخراسانية التى كانت مع الامير (إسنادسز) أي (الخارج بلا سند ولا دليل) فقد عظم خطرها واستفحل شرها واشتد الامر على المنصور فان ضريبة جيشه كانت ثلاثمائة ألف مقاتل مابين فارس وراجل . ولم يهزم اسنادسز حتى قتل فى موقعة واحدة من رجاله سبعون ألفا فى

واقعة مشهورة

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جرائم الفساد أن هجم بالعقوبة وتناسى العفو فكان جبروت خلافته شديدا ولم تفتح فى مدة خلافته الا « طبرستان » لان الحروب مع الخوارج غلبت عليه

دخل فى طاعته ممالك الاسلام التي افتتحها الصحابة رضى الله عنهم وبنو أمية الا الاندلس بقيت بيد أهلها يتقاتلون على الامارة حتى قدم عليهم فأصبح للاسلام رئيسين يتنازعان السلطة العباسية فى الشرق ببغداد والاموية فى الغرب بالاندلس

ومن فضائل هذا الخليفة انه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة وحصل بينه وبين ملك الروم الفداء واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة أغدق فيها على الناس حتى سميت عام الخصب . ووقع فيها بينه وبين رجل من الحديث مافيه مزدجر ومن العظة مالا يتصور وقوعه والعجب ان مثل أبى جعفر يتقبله منه مع جبروته ولا تأخذه أنفة الملك . واناذا كروه ولوطال فانه مما يطرز بالدرر واللآل :

قالوا حج أبو جعفر وكان يخرج الى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى لايعلم به أحد فخرج ذات ليلة سحرا وبينا هو يطوف سمع من يقول : اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم . فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه ثم خرج ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له : ان أمنتنى على نفسى أنبئك . فأمنه وأدناه وسأله فقال :

« ياأمير المؤمنين ان الذى دخله الطمع حتي حال بين الحق وأهله وما

ظهر من البغى والفساد فى الارض انما هو أنت . قال ويحك كيف يدخلنى الطمع وكل ماأريده فى قبضتى ؟ - قال : وهل دخل على أحد من الطمع مادخل عليك ياأمير المؤمنين . ان الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم . واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وصحبة معهم السلاح واتخذت وزراء وأعوانا فجرة إن نسيت لم يذكروك وان أحسنت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والرجال والسلاح وأمرت أن لايدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف والجائع والعارى وما أحد الاوله في الاموال حق فلما رآك الذين استخلصتهم وأشرفتهم على رعيتك وأمرت ان لايغيبوا عنك تجبى المال ولا تقسمه قالوا قد خان الله فما بالنا لانخونه وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك الا ماأرادوا ولا يخالف أمرهم عامل الا أقصوه حتى تسقط منزلته فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم وصانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووا بها على الظلم ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم وامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل وان جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول اليك وان أرادوا رفع قصة اليك وجدوك قدنهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم ان لايرفع مظلمته اليك فان صرخ ضرب وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا

كانت بنو أمية لاينتهى اليهم مظلوم الا رفعت مظلمته ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الارض حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى ياأهل الاسلام

فيبتدرونه فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف له وقد كنت ياأمير المؤمنين أسافر الى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى . فقال له وزيره مالك تبكى لابكت عيناك . فقال أما انى لست أبكى على المصيبة إذ نزلت بى ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب أبكى . ولئن ذهب سمعي فان بصرى لم يذهب . نادوا فى الناس أن لايلبس ثوبا أحمر الا المظلوم . فكان يركب الفيل فى طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه

هذا ياأمير المؤمنين مشرك بالله تعالى قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه وأنت مؤمن بالله عز وجل وابن عم نبيه الا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك فانك لاتجمع الأموال الا لواحدة من ثلاثة . إن قلت أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وماله على الارض مال . وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه . ولست الذى يعطى ولكن الله تعالى يعطي . وإن قلت أجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبر أفيمن كان قبلك ولم يغن عنهم ماجمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع وماضرك وولد أبيك عبدالله بن عباس ما كنت فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله مافوق ماأنت فيه الا منزلة لاتدرك الا بالعمل الصالح . ياأمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل . قال لا ؟ فكيف تصنع بالمالك الذى خولك ماأنت فيه من ملك الدنيا وهو لايعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم وهو الذى يرى منك ماخفى فيك فما تقول اذا انتزع ملك

الموت الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئاً فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ثم قال « ليتنى لم أخلق ولم أك شيئاً . كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس الا خائناً » . فقال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين ؟ قال ومن هم . قال العلماء . قال فروا مني . قال هربوا مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وامنع وخذ الشئ مما حل وطاب واقسمه بالعدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل

ولا عجب من سكوت أبى جعفر واصغائه لمقال الرجل وطلبه التوفيق فى العمل بما قال لانه يتحرى الحق من الباطل ويعلم صحة ما يقال له وينزل اليه وهو متسنم المعالى ويتضاءل امامه كما سمعت

أكبر فخر للغربى على الشرقى الآن أن يفخر عليه بان فى أهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق وقولة الصدق وان هؤلاء الملوك لايصدفون عن النصيحة ولا يأنفون منها مادامت عونا لهم على طرق الحق واكتساب الخير ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخلافة من القهر والقوة والقدرة واستمعت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع

وأعجب من هذا ما أخرجه عبدالله بن صالح قال كتب المنصور الى سوار ابن عبد الله قاضى البصرة بان ينظر فى الارض التى تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر وأن يدفعها الى القائد فامتنع القاضى وقال انها من حق التاجر وكتب للمنصور بذلك . فكتب اليه والله الذى لااله الاهو لتدفعنها الى القائد. فكتب

اليه سوار يقول والله الذى لااله الاهو لا أخرجها من يده الابحق .فلما جاءه الكتاب قال ملأتها والله عدلا وصارت قضاتى تردنى الى الحق

لو كان أبو جعفر غير مغلول اليدين وكانت الحروب التي باشرها مع الخوارج عليه فتوحا فى بلاد الغير كان زمنه يعد من اكبر الازمان فى الفتوح والاعمال الحربية كما عد اكبر زمن فى الفتوح العلمى والتقدم فى المعارف . ولكن قدر الله أن يكون سهمنا بيننا فى تلك المدة كما قدمنا وذلك من المنازعة على الملك وسمو الآمال اليه وعدم دفع الخارجين عليه الا بالقوة الغالبة أو بنقرضوا

كانت خزائن أبى جعفر ملأى بأنواع الاموال وجيوشه على قدم الاستعداد ولولا ذلك ماتمت له الخلافة وناهيك بوصيته للمهدى وقوله فيها «انى قد جمعت لك من الاموال مايكفيك لارزاق الجند والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً .وأوصيك باهل بيتك خيراً فان عزك عزهم وانظر مواليك فانهم مادتك لشدتك واياك والتبذير فان النوائب غير مأمونة . ولا تجاوز ماأمر الله به وأعدر جالا بالليل لمعرفة مايكون بالنهار ورجالا بالنهار لمعرفة مايكون بالليل وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل اذنك للناس ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفسا غير لاهية ولاتنم واياك فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض الا وقلبه مستيقظ »

فالمتأمل فى هذه الوصية يدرك ان الامم الفقيرة لا بد ان تسترقها أخصامها بعلة الدين كما هو الواقع وهو أقرب سبب لان تتملكها أو تستعبدها عداها وليس بين الامة وبين محوها الا ان تقصر يدها فى عدة حرب وقد وقفت اليها خصومها وعلمت منها ذلك وان الانقسام والافتراق من شر

الاوبئة على عائلة الملك لأنها تبيدها بيدها من غير حاجة لقوة الاعداء

فنسأل الله ان يلم شعثنا ويوفقنا لما يريده من خير الدنيا وخير الآخرة ويرينا هذه المواقع التى ذكرناها من جهات بغداد وانهارها عامرة غامرة بالعمار والترقى والحضارة والمدنية التى انبثت هناك أسبابها فى هذه الأيام فى ظل مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الظليل أدام الله سلطانه وملكه وجعله للأمة الاسلامية ذخراً وسياجا يحوطها من آفات الزمان ونوائب الحدثان ويد العدوان آمين



المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور

هو المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور ولد سنة سبع وعشرين ومائة. وبويع له بالخلافة في سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون كما تقدم في ترجمته) فلما وصل الخبر اليه ببغداد خطب الناس فقال « ان أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه فقال: قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله احتسب أمير المؤمنين واستعين على خلافة المسلمين). أيها الناس اسروا مثل ماتعلنون من طاعتنا نهبكم العافية واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم. وطوى الاصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك. والله لافنين عمرى بين عقوبتكم والاحسان عليكم »

يرى الممعن فى معانى هذه الخطبة شيئاً كثيراً من المنافع والمقاصد الخيرية. أظهرت تأثره بالفجيعة وأبانت ان خلاله خلال حنو وانعطاف وان ملكوت الخلافة لم ينسه حق الابوة ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لاتذكر نعمتهم فى جانبه ولا أسوأ من العقوق والعياذ بالله

نقب على أحسن ماتوصف به الرعية وطلب تحقيقه من الأمة والملة فقال: « وأسروا كما تعلنون » لان أقبح ماتكون الامة وفي صدرها دخل سواء كانت تصره لبعضها أو لاولياء أمورها.

طلب منهم خفض الجناح واقترنه بنشر المعدلة فيهم وطي الاصر عنهم. ولا أجل من ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق.

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الاحسان والعقوبة . وكذلك النفوس الكاملة تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها لكيلا تكون « سكراً فتؤكل أو حنظلا فترمى »

ووضع الندي في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه . فقد أوصاه عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء . فلم يدع فيها شيئاً من الخير يمكن الاحاطة به الا تقدم فيه اليه . وأوصاه بخصال جمّ لهبها واستخلف الله عليه

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هذه متدربا خليقاً بالامارة لان الخليفة المنصور ربيضه بما ولاه قبلها من الاعمال مذ شب وتأدب وجالس العلماء وبلغ مبلغ الكمال

أمره على طبرستان وما والاها فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته . ثم عهد اليه بالخلافة بعد ذلك . فكان العهد اليه عن خبرة وحقيقة نظر في مصالح الامة . وكأن المنصور بتربيضه ولده وولى عهده على أمورها وأعمالها نظر لمصالح هذه الامة في مماته نظره لها في حياته . وحبذا الخلفاء

روى المهدى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة . وحدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعي وغيرهما . قال الذهبي وما علمت فيه جرحا ولا تعديلا

كان المهدى جواداً ممدوحاً محبباً الى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوما يعقوب وزيره في أمر أراده : « هذا والله السرف » فقال المهدى : ويحك يا يعقوب انما يحسن السرف بأهل الشرف ليعلم المكثر من المقل

كان من أوائل فعله في خلافته تتبع الزنادقة والقائلين بالتناسخ من أهل

خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه . فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى اذلالهم دليل بحث وتنقيب وحجته فى افحامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصولة فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والالحاد وما زال بهم حتى أفناهم وطهر الارض منهم

وفي سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ثم من بعده لهرون الرشيد ولديه

وفى سنة ستين حج بالناس وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ونقل خمسمائة من الانصار الى العراق جعلهم في حرسه وأقطع لهم الأرزاق

حمل اليه التاج وهو فى مكة . وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط . وما ذلك الا من انتظام البريد وأمان الطريق وسلامة الوارد والمتردد وعدم وجود عائق أبداً

نعم عمر الطريق الى مكة وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور (من القادسية الى زباله) وجدد الاميال وحفر الآبار وأصبحت الطريق آمنة صالحة الى بيت الله الحرام ومقام نبيه عليه السلام . وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها منهل . وسير البريد من العراق للحجاز ومن اليمن الى مكة الى الحضرة وخصص له إبلا وبغالا لاتحصى وهو مما لم يتفق لغيره أيضا

أمر بترك المقاصير التى فى جوامع الاسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبري فيه وأدخل فى ذلك دوراً كثيرة ولم يزل البناء فيه الى وفاته

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات على يديه ونصره الله وزاد فى غنيمته . فمنها انه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم وجمع

الاجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وصار مستصحبا ولده هارون وبعد ان عبر الفرات بعثه للغزو فحاصر البلاد وافتتحها وأثخن فى الزنادقة

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم فأوغل فى بلادهم وهزمهم وجمع اليه أموالا كثيرة وسار حتى بلغ القسطنطينية وكان على الروم يومئذ (غسطه) زوجة (أليوك) كافلة لابنها منه صغيراً. فجري الصلح على الفدية وان تقام له الادلاء والاسواق فى الطريق ونال قصده من ذلك

كان عادلا محباً للعدل فاذا جلس للمظالم قال ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم الالاحياء منهم لكفى

بلغ من تقواه ماحدث به (الحسن الوصيف) قال: أصابتنا ريح شديدة فى أيام المهدي حتى ظننا انها تسوقنا الى المحشر. فخرجت أطلب المهدي فوجدته واضعا خده على الارض وهو يقول. «اللهم احفظ محمداً فى أمته. اللهم لاتشمت بنا أعداءنا من الامم. اللهم ان كنت آخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك» قال فما لبثنا الا يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه

كان سمحا جميلا. قال الربيع: رأيته يصلى فى بهو له في ليلة مقمرة فما أدرى أهو أحسن أم البهو. أم القمر. أم ثيابه. فقرأ: «فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم» قال فأتم صلاته ثم التفت الىّ وقال: ياربيع. قلت: لبيك. قال موسى. فقلت فى نفسى من هو موسى أموسى ابنه. ام موسى بن جعفر؟ وكان محبوسا عندى. فجعلت أفكر ثم غلب علىّ انه موسى بن جعفر فأحضرته فقطع صلاته ثم قال له ياموسى إنى

قرأت هذه الآية (وقرأها) فخفت ان اكون قد قطعت رحمك فوثق لى انك لاتخرج علىّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين حتى أخليك . فوثق له فخلاه

ويحق للقارئ لهذا الخبر أن يحاكى الربيع في مقاله ويجاريه فيقول لاأدري قراءته كلام الله بهذا الامعان والتدبر أحسن أم العلم به فى صلة الرحم أم العفو عن المسيئ أم مخافة الله !!!

كان عصره عصر خير وبركة . من الزهاد جمع ابراهيم بن أدهم وداود الطائى ومن الاعلام : الخليل ابن أحمد الفرهودى صاحب العروض وسفيان الثورى وبشار بن برد أول شعراء المحدثين

كان مثالا للسماحة وقدوة فى مكارم الاخلاق . قالوا كان يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها . فاقيمت الصلاة يوما فقال اعرابى : لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك . فأمر الناس بانتظاره ودخل المحراب ووقف الى أن قيل جاء الرجل فكبر وصلى

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبى صلى الله عليه وسلم انه أول من قرأ في الخطبة : « ان الله وملائكته يصلون على النبى » الآية . قال الاصمعى سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : ان الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته . وقرأ الآية

كان يتعسس بنفسه حال الامة والملة . فاتفق له ليلة انه سمع اعرابية تقول : « قومى مقترون . نبت عنهم العيون . فدحتهم الديون . غصتهم السنون . بادت رجالهم . وذهبت أموالهم . وكثرت عيالهم . أبناء سبيل وانضاء طريق . وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره وخلفه

فى أهله » فوصلها وأمر من يوصلها لحيها

وأسند عن مهدى بن سابق . قال صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة حاتم لك خائن نخف الاله وأعفنا من حاتم
ان العفيف اذا استعان بخائن كان العفيف شريكه فى المأتم

فاستوقف كل عامل يدعى حاتما حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه

واعترضته امرأة فقالت : ياعصبة رسول الله انظروا فى حاجتى فقال : اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فانى ماسمعت أحداً خاطبنى بهذا

ومن غرر أقواله قوله : « ماتوسل الىّ أحد بوسيلة هى أقرب من تذكرى يداً سلفت منى اليه أتبعها أختها وأحسن ربها فان منع الاواخر يقطع شكر الاوائل »

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد وترييضهم على العمل فى أيام سلفائهم ليمكن لهم أن يثقوا بنظرهم لهم ويتحقق منهم النظر فى مصالح الامة لدينهم ودنياهم متى أصبحوا ائمة عليها ووجب على جميع الرعية طاعتهم

ان ولى العهد اذا أصبح ليس بينه وبين تحقيق أمنيته الا موت العاهد له كان ذلك شؤما عليه وعلى الامة وأي شؤم . فانه يبطئ بنفسه عن كثير من خصال الخير ولا يوجد له احساس يدفعه لحب التعليم ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الامة بخلاف ماذا سلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين على نظر من الخليفة والناس ودفع على الامور ورأى المنشط منها والمكره وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى أصبح من اجله امير المؤمنين كان ذلك

من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق اهوائهم باتفاق اهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن لما فيه من انتفاء الريب

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه . ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الاهواء واتحاد النفوس واجعل أشد ما تتواجد عليه ايثار مصلحة المسلمين على كل شئ فى كل شئ من أمر دنياهم وآخرتهم

الرشيد

هو هرون الرشيد وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أبا موسى) ابن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

تولى الخلافة بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة . هذه الليلة من أعجب الليالى . تولى فيها الرشيد الخلافة . وولد فيها له عبد الله المأمون . ومات فيها أخوه الهادى . وليس فى ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة . وقيام خليفة . وولادة خليفة غيرها . فان كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل :

الليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

فهذه الليلة من تلك الليالى

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال رأى الرشيد فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع وستين فقال له ان هذا الامر صائر اليك فاغز . وحج . ووسع على أهل الحرمين . فقام غازياً أطراف الروم وغنم وانصرف فى شعبان فحج بالناس فى الموسم وفرق على أهل الحرمين مالا كثيراً وصدق الله الرؤيا . وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها وفيها ولد له الامين

كانت ولادة الرشيد بالرى فى أواخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام فارضعت أم ابن يحيى الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الايام وما بعدها أميراً على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما .

هذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها فى عدلها وحلمها وانصافها واقامة عماد دولتها واظهار شأنها وحماية ناموسها وحاطها بأنواع الاسباب التى تدفع عنها المكاره . هو الذي مثل البذخ والترف والمجد والشرف والابهة والعز والعظمة والسودد والنعيم المقيم الذى جمع دواعى اللذائذ الدنيوية والفوائد الاخروية . وهو الذى اجتمع له في خلافته مالم يجتمع لغيره . وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف . وشاعره مروان بن أبى حفصة ونديمه العباس بن محمد عم أبيه . وحاجبه الفضل أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل

ان المكارم والمعروف أودية أحله الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة فاذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة . قال الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ففى الحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طمرّ وفى البلد المحرم فوق كور

كان مفردا في تعظيم حرمات الاسلام والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ محباً للعلم وأهله مبغضا الرياء فى الدين والمعارضة فى النص

كان الرشيد أبيض طويلا جميلا مليحا فصيحاً له النظر النافذ فى العلم والادب . كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها الا لعلة . وله صدقات من صلب ماله تزيد عن ألف درهم فى كل يوم . وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف . فمن أحسنه (وما أحسن شئ كله حسن) ماحدث به أبو معاوية الضرير . قال أكلت مع الرشيد ثم صب على يدي الماء رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : تدري من صب عليك ؟ قلت : لا . قال . أنا

اجلالا للعلم ورعاية لاهله . وقال القاضى الفاضل في بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم (ماأعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم الا الرشيد فانه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ثم رحل لسماعه أيضاً مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الاسكندرية فسمعه على بن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد) . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى (خزانة المصريين)

كان مولعاً باحترام العلماء فمن فضائله فيه انه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله وأمر الاعيان والامراء أن يعزوه

كان بكاءً على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه سيما اذا وعظ . ولم ير أغزر دمعا منه عند الذكر . ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى

دخل عليه ابن السماك يوما وكان يعظه فاستسقى الرشيد فأتى له بماء فقال له ابن السماك على رسلك ياأمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها ؟ قال بنصف ملكى . قال اشرب هنأك الله بها . فلما شربها قال أسألك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها ؟ قال بملكى قال ان ملكا قيمته (كذا) و (كذا) لجدير أن لاينافس فيه . فبكى الرشيد . وقال يوماً لشيبان : عظنى . قال لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الامن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لى هذا . قال : من يقول لك انك مسؤل عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك وجبروتا وشدة مع الحق كثير الكراهة للباطل متتبعا للزنادقة طالباً لهم وكان القول بخلق القرآن

شائعاً في عهده فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء حتى يقتص منه أشد القصاص

كان شديد الاقتفاء لأعمال جده متطلباً للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله وصيانة سرير ملكه وحفظ أبهته وزيه فلم يختلف عنه فى شئ الا فى البذل والنوال لانه لم ير خليفة بذل مابذله الرشيد في العطايا من مال وخلع. فكانت صلته تصل مابين الانسان وبين الغنى. وتقطع مابينه وبين الفقر والاحتياج

ولى الخلافة بعد ماتنقل فى مهام أمورها فقد استعمله أبوه المهدى فى الاعمال وريضه عليها فجهزه مراراً للغزو بالصائفة والايغال فى بلاد الروم. وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله وأذربيجان وارمينية وجعل كاتبه ثابت بن موسى. وعلى رسائله يحيي بن خالد فنشأ خير نشء وظهر بخير مظهر

كان فى غرضه أن يوصل مابين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى القرما (أى ان يفتح ترعة السويس) فشاوره وزيره يحيي وفكرا طويلا فانكشف لهما تغول الروم تخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم وقربهم من الاراضى المقدسة فنزعا عن هذا الفكر

هذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم فلا يتورطون فى أمور لاقبل لهم بها ولا يغررون بأنفسهم لانهم يعلمون معنى المسؤلية التى تحيط بمركزهم فلايقدمون على شئ الا ولهم منه مخرج ولوكان للناس وزير كيحي لخفف من هذا البلاء النازل أوحده أو تلطف فلطف من قضائه المبرم وعاق امتداد الايدي الاجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى جاز حده البحار والقفار

ازدهى عصره بين الاعصار بوجود كثير من العلماء الاعلام فيه كالامام سيدنا مالك بن أنس . والليث بن سعد . والكسائى . وأسد الكوفى . ومحمد ابن الحسن . من كبار أصحاب أبى حنيفة . وصعصعة بن سلام عالم الاندلس وغيرهم . وهذا أيضا من سعة رزق خلافته وارادة الله سبحانه وتعالى له الخير ببطانة الخير والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح

نقل شيئا كثيراً من عوائد الفرس منها الكرة والصولجان . ورمى النشاب فى البرجاس . والشطرنج . وجعل لكل شئ قاعدة ومرتبة حتى المغنين فانه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها

كانت بغداد فى عصره نادرة الدنيا . ونكتة المدائن . فريدة في حضارتها وعمارتها ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا ذلك (في النبذة التاريخية) فأيامها أعياد . ولياليها أعراس . وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ونبه من ذكرها وهو بما أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة . دعا الناس بلسان الامن والامان الى المبادرة اليها بالمتاجر والعروض فتناهوا فى الطلب والاقدام على العمل بعلو الهمة وجلس للناس فى منصة عدله وعمهم برحمته فشمل القوي والضعيف والعاجز والعليل وذوي الحاجات ومن لا وسيلة لهم فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الاهواء وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب

أما غزوه . وفتحه . وحجه . وفديته . فكثير . منه انه فى سنة واحد وسبعين ومائة حارب الضحصح الخارجى بالجزيرة وقتله . وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة وحج بالناس وأحرم من بغداد . وفى سنة أربع وسبعين حج بالناس وقسم مالا كثيراً . وفى سنة ست وسبعين ومائة عقد لابنه

محمد ولاية العهد ولقبه (الامين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين . ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة (مدينه دلسه) على يد الامير عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح العباسى وفى سنة واحد وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم وبلغ انقره

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر وبايع لعبدالله ولده بولاية العهد بعد الامين وولاه خراسان ومايتصل بها ولقبه (المأمون) وسلمه الى جعفر بن يحيى (وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ماجرب عواقبه فى نفسه ورأى ماصنعه أبوه وجده بعيسى ابن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وبعد ماصنعه أخوه الهادي معه لخلعه من العهد وتولية ابنه جعفر ولولم يعاجله الموت لفعل) ولكن نفذ قدر وضاع حذر

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة وسار الى مكة من الانبار وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطية . عطاؤه وعطاء الامين وعطاء المأمون . ثم سار الى مكة فأعطى أهلها أيضا . وولى الامين العراق والشام الى آخر المغرب . والمأمون همذان الى آخر المشرق . وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالاشهاد وعلقهما فى الكعبة فقال الناس قد ألقى بينهم شراً وحربا وخافوا العاقبة وكان ماخافوه

وفي سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (زينى) ملكة الروم فكتب للرشيد كتابا يقول فيه : « أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام

البيدق فحملت اليك من أموالها احمالا لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها والا فالسيف بيني وبينك » فلما قرأ الرشيد كتابه كتب اليه : « قد قرأت كتابك والجواب ماترى لاماتسمع » وسار ليومه ولم يزل حتى نازله وفتح مدينة هرقل بالغزوة المشهورة ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه

وفى هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه وعظم فى نظر الناس مالهم من الآثار وبعد الصيت وكثر مااختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة . وقيادة وحجابة . وسيف وقلم . واقتصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الامراء واستجاربهم العانى والمعدم والمذنب فأجاروه فأهاجوا بذلك كامن الغيرة وسلطوا عليهم بأس الانتقام ومكنوا منهم جماعة الحساد (والدهر حرب «للمقام » العالى) ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم اسوة ولمن بعدهم عبرة . كانت دليلا جديداً على ان الدنيا دول والمال عارية . نكبة أمسكت لسان المادح وقطعت لسان الحاسد. وبكاها الولى والمولى والعدو والجاحد . نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد سعياً . وأقسم الجود أن لا يحيي بعد يحيي . « ان فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

ثم فادى الرشيد في سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم حتى لم يبق فى الأسر مسلم وهو أول فداء كان لبنى العباس . وفي سنة تسعين ومائة فتح

« هرقلة » وبث جيوشه بأرض الروم وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبه . وافتتح يزيد بن مخلد (قلفونية) وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو فوصل طوس فتمرض بها ومات فى ثالث جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة (رحمه الله) وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة . شهيد الغربة شهيد الجهاد فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء تسبح فى ملكوت الله فى أعلا عليين . ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم وسار على البريد فى اثنى عشر يوماً من « مرو » حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ودفع ذلك للأمين

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

هذه سيرة هذا الخليفة الخامس من بنى العباس طالت ولم نستوف شطراً من فضائله . والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون اليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة الله يعلم انه برئ منها . وأنى ذلك وهو من العلم والسذاجة واجتناب المذمومات فى دينه ودنياه والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب بمرتبة تشبه مراتب السلف وحاله فى اجتناب الخمر معلومة لجميع بطانته وأهل مائدته وكفى بتغيره على طبيبه بختيشوع دليلا على ذلك

وكيف يعقل ان الرشيد يواقع محرماً وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل ابن عياض وابن السماك والعمري . ومكاتبته سفيان الثورى وبكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها

ان الرشيد رحمه الله أجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته لقربه من خشونة البداوة وسذاجة الدين فالله يقتص له وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا مادونوا عنهم فرية وكذبا وزوراً وبهتانا ارضاء لجماعة العجزة الذين لاشغل لهم الا أحاديث النميمة والغيبة واكل لحم اخوانهم كأنهم أعداء للعلم والدين والسلطان

ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

المأمون

هو عبد الله أبو العباس ابن الرشيد بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة ومات سنة ثماني عشرة ومائتين وعمره ٤٩ سنة واستقل بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ وهو بخراسان واكتنى بأبي جعفر . قال الصولى وكانوا يحبون هذه الكنية لانها كنية المنصور وكان لها فى نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كنى بها كالمنصور والرشيد

ولما تأتى الملك للمأمون قال : هذا جسيم . لولا انه عديم . وملك . لولا انه هلك . وسرور . لولا انه غرور . ويوم . لو كان يوثق بما بعده . سمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام وأبى معاوية الضرير وغيرهم وأدّبه اليزيدى وجمع من الفقهاء والأدباء حتى برع في الفقه والعربية وأيام الناس وعنى بالفلسفة وعلوم الاوائل وهو الذى استخرج كتاب أقليدس وأمر بترجمته وتفصيله وهو الذى عقدت فى زمانه مجالس المناظرة . خصص لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع وترقت العلوم فى عهده وتفشت بين العرب . وهو أول من قاس الدرجة الأرضية وعرف مقدارها وأخذ من كل العلوم بقسط وضرب فيها بسهم

وأخرج محمد بن عباد انه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء الا عثمان بن عفان والمأمون (ولكن فى هذا نظر)

اشتغل بالحديث حتى قالوا ان الرشيد لما حج معه طلب المحدثين فبعث اليهم بالأمين والمأمون فحدثوهما مائة حديث ثم قال المأمون أيؤذن لى ان أعيدها من حفظي ؟ قيل نعم فأعادها . وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة

واليونان من جزيرة قبرص وهو الذى قال «لانزهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال»

كان المأمون أفضل رجال بنى العباس حزما . وعزما . وحلما . وعلما . ورأيا . ودهاء وهيبة وشجاعة . وسوددا . وسماحة . وله فضائل وسيرة طويلة كلها محاسن

كان أمارا بالعدل فقيه النفس معدودا من كبار العلماء اجتهد فى رأب الصدوع وسد الفتوق واصلاح ماتشعث من بنيان الدولة . ولكن الخلاف بينه وبين الامين أخيه اشتعلت نيرانه وأزكيت تنوره بأيدى بطانة السوء بالسعى والاغراء وزيادة الوحشة ابقاء على انفسهم وحياتهم الشخصية كالفضل ابن الربيع وعيسى بن ماهان والسندى وغيرهم . أفسدوا دم الاخوة حتى رضى الامين بخلع أخيه المأمون وتغيظ المأمون حتى استحل قتل أخيه الامين وكل هذا سببه هذه البطانة التى مازالت تصغر للأمين من أمر أخيه وتزين له خلعه حتى رجع الى رأيهم وهم يكذبونه ويغشونه ولا يصدقونه . وهكذا بطانة السوء فى كل وقت وزمان ليس لها شغل الا فساد ذات البين وتغيير قلب التابع والمتبوع خدمة لمصالحهم الشخصية

استدعت هذه المبادئ التى زرعت بذورها بيد الاعداء ان لاتصفو الايام للمأمون كما يحب ويختار لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهارا . وابراهيم بن موسى باليمن . وثوار بغداد الذين اشتد أذى فسادهم على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية . كأن الامين فتح للناس باب الخلاف ونقض العهد . وكأن المأمون جرأ الناس على خلعه بخلع أخيه وقتله وعلمهم نكث العهد والبيعة فكان ذلك سببا

لكثرة خروج الثوار عليه . كأن لله فى ذلك حكمة عجيبة وسراً في خليقته . من يظلم يظلم . حتى لاينتقض متبوع على تابع ولا تابع على متبوع حفظاً للعهد ورعاية للبيعة واستكمالا لاسلوب نظام الحكومة التى منزلة القائم بها (خليفة الله في أرضه)

رأى المأمون كثرة الثوار عليه وخروج الكثير بدعوى الخلافة وهم من آل البيت فعمد الى على الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر وجعل فيه ولاية عن المسلمين فكان كما قال الشاعر (كلما داويت جرحا سال جرح) . نبض في بنى العباس عرق الخلاف وصعب عليهم الامر وخلعوا المأمون ولولا اتفاق موت على بن موسى الرضى لازدادت هذه الفتن واشتد أمرها وكل هذا نتيجة وجود الدخلاء من غير الملة والامة الذين لايعنيهم الا شؤونهم الشخصية فى كل وقت

يعجب الانسان من شأن الخلافة العباسية وبدء انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها (المأمون) الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه ان يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاض وان يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة وتنازع ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى ينذر الناس بها ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تقويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم

كان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من اقليم الى آخر فجال فى بلاد الشام وتفرج على آثارها ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذي فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الاكبر)

انتقل المأمون الى بغداد فانقطعت بقدومه الفتن وفر أصحاب الفساد وشرع المأمون فى فعل مايؤثر عنه من جميل الفعال والعناية بالعلوم والمعارف ومعاشرة العلماء والادباء ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغنم فيها وفتحها. سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات قاضى القيروان وهو من أصحاب مالك وهو مصنف (الاسدية) فى مذهبه بجيش فى البحر قاصداً جزيرة (صقلية) فلما وصلوها ملكوا كثيرا من سواحلها واستولوا على مدينة (سرقوسه) وافتتحوا عمرانا كثيرة حولها وفى هذه الحادثة ظهرت شدة المسلمين وقوتهم. فانه في أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات أميرهم فرأوا أن يسيروا بمراكبهم فوقف لهم الروم على باب المرسى فلما تضايقوا جمعوا أمرهم وأحرقوا المراكب وعادوا للبلاد فحاصروها واستلموا حصنها وحصنا آخر اسمه (جرجنت) ومدينة (قصريانه) ثم استمرت الغزوات ووصلت مراكب كثيرة من افريقيا فيها المدد للمسلمين وساروا الى ثغر (باليرم) ثم ساروا الي جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية وهم فى كل ذلك غانمون

وحج المأمون بالناس سنين عديدة

ثم دخلت سنة خمسة عشر ومائتين فسار المأمون الى بلاد الروم من طريق انطاكيا وافتتح حصن (قرة) عنوة ونحوا من ثلاثين حصنا أخري

وكان المأمون كريما ينفق انفاق من لا يخاف الفقر وحسبك أنه لما ابتني (بوران) كانت عطياته رقاعا فيها أسماء ضياع فكل من سقطت في يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الأنماطى قال تغدينا مع المأمون مرة فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون وكلما وضع لون قال هذا نافع لكذا ضار لكذا من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أنواع الطعام ومضارها بالنسبة لاصحاب الامزجة على اختلاف أنواعها

ومن أغرب مايؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت اليه فقالت ياأمير المؤمنين مات أخى فخلف ستمائة دينار فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون هذا نصيبك . قالت وكيف ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال الرجل خلّف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخا . قالت نعم قال فللبنتين الثلثان . أربعمائة . وللوالدة السدس : مائة . وللزوجة الثمن . خمسة وسبعون ولكل أخ ديناران ولك دينار

كان مع جالينوس فى معرفة النجوم . ومع هرمز فى الحساب . ومع على بن أبى طالب فى الفقه . فكان يفضل الناس بعقله وكماله ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته . أخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم قال بت عند المأمون ليلة فأخذه سعال فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه . وكان فيه رفق بخدمه وخاصته . قال عبد السلام بن صالح بت عند المأمون ليلة فنام القيم الذى يصلح السراج فطفئ فقام المأمون وأصلحه . وقال الصولى كنا في السفر مع المأمون فكان يتفقدنا فى الليل ويغطينا

ومن كلامه : ماأقبح اللجاجة بالسلطان . والضجر من القضاة . والسخافة بالفقهاء . والبخل بالاغنياء . والمزاح بالشيوخ . والكسل بالشباب . والجبن بالمقاتل

وكان يحب لعب الشطرنج ويقول انه يشحذ الذهن

وكان يقول مافتق عليّ فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال (ولقد صدق المأمون فان العمال أيدى الملك وآذانه الذين بهم تدار الامور فى الجهات القاصية البعيدة وتسمع بهم الشكوى فان لم يكونوا متفقين على تقوى الله عاملين بأحسن السير غير غافلين عن أمر الرعية شيئاً نزلت بساحتهم المفاسد وتجردت عليهم الاعداء وذهبوا وذهبت الجهات العاملين عليها من قبضة الحكومة وتولى أمرها غيرهم وفى السودان المصري عبرة لمعتبر فضلاعن الجزر والاماكن والنواحى والبلاد التى كانت للاسلام وضاعت بهذا السبب)

ومن حكمه قوله : الناس ثلاثة : غذاء لابد منه . ودواء يحتاج اليه في حال المرض . وداء مكروه على كل حال

وله الخطب البليغة والفقر الغريبة ومن ذلك : أعيت الحيلة فى الامر اذا أقبل ان يدبر واذا أدبر ان يقبل . وكان يقول : معاوية بعمره وعبدالملك ابن مروان بحجاجه وأنا بنفسى . وكان كما قال عنه الرشيد : فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعزة الهادى

ثم دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين فمرض فيها المأمون لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة بعلة الحمي فأمر أن يكتب الى البلاد بالوصية والبيعة لاخيه المعتصم ثم أوصاه وصية لم يفلت منها شيئاً من وجوه الخير . فمن بعض ماجاء فيها : « ياأبا إسحق « كنية المعتصم » ادن منى واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد له الخائف من عقابه وعذابه » ومنها « خذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شئ وانصف بعضهم من بعض وتأن بهم ولا تعجل » ومنها « ياأبا اسحق عهد

الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله في عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته : اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون » وهى طويلة ثم مات بالبذندون من أرض الروم ونقل الى طرسوس فدفن بها

قال الثعالبي ولايعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون: ذاك (بطوس)(١) وهذا (بطرسوس)(٢)

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ونظر للمصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجتماع على الرضى بأحكامه من مسلم وكافر حسبما تقتضيه الشريعة الاسلامية . ويجعل المعاند لها مقراً ومعترفاً بأن قوانينها مجتمعة من الاحكام الشرعية والآداب الخلقية والقوانين الاجتماعية الطبيعية بمراعاة مايلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لأحكام الشرع الشريف فهى أرقى من حكم الحكماء وأدب الأدباء ووصفيات من فاق ممن فات من أصحاب القوانين والدساتير ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها

حاشا لله أن نترك خبر هذه الخصلة الشريفة يمر على الاسماع من غير حكاية مفيدة . وشاردة مثبوتة . تنبئ عن فضيلة الوالى والمولى عليه بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذي كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبدالله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر فانه كتاب جمع الوصية بجميع مايحتاج اليه العامل فى عمله بل السلطان فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما

---

(١) طوس بلدة باقليم خراسان

(٢) طرسوس بلدة فى آسيا الصغرى

لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة . وهذا نص الكتاب

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

«أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك فى الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤل عنه والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه

فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسربهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك

وأول ما يوقفك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك . وتنسب اليه فعلك . المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها وترتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر

ثم اتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على

خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده

واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عزوجل وتقواه وبلزوم ماأنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ماجاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عزوجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أوكرهت لقريب من الناس أولبعيد.

وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فان أفضل مايتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد مع مافى ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك

وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شئ أبين نفعاً ولا أخص امناً ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا فى دنياك كلها

ولاتقصر فى طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته. أما تعلم ان القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وانك لن تحوط نفسك من قائل ولاتنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك

رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك

ولاتتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان ايقاع التهم بالبرأ آءوالظنون السيئة بهم آثم إثم . فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولاتتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ماينقص لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ماأحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياءوحياطة الرعية والنظرفى حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحياللسنة

واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم انه مسؤول عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدي وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولاتعطل ذلك ولاتتهاون به ولاتؤخر عقوبة أهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك مايفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

واذا عاهدت عهداً فاوف به واذا وعدت الخير فانجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن

قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لايسلم صاحبها وقائلها لايسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر.

واحبب أهل الصلاح والصدق واعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزازه أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك واظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى

واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله

وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ماأشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأى وقلة اليقين لله عز وجل واخلص لله وحده النية فيه واليقين

واعلم ان الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغيير النعمة وحلول النقمة الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله

ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة للملهوفين.

واعلم ان الاموال اذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لاتنموا واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامه وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال فى عمارة الاسلام وأهله ووفرمنه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهدمايصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لماشملهم من عدلك واحسانك أساس لطاعتك

وطب نفساً بكل ماأردت واجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب وليعظم حقك فيه وانما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار

وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله .

واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً واحسانا فان الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين . ولاتحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن عدواً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا تحمدن مرائياً ولاتحقرن انسانا ولاتردن سائلا فقيراً ولاتحسنن باطلا ولاتلاحظن مضحكا ولا تخالفن وعداً ولا تذهبن فخراً ولا تظهرن غضبا ولا تباينن رجاء

ولا تمشين مرحا ولا تذكين سفيها ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا

واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم

وليس شئ أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم انك اذا كنت حريصاً كنت كثير الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم

ووال من صفا لك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم انه أول ما عصى به الانسان ربه وان العاصى بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق

واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن ان الجود أفضل اعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتيبهم وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا

وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد

البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا

واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شئ من الامور لانه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها

واشتد فى أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه في صحتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها .

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغاراً فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيأ منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك أجمع لألفتهم والزم ارضاء العامة .

واعلم انك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعيا وانما سمى أهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم فخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك فلايشغلك عنه شاغل ولايصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولاتقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معايناً لاموره كلها واذا أردت ان تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ماأردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه والافتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على مايهوى فاغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ماأردت وباشره بعد عون الله عزوجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولاتؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت .

واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وتستيقن أمر سلطانك وانظر احرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لايجدوا خلتهم مسافراً وافرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لايقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة . وأجر للامراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره فى الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال

واعلم ان الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أماناتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لامور الناس لكثرة مايرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ماينال به مؤونة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقري مايقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته . واكثر الاذن للناس عليك وارهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك

وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للضيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البائدة . ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه واجتنب مافارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ماتجمع عمالك من الاموال وماينفقون منها ولاتجمع حراما ولاتنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومقالتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك في ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولاتمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ولا تضعن المعروف الا على ذلك . وتفهم كتابى اليك وامعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله . وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ماكان لله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزاً وتمكيناً وللملة والذمة عدلا وصلاحا . وأنا

أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام»

اذا افتخرت بالابناء الآباء وازدهت المنابر بالخلفاء فالمأمون سيد النجباء ورئيس الحكماء وزين العلم والعلماء . ولكن انشقت العائلة الحاكمة على نفسها وتولت هذا الشقاق يد الاعداء فما لبثت هذه الحالة ان استعصى علاجها على الحكماء والامراء والقادة وفتح باب للشر كان مغلقاً وكل هذه الحوادث ضربها الله مثلا للعظة والاعتبار ليأخذ كل قائم منها بنصيب ويضرب فيها بسهم ويتقى الله فى نفسه وفى رعيته ويجعل هذه الحوادث بمنزلة المدارس والواعظ له ليقول الانسان عنها على سبيل التعزية : « ان كانت أساءت قوماً فلقد انتفع بها قوم آخرون » فحال الكثير من هذه الحال قريب والعاقل من اعتبر بغيره وقاس يومه على ماضيه . ونظر الى الدنيا وقرأ عظات الدهر فى صفحات أيامه فانها الجريدة الباقية على ممر الازمان التى لاتمحو سطورها يد الحدثان ولا يبليها مر الجديدان

المعتصم بالله

هو أبو اسحق محمد بن الرشيد ولد سنة ثمان وسبعين . كان ذا شجاعة وقوة وهمة وكان يقال له (المثمن) لانه ثامن الخلفاء من بنى العباس . ثامن ولد للعباس . ثامن أولاد الرشيد . وملك سنة ثمان عشرة . واستمر فى ملكه ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانياً وأربعين سنة . وفتح ثمانية فتوح . وأسر ثمانية ملوك . وخلف ثمانية أولاد . وثمانية أناث

كانت قلوب الجنود أشربت الخلاف بما شهدوه من الوقائع بين الامين والمأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة فتأصلت فى النفوس حاجات وفى الطباع خصال لا ينبغى أن تلامس قلب الجنود المطلوب منهم الطاعة والانقياد لاميرهم

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ونادوا باسم العباس بن المأمون وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل فأرسل المعتصم الى العباس وأحضره فبايعه ثم خرج العباس الى الجند وقال لهم قد بايعت عمي فسكتوا وانصرف المعتصم الى بغداد ومعه العباس بن المأمون

قال ابن المقفع : « ان الذى يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الاسد : الناس تراه فتوجل منه وراكب الاسد أشد وجلا » لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحواً من خمسين ألفا من التركمان مخافة أن توقع به الجنود واتخذ منهم لنفسه حراسا وولاهم محافظة الثغور والحدود فكانوا يزدادون يوما عن يوم حتى كانت القوة بأيديهم في عهد الخلفاء من بعده كما ستقف عليه ان شاء الله

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بان الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم اذا كان حكم المؤرخين على الدولة العباسية بالانتهاء كان لمجرد استخدامها جنداً غير العرب فبماذا نحكم على أمة من المسلمين رضخت لغيرهم وتمثلت بهم وهم يخالفونها فى كل مذهب وزادت بها السماجة حتى أصبحت تعتقد ان التشبه بهم فلاح (ان فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

كان المعتصم طيب الأخلاق سديد الرأى قويا ذا نجدة وهمة . يروي عنه انه بلغه أن تيوفيل ملك الروم خرج وأغار على بلاد الاسلام وان امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدي جنده : « وامعتصماه ! » فأجابها وهو جالس على سرير ملكه « لبيك لبيك !! » وقام من ساعته ناهضاً وجمع من وقته جيشاً لم يماثله فيه أحد عددا وعدداً

وأوقف ما يملكه من الضياع ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثاً لمواليه وقصد مدينة (عموريه) وهى أشرف لدى الروم من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد منذ كان الاسلام فوصلها وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد

استولى المسلمون على المدينة المذكورة ومنحهم الله النصر العظيم وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه . وذلك أن العباس بن المأمون اجتمع عليه بعض أناس وأغروه وبايعوه وانه كاتب طاغية الروم فاعجل المعتصم فى مسيره حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية . وهكذا أهل السوء تنتهز مثل هذه الاوقات التى يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم وتقف أمامه بالفتن والمفاسد وتسد طريق سعادتها الدنيوية والاخروية فتتخالف فى موضع الاتفاق وتتقاتل فى ساعة التناصر وتتناهب في أوقات المناصفة . وتدعوها خلال السوء لان

تستعد للوثبة عند عدم الحاجة اليها . وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغبات تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لها رب الدين وخالق العالمين

استكثر من الجند حتى ضاقت بهم بغداد فجدد بناء مدينة (سر من رأى) وتحول اليها وخرجت فى زمنه جماعة من الثوار وأصحاب الاقوال والمدعيات فمكنه الله من رقابهم ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر

أسر ملك أذربيجان . وملك طبارستان . وملك استسيان . وملك اشباصح . وملك فرغان . وملك تخارستان . وملك الصفة . وملك كابل . وبلغ ما أراد وزاد عليه بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظا من النظام وروحا من الطاعة وولعا وعشقا من الامة فى تأييد الخلافة ولم تكن الامور معرضة للخطر واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة فى النفس لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للامة الاسلامية

وقد أسهب جماعة المؤرخين فى وصفه وسعة أخلاقه وكريم عشرته وانه لم يكن أسمح منه بالنفقة فى وقت الحرب . وروى عنه أنه تصدق بمائة مليون درهم . ومن مكارم أخلاقه أن انقطعت عنه أصحابه فى يوم مطير فبينما هو يسير إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه ووكل منهم به من يسير معه

قال اسحق ابن ابراهيم : سألنى المعتصم فقال نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فافلحوا واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . فقلت أجيب

على أمان من غضبك . قال نعم . قلت له ياأمير المؤمنين نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فنجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها . فقال ياإسحق : لمقاساة مامرّ بي طول هذه المدة أيسر عليّ من هذا الجواب

(ان عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الأمة يتقلب بها الحال في كل وقت الى أشأم مايكون لانهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب موضع السلام ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضاً للهلكة لان هذه الطائفة أقرب الناس الى الملك وهى التى تمثل طباعه وأغراضه ولا ينبغى ان يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم)

كان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها أموراً محمودة . فأولها عمران الارض التى يحيي بها العلم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش الانعام وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش . ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وسائر ماينتفع به الناس

ثم اختاره الله سبحانه وتعالى للدار الآخرة فقضى في قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين . وقال عندما احتضر « ذهبت الحيلة فليس لى حيلة »

وكان للمعتصم كلمات فصيحة وشعر لا بأس به وسيرته هذه اذا لوحظ فيها ماطرأ على مصالح البشر من الفساد وما قذفت به الأمة الاسلامية نفسها

فى مهاوى الشر من الطيش والنقص تكون خير نذير لما فيها من المنفعة واشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها وتفقد ماقصد بوضعها

اللهم قنا شر نزغات الأهواء وأنزع من نفوسنا حب الغلبة على ماحولنا وصرّف ارادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد والهمنا معرفة العارفين وارادة المختارين لتستشعر نفوسنا باخير التى هى مسوقة اليه آمين

المتوكل على الله جعفر

هو المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد . بويع له فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

كان المتوكل ذكى الفكرة زكى الفطرة ظهيراً للسنة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافعة عنهم . فأخذ منذ ملك قياد الأمر فى رفع المحنة التي وقعت والبلية التى عظمت وهى محنة القول بخلق القرآن التى استمرت من عهد المأمون الى عهد المتوكل . وانقضت السنين الطويلة والأمة لا تعان على صرف بليتها عنها مع انها على غير طائل وقد أصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر . وأمر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم والواثق وأمر بالتسليم والتقليد

كتب المتوكل الى الآفاق في سنة أربع وثلاثين بترك هذه البدعة واستقدم المحدثين الى سامرا (سر من رأي) للتحديث واظهار السنة والجماعة وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية وأجلس أبا بكر بن شيبة فى جامع الرصافة فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف نفس . وأجلس أخاه عثمان فى جامع المنصور فاجتمع اليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس وتهلل الناس فرحا وانطلقت الألسنة بالدعاء للمتوكل وبالغوا فى الثناء عليه ووافق ذلك إصابة ابن أبى دؤاد (محدث هذه البدعة ومبتدعها) بفالج صيره حجراً ملقى فأزاح الله هذه البلية ورفعها عن أمة نبيه صلى الله عليه وسلم واستراح الناس

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه حتى قال قائلهم :

« الخلفاء ثلاثة » (أبو بكر) رضى الله عنه فى قتل أهل الردة (وعمر بن عبد العزيز) فى رد المظالم (والمتوكل) فى احياء السنة وإماتة التجهم

اللهم لا سيطرة على خلفاء الاسلام ولكن الانسان يستخذي من نفسه اذا وجد أن عهداً طويلا وزمناً مديداً استوعب خلافة أربعة من الخلفاء ينقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ما وسع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام والانصراف الى فتح الفتوح والتوجه لما فيه المنفعة استجلابا لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانية والأمور الحربية بالجمع والتفريق والتبعيد والتقريب والتشتيت والتأليف واستعمال المجربين الذين أمنت خيانتهم وتحققت أمانتهم حتى ينقلوا طبع الامة من الميل الى الاعتدال ويعرفوها صفات الخير والصلاح

ينبغى للامة الاسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث فتتجنب كل ما يؤديها للتفرقة ويجرها للتباغض ويجعل سهمها بينها فان شر الافتراق قد جر عليها ماجره من الويل والثبور وأصبحت وقد ضرب بينها بسور من التخاصم والتباغض ولا حول ولا قوة الا بالله

وفى سنة ثمان وثلاثين حدثت حوادث جوية عظيمة منها خروج رياح بالعراق شديدة السموم أحرقت الزرع ومنعت الناس المعاش . وزلازل فى جهة انطاكية خرت منها الجبال وتقطعت . ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة . وغارت عيون الماء بمكة فأرسل المتوكل لاهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بما تعطف به من الاحسان

وبعث الى بلد الله الحرام بمائة ألف دينار لاجراء الماء من عرفات اليها.

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت ممنوّة بالمشاكل أياما اشتغل فيها بالفتوحات : فى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات

العظيمة واستولى على قصريانة

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية وافتتح جالية الاندلس اقريطش اغتاظ الروم وجهزوا نحو ثلاثمائة مركب عليها ثلاثة أمراء فاخذت بالجولان فى عرض البحر الابيض المتوسط تنتهز الفرص للايقاع بالمسلمين

من ذلك انهم انتهوا الى مدينة دمياط بمائة مركب وخرجوا على غرة من أهلها وكانت فارغة من الجند فاحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ثم رجعوا ويقال انه لم يتعرض لهم أحد في طريقهم

وفى خلافته افتتح (بغا) قائد جنوده مدينة (تفليس) (١) وغزى المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وفتحوا وغزي الفضل بن خاقان بالاساطيل فافتتح حصن انطاكية وفى خلافته أغار (البجاة)(٢) وامتنعوا من أداء الخمس على مصر حتى ولى محمد بن عبدالله القمى اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمر بحربهم فزحف عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان

كانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها لحبه فى استقامة الملك وشمول الناس بالامن ورخص السعر وبث العدل وكونه وسطا فى كل شئ : فى جوده وإمساكه ومضاحكه وهزله ومجونه وطربه. وكان ولعا بالادب محبا للشعر والشعراء وهو الذى يقول فيه بعضهم

فامسك ندى كفيك عني ولا تزد ... فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت فى مدته ثياب لباس الملحم وهى في نهاية الحسن والصبغ

---

(١) تفليس قاعدة الحكومة المحلية فى بلاد القوقاز التابعة لدولة الروسيا الآن

(٢) وهم البشارية الساكنون بالجهة الشرقية من النوبة بين البحر الاحمر والنيل ويوجد الآن من ذراريهم هناك وفى اسوان ولهم عمل فى حوادث السودان

وجودة الصنع وعرفت بالثياب المتوكلية . وحدث في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين والاروقة نسبة الى ملوك الحيرة وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة وخزنة للكسوة وبيت لما يحتاج اليه من شراب وغيره

ولم يعلم بأحد متقدم فى صناعته فى جد أوهزل الاوقد حظي فى دولته بنصيب وسعد فى أيامه فكانت أيامه مزهرة بكل جميل

كان ولعا بحب أهل الخير والصلاح عاشقا للعلماء حتى انه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذوالنون) وتكلم فى ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية وأنكر عليه ذلك عبدالله بن عبد الحكم رئيس مصر وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنه فى زمانه وقال بأنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة وبلغ الامر المتوكل أمر باحضاره فاستدناه وسمع كلامه فولع به وأحبه وأدرك منزلته واكرمه وكان يقول : « اذا ذكر الصالحون فحيهلا بذى النون » . وكان متمذهبا بمذهب الشافعى رضى الله عنه . وهو أول خليفة اتخذ مذهبا وكان يقول : « أيها الناس . ان محمد بن ادريس المطلبي قد صار الى رحمة الله وخلف فيكم عملا حسنا فاتبعوه تهتدوا . اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة وسهل علىّ حفظ مذهبه وانفعنى به »

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك انه جمع فى داره مجلسا من العلماء وكان فيهم أحمد بن المعدل وغيره فخرج عليهم فقام الناس غير أحمد ابن المعدل فقال المتوكل لعبيد الله : « ماباله ؟ » قال : ان في بصره سوء . فسمعها أحمد ابن المعدل فقال : ياأمير المؤمنين مافى بصرى سوء ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن تتمثل له الرجال

قياما فليتبوأ مقعده من النار » فسر به المتوكل وجلس الي جانبه . ومن كلامه مع يزيد المهلبي : « ان الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني »

كان مدركا خطارة مركز الخلافة والمسؤلية التى تحيط به فكان يذوق منها مرارة العواقب كما يسيغ حلاوة المآرب وكان في أغلب أوقاته مطرقا مفكرا

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان وهو على هذه الحالة فقال له : ماهذا الفكر فوالله ماعلى ظهر الارض أطيب منك عيشاً . قال : « يافتح . أطيب منى عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة لايعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج الينا فنزدريه »

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ومات فى عهد خلافته الكثير من خيار الناس والعدد العديد من شرارهم . فمن خيار الامة الاعلام ذوالنون المصرى . وأبو ثور والامام أحمد بن حنبل ودفن بباب حرب في الجانب الغربى بمدينة السلام . وعبد الملك بن حبيب امام المالكية . وسحنون صاحب التآليف . واسحق بن راهويه . ومن أصحاب الفتن ابن دؤاد صاحب فتنة القول بخلق القرآن . وأبو بكر الهذلى العلاف شيخ الاعتزال . وجعفر بن حرب من كبار المعتزلة فأزال الله بموتهم عن الامة ماكان محيطاً بها من الخبال وما اكتنفها من سوء الحال

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت في ليلة ثم نمت فرأيت فى نومى كأن رجلا يعرج به الى السماء وقائلا يقول :

ملك يقاد الى مليك عادل متفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعى المتوكل من «سر من رأى» الى بغداد

وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره . ومن أغرب ماوقع ان المتوكل قال للبحترى « قل فيّ وفى الفتح شعراً فانى أحب أن يحيي معى ولا أفقده فيذهب عيشى » . فقال فى هذا المعنى :

كيف أخلفت ياحبيبي وعدى ... وتثاقلت عن وفاء بعهدى
لاأرتنى الايام فقدك يا« فت ... ح»ولاعرّفتك ماعشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلى ... ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذراً أن تكون إلفاً لغيرى ... إذ تفردت بالهوي فيك وحدى

فقتلا معاً

وأغرب من ذلك ماحدث به البحترى قال : اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف . فقال بعض من حضر : وقع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير . فأمر المتوكل بكتابة كتاب الى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ . فنفذت الكتب . قال البحترى وبينا نحن عند المتوكل فى ليلة أخرى إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه فسر المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان الغداة طلب من الفتح ابن خاقان غلاما يثق بنجدته وشجاعته فجاءه بباغر التركى فدفع اليه السيف وزاد له الرزق ولم تمض الايام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد باغر المذكور قياماً بغرض المنتصر

كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد وسوء التصرف فى أمر ولاية العهد ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد في الامين والمأمون فبايع المتوكل بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة

ثم بداله أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد فأبى فكان يحضره مجلس العام ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه ويوعده . فما زال المنتصر يرتقب الفرص حتى تحقق أن الجيش التركى الذى اتخذه المتوكل انحرف عنه لأمور فاتفق معهم على قتل أبيه فدخلوا عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس أنسه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك في خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين

وفى ذلك يقول البحترى من قصيدة له

أكان ولى العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولّى العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ألا انما المطمئن للدنيا مغرور والساكن للدهر جاهل فهى دار لا يدوم نعيمها ولا يتم سرورها ولا يؤمن محذورها . قرنت السراء بالضراء والشدة بالرخاء والنعيم بالبلوى وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله . عزيزها ذليل وقويها مهين وغنيها محروب وعظيمها مسلوب وليس أبقى على صفحات أيامها من عمل مقصود به الخير والبر والاحسان فهى التى تعجز عن أن تأكله بأنياب فنائها ولا يزال يذكر به فاعله وهو على جدة لا يبلى . فالله سبحانه وتعالى يوفقنا للعمل النافع الدائم الذي لا تبليه الايام ولا تفنيه الاعوام آمين

نبذة تاريخية

قد أتينا فيما سبق من رسائل (حماة الاسلام) بما شاء الله ان نكتب من تراجم خلفاء الدولة العباسية واتصل بنا الكلام لحد ترجمة (الخليفة المتوكل) فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين لاعتبارهم تلاشى واضمحلال الدولة العباسية من قبل ذلك أي (بخلافة المعتصم) لانه انحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة فجعل كبار قواده وعمال جبايته وحاشية خلافته وجنديته من غير اللب الخالص من صميم العنصر العربى

ولكن لما كان من العدل اظهار الفضل وكان(للمتوكل) رحمه الله حسنات كثيرة من أجلها وقوفه امام فتنة القول بخلق القرآن التى هدت الخلافة العباسية وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها . ثم تصديه لاحياء السنن الشريفة المعطلة واماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى «أبا بكر الثانى» . ختمنا به تراجم تلك الخلافة ليكون خاتمة خير لها ولكى لاتغيب عن الذكر أفعاله وفضائله هذه

اضمحلت الخلافة العباسية بالاسباب التى اضمحلت بها الخلافة الاموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل وزادت عليها عوارض أخري أصابتها متتالية فكانت أشد بلاء من تلك الاسباب المتقدمة : منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة والتفرق فى الاعتقاد وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراوندية . وغيرهم . ومنها كثرة وجود دخلاء الأعاجم الذين فعلوا في الدولة العباسية مالايفعله العدو الفاتك بعدوه

ان المستقرئ للحوادث المتتبع لماجريات الاحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والاعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم . أدخلت هذه الطائفة نفسها فى خدمة الخلافة بقصد الانتقام والاخذ بثار الفتوحات الاسلامية التى قامت بها العرب في بلادها من أول فتح المدائن الي عهد الفتوحات العباسية « والخلفاء غفلت عن ذلك » وهو ماتؤيده الاعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند والاقوال الصريحة التى سمعت من كبار قواده

أظهر هذا وهذا ان فى النفوس حزازات قديمة وفى الصدور ضغائن كامنة وان كل أعمالهم أعمال المنتقم لنفسه المضمر التشفى بالعدوان . أماتوا المنتصر مسموماً . والمستعين بالله مذبوحا . والمعتز بالله معذبا عطشان . والمقتدى بالله مقتولا . والمنتقى بالله مسمولا (١) وهكذا لكل خليفة عندهم قود . ودام هذا التجرؤ والعدوان متواصلا منهم على مقام الخلافة وهم يتفننون فى ايصال المكروه اليه وايقاع الاذى به كالحلع والتمثيل والتقتير والتعطيش حتى نمت فيهم القوة وخافتهم الناس اتقاء شرهم وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم (والظلم كمين فى النفس القدرة تظهره والضعف يخفيه) فسمع من (مرداويج) مقدم الديلم باصفهان الذى مات فى خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول « سأرد دولة العجم وأمحق دولة العرب » (رواه السيوطى في تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء) وقد أعينوا على ذلك بقدر من الله وقضاء سابق فحلوها عن بغداد وفعلوا باثارها مالا يفعله السوس بالصوف

الدخلاء فى كل ملة ودولة موضع تنازع مستمر وظلم من الاحن حالكة وكثيراً ماهدموا قصور السلاطين والامراء من كل أمة . وشر هذه الطبقة

(١) سمل العين فقؤها بحديد محماة

لايقف عند حد . وأقرب مذكور منهم من استخدمتهم الدولة العلية «صانها الله» في خاصة خداماتها من الارمن والبلغاريين وغيرهم من أهل البوسنة والهرسك . ثم ماأحاط بالأمة المصرية حتى نزل بها فى هاوية الهلاك

كانت ولاتزال يد الاغراض من كل دولة تدير حركة هؤلاء الاجانب من وراء الحجاب فيتحركون وفق ارادتهم (كاشباح اللاعب) فينشئون سحباً من الاوهام والاباطيل يقذفون بها فى عقول الخاصة فضلا عن العامة حتى يتم لهم من الفتنة مايريدون

وصلوا بسوء أفعالهم في الدولة العباسية الى ان قتل الاخ أخاه ووقعت بين الناس حالة من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم سوأ وخافوا كيد بعضهم بعضا . وانها لموعظة تبقى بقاء الدهر تزعج الغافل وترجع بلب الذاهل وتحمل المعتبر بها من أهل السلطان على رعايتها ليستقيم اليه أمر الناس

تخللت الخلافة العباسية شؤون وأمور ذات بال بعضها يذكر للبركة ونيل الاجر باذاعة الفضل وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى . ولا بد لنا من أن نأتى عليها قبل الانتقال الى ذكر (حماة الاسلام) فى الدول الاسلامية الاخرى لأنها لهذه الخلافة تبع منها تراجم الاربعة الأئمة رضوان الله عليهم وما خصهم من الفضل وابتلاهم به من المحن كأبى حنيفة ومالك بن أنس والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة العباسية ولانهم زينة تراجم (حماة الاسلام) إذهم بهجة مفاخر الأنام. ومنها ماحدث فى مصر من التحالف مع سدة الخلافة العباسية فى عهد المعتضد ونزوعها للاستقلال جرياً وراء أغراض (أحمد بن طولون) والشقاء الذى نجم عنه فى الدولة العباسية والويل الذي جر هذا العمل على أهل مصر لاتباعهم هواه

وسيرهم على وفق خطرات أفكاره بلا تروٍ ولا تفكر حتى انجلى الامر بصرف وجوه المصريين عن باب الخلافة وأصبحوا ملعبة دولة الاخشيدية وخلافة الفاطميين التى سنت لهم سناً تعدت ضروب المحال . ومنها دخول القائد جوهر بجيش المعز لدين الله مصر والاسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته والاحوال التى استكشفها المعز لدين الله فى الامة المصرية قبل أن يدخلها قائده بجيشه فاتحا بما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ وعبرة لمعتبر وزجر لمزدجر ثم نأخذ بعد ذلك فى سرد تراجم ساداتنا خلفاء الخلافة الاموية فى الاندلس التي ابتدأت بالخليفة عبد الرحمن حفيد هشام الاموي فجمعت أشتات الفضائل ورفعت للعلوم والفنون أعظم منار وكانت زينة الاسلام وفخره وعزه وشرفه والله الموفق

أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى . اختلفوا فى تاريخ ميلاده اختلافا كثيراً بين سنة احدى وستين وسنة ثمانين

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين وكان على يده انتشار السنة وتمام حاجة العالم الانسانى بها . وهو المفزع لكل ملهوف . والغياث لكل مهموم . والمنار الذي به يهتدى المتحير . ويسلك الناس على نوره وضح الطريق

هو أحد أركان العلماء وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة . أدرك عصر الصحابة . ورأى أنس بن مالك . وأطبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده . ووفقه الله تعالى حتى اجتمع مايقرب من شطر الاسلام على تقريره والأخذ بقوله . عصمه الله عن القول بخلق القرآن والقول بالقدر والقول بالارجاء مع ان هذه الاقوال وغيرها كانت من مقتضى السير الطبيعى للزمن الذي كان فيه وكانت سبب المودة والقربى للخلفاء والامراء . ولكن أبى الله ان تسطو على روحانيته نفس انسانية

كان حسن الوجه . ربعة . ذاشهامة عظيمة . من أحسن الناس منطقاً . وأحلاهم نغمة . وأنبههم حالة . حسن الهيئة . جميل الثياب والبزة . كثير العطر يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل . شديد الكرم . حسن المجلس . كثير المواساة لأخوانه . وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد إذ سأله عنه فقال : « قال الله تعالى مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وهو عند لسان كل قائل . كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله مجانباً أهل الدنيا فى دنياه طويل الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . ان سئل عن مسئلة

وكان عنده علم فيها أجاب على ماسمع وبما ثبت عنده . ماعلمت ياأمير المؤمنين رجلاً أكثر منه اشتغالا بدينه عن نفسه وعن الناس لايذكر أحدا الا بخير» فقال هرون : « هذه أخلاق الصالحين » . وقال الشافعى رضى الله عنه : « ماقامت النساء عن رجل أعقل من أبى حنيفة » وقال جعفر بن الربيع « أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه اذا ترك ولا أشد سيلانا منه اذا سئل »

كان لايفتر لسانه في خلوته عن تلاوة القرآن وربما أتم فى بياض نهاره ختمة وفى سواد ليلته أخرى وكثيراً ماصلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ولم يسمع حالفاً في عرض حديثه

يروى عنه انه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها فلم يجد علما يسأل فيه صاحبه ويفتى الناس بما يغنيهم به غير الفقه فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلا به . وأتى أبا اسماعيل حماد بن أبى سليمان وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه فى زمانه وله مناقب كثيرة فلازمه ووجد عنده كلما طاب ومازال حتى كان يجلس فى الحلقة بحذائه واستنابه وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ولم يفارقه حتى مات فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة

أخذ حماد بن سليمان رضى الله عنه العلم عن ابراهيم النخعى وهو أخذه عن علقمة والاسود وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فلما مات ابراهيم النخعى رضى الله عنه وكان مفتى الكوفة جلس أبو حنيفة رضى الله عنه للافتاء بعده باجماع من جماعة المسلمين والتابعين واختلف اليه الناس وكان أكثرهم اختلافا اليه

صاحبه أبا يوسف ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره واحتاج اليه الامراء وذكره الخلفاء . جلس للافتاء لينتفع به الناس ويسهل عليهم معرفة حدود الله سبحانه وتعالى ويردهم الى أوامره ويحظر عليهم المحرمات

وذكر فى مسنده مايقرب من مائتى شيخ أخذ عنهم العلم وروى عنهم الحديث وفيهم من التابعين حتى ان بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء فلم يخل حرف واحد منها

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال حدثنا هلال بن بدر أبى العلاء عن أبيه عن أبى حنيفة قال لقيت سبعا من الصحابة وسمعت من كل واحد منهم خبراً

كان غاية فى الفراسة والفطنة حتى كاد أن يدرك بها المغيب ونوادره فى ذلك كثيرة جدا

وهو أول من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب . فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلفه المنصور بذلك

ومن مكارم أخلاقه انه كان له جار يعمل نهاره أجمع فاذا جن الليل رجع الى منزله وقد حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها ثم لايزال يشرب ويغرد بصوته

أضاعونى وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبوحنيفة يسمع كل يوم جلبته . ثم فقده ليلة وعلم أن العسس أخذه فركب واستأذن على الامير وسأله تخليته فقال له الامير : وكل من أخذ فى تلك الليلة . فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة رضى الله عنه (أأضعناك ؟؟) وناوله مايستعين به على نقصان دخله فى أيام حبسه فكشف الله بهذا الفعل

الغمة عن عقل الفتى حتى تاب واختلف الى أبى حنيفة حتى تفقه

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع الى بغداد للتجارة ويجريها مجرى الفضل على اخوانه فيشترى مايحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ويعطيهم محتسبا ربحه من أثمانها ويقول هذا رزقكم أجراه الله على يدى . مثل ذلك ان فقيها احتاج مرة لثوب خز فقال : مالونه ؟ قال كذا . فقال اصبر . ثم استدعاه بعد أيام وقال هذه حاجتك وثمنها درهم . فقال له الفقيه : تهزأ بى . قال لا والله . اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم بعت أحدهما بعشرين ديناراً وبقى هذا بدرهم وما كنت لاربح على صديق . فأخذه وشكره

لقد دفع أبو حنيفة رضى الله عنه لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس وتتصنع لها فامتنع عنها طلبا للسلامة فى دينه . ومنح العطايا فلم يقبلها ومنعه عفاف النفس وطهارة الذيل

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله فى (الطراز) أي صدقات بيت المال فأبى . وطلب منه أبو جعفر أن يلى قضاء الكوفة فلم يقبل فضربه بالسياط وسجنه وقيده بأثقل الحديد فلم يقبل وجاءته أمه وقالت له يانعمان ان علما ماأفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فقال ياأماه لو أردت الدنيا ماضربت ولكن أردت وجه الله تعالى وصيانة العلم ولم أعرضه للهلكة

صدق القائل : « الرجال سواء حتى تقع المحن » . تحتاج الوقفة التى وقفها أبو حنيفة رضى الله عنه أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده وعزم شديد يؤيده وهداية عظيمة تنبهه . حلف عليه أن يلى القضاء فحلف أبو حنيفة أن لايفعل . فكرر الخليفة اليمين فثناها أبو حنيفة . فقال له الربيع أمير المؤمنين

يحلف وأنت تحلف . فقال ان أمير المؤمنين أقدر منى على كفارة ايمانه . فامر بحبسه ومازال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة . وقيل انه توفى فى اليوم الذى ولد فيه الشافعى رضى الله عنه . وتولى غسله الحسن بن عمارة فلما غسله قال رحمك الله يامن لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة والله لقد أتعبت من بعدك

كثرت الاقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه حتى قيل انه كان يخرج فى كل يوم ويضرب فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات . وقيل انهم ضيقوا عليه الامر حتى في طعامه وشرابه . ومهما يكن فى هذه الاخبار من المبالغة فان الحبس متفق عليه لتواتر خبره وكفى به عذابا لمثل هذا الامام العظيم « أشدكم بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالأمثل »

هذا الشعور الذي يهيئ النفوس لارتقاء درجات الكمال والوصول لاطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الاسلام فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى وأوجب هذا حدوث البدع والفوضى الدينية وانصرف كل واحد من الناس الى هواه فانحطت رتبة العلم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظموا

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله وشرحوا للعقول ماخفى من شؤونه وبينوا مداخل السعادة الدنيوية والاخروية فيه وجاؤا للناس معبرين بما تحتمله طاقة العقول ولا يبعد عن متناول الافهام لقومت نفوس وكبحت شهوات . ولكن هذا ماأراده الله ولاحول ولا قوة الا به

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الامام وما كان لنا ولالغيرنا أن

نحصيها وندونها فى مثل هذا القليل ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر . والغرض التشوف لمثل هذا الكمال ونهوض الهمم لقطع سلاسل التقليد واصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كان ينبغى أن تفاخر بها الاجيال وتسمو بها فوق كل كمال

القاضى أبو يوسف رضى الله عنه

هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الانصارى أحد الصحابة رضى الله عنهم . ولد فى سنة ثلاث عشر ومائة وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية ومشهد الخندق فرآه النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل قتالا شديداً على حداثة سنه فمسح بيده الشريفة على رأسه فبقيت في الذرارى بركتها

مات أبوه وهو صغير فقير لم يكن له مايطعمه الخبز ويسقيه الماء فأسلمته أمه الى قصار فكان يفر منه ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه فلما طال ذلك عليها جاءت الى الامام وقالت له ان ولدي هـذا صبي يتيم فقير وقد أفسدته علىّ فقال لها « دعيه فسيأكل الفالوذج في طباق الفيروزج » وناولها مائة درهم وقال اذا فرغت فاعلميني وكان يتعاهدها بعد ذلك كأنما يخبر بنفاذ ماعندها . ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقـة وانتهت اليه الرئاسة الدينية والدنيوية والأمامة فى الفقه والحديث وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه الى رقىّ وكمال وسعادة حال وتسمو به الى مقام رشد بلغه طريق الهدى الالهى الداخل تحت قوله تعالى (انا هديناه السبيل) فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب وأصبحت روحانيتـه تتلذذ بالحديث ونفسه البارة تتنقل فى رياض المعرفة كانما ذلك من بركة تلك المسحة

نذكره بعد أبى حنيفة رضى الله عنهما لانه في مقام حسن الختام لبراعة

استهلال ترجمة الامام . اذ المذهب الحنفى أخذعن أبى حنيفة بالتلقين وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين . وكاملاً الامام به الصدور حلّى به القاضى السطور فنقله من ضيق النفوس الى سعة الطروس فهو اكليل التاج ومفتاح ذلك الرتاج الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده وتكامل علو بنائه الشامخ على يده . فهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه وأملى المسائل ودونها وبث علم أبى حنيفة رضى الله عنه فى أقطار الارض ولم يكن فى زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسنة النبى وأوعى لكتاب الله منه

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء . المهدى . والهادى . والرشيد على كراهة منه لرقّ مقام القضاء . وكان يقول ليتنى لم أدخل فى القضية على ان زين دست القضاء كان محبوباً لخلفاء وقته وزمانه . وكان عند الرشيد حظياً مكيناً . وهو أول من دعى قاضى القضاة لان الخليفة كان يستنيبه فى سائر الاقاليم التى كان يحكم عليها . وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى . وما كان لاحد أن يطمع فى رئاسة بلدة فيها أبو يوسف

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه . من صدق اللهجة وعفاف الطعمة وحسن الصمت وكثرة الوقار وعظم الاناة وعزة النفس وكرامة الخلق وقلة الحرج ولطف الطبع ورقة الحجاب وسعة الصدر والصلابة فى الحق والتواضع لله والثقة فى ذاته والايثار فى إقامة الحدود والمساواة بين الخصوم والتثبت في سماع الحجة فلم يتعمد جوراً . ولم يحاب خصما وكل أحكامه كانت بما يوافق الكتاب والسنة

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) . حج مع الرشيد معادلا له فلما دخل مكة صلى « هرون » بالناس الظهر ركعتين فلما سلم

قام أبو يوسف وقال ياأهل مكة (أتموا صلاتكم فانا قوم سفر) فقال رجل من فقهاء مكة نحن أفقه من أن نعلم فقال له أبو يوسف (لو كنت فقيهاً ماتكلمت فى صلاتك) فطرب لها «هرون» والحاضرون

ومن أغرب ماسمع عن محفوظه وسعة اطلاعه انه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد أثناء مصاحبته فى سفره هذا شيئاً معادا فلم يكرر له خبراً ذكره ولم يعد له حكاية رواها ولا وصل الى مكان الا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له واستشهد عليه بشئ ان كان ثم ذلك . وناهيك بأمام تخرج على أبى حنيفة رضى الله عنه وسمع من أبى اسحاق الشيبانى . ويحيى بن سعيد الانصارى وتلك الطبقة . وكان أفقه أهل عصره لم يتقدمه في زمانه أحد يحفظ من المنسوخ عشرين ألفاً فما ظنك بالناسخ

« كل ذى نعمة محسود » وما أدراك بنعمة اشتملت على الرئاسة والجلالة والقدرة والسعة فى سطوة الدين والدنيا والارتقاء على دست القضاء ومقام الفتوى الممثل كل منهما للامانة والديانة والفضيلة والداعى للقرب من مقام الخلافة ونفوذ الكلمة وشدة السطوة

أراد الاعداء الحط من هذا المقام العالى فما وجدوا اليه سبيلا فجاؤا لبعض أبواب وصاغوا منها مسائل مجعولة فى الفقه والفتوى خرّجوها على غير وجهها وتوسعوا فيها بأكثر من حدودها وافتروها عليه وتصنعوا فى روايتها عنه كأنهم يستدلون بها على سعة علمه وسمو قوته وقدرته وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها وهم فى الحقيقة من ألد أعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء . نشروا ذلك بيد بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ولا تتكشف لهم أوجه المسائل ثم عدوها عليه بعد انتشارها من أشد العيوب

وهو برىء منها فما أجدره بقول العربى « زنوه وحدوه »

كأنما كان أبو يوسف (استغفر الله) آلة لتوجيه الايمان بعد توكيدها فى كل شئ وكأنما كانت الخلفاء فى وقته على غير رأى

ذكروا له أشياء كثيرة فى مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره (تجنبناها) ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشئ : فمن ذلك مايحكى ان الرشيد خاصم زبيدة فى شئ فأغضبها وأغضبته فحلف عليها بالطلاق ان لاتبيت ليلتها في ولايته ومملكته ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة فعجزوا ثم استدعى القاضى أبا يوسف وسأله هل من حيلة قال نعم قال وماهى قال قل لها ياأمير المؤمنين تبيت فى المسجد لأنه لاولايةلك عليه فان الله تعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) فسر الرشيد بذلك كثيرا

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضا ان الرشيد رأى في ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه فأمر بتعذيب الخادم فقال له أبو يوسف ياأمير المؤمنين ان الحيوان بجملته يألف الاضواء والخادم قد تعهد البساط ونحاها عنه ولكنها كلما نحيت تعود فأمر الرشيد ان تحمل وتنحى بعيدا ففعل فعادت ثم أمر ان تحمل وتبعد أكثر من الاول ففعل فعادت فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى

ومن لطائفه انه كان يحادث من يختلفون اليه فى حلقة درسه فجلس اليه مرة رجل وأطال الصمت فقال له ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر الصائم ؟ فقال اذا غابت الشمس . قال فان لم تغب الى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال قد أصبت فى صمتك وأخطأنا فى استدعاء نطقك

ففى الصمت ستر للغبى وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

توفى فى سنة اثنين وثمانين ومائة (فعزي الاسلام بعضه بعضا بموته) . ومشى الرشيد في جنازته وصلى عليه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الامين

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لاهل العلم بمكة . والمدينة . والكوفة . وبغداد واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ماشاء الله أعواما وقرونا

ومما يحسن ايراده زيادة فى شرف الامام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ليسأله فى شئ دق على فهمه دركه فأجابه فيه أحسن جواب ولشدة سرور الرشيد بذلك ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء فبكى أبو يوسف وانتحب فلما أفاق سأله الرشيد . فأخبر الخبر الذى قدمناه حكاية عن أبى حنيفة رضى الله عنه لأم أبى يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى خلقته وقوله لها (سيأكل الفالوذج في طباق الفيروزج) فبكى الرشيد

يصح أن يقال عن أبى يوسف انه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة رضى الله عنهما ورواه فأدي الامانة حقها والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الابدى والحياة الطيبة المرضية وهو علم الدين المرتبط به كل علم

ينبغى أن تكون سيرته هذه مثالا يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم بالكرامة ويؤدونه عنهم بالامانة ويؤثرون لذة المحمدة به والثناء عليهم بسببه عن كل لذة فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم وتصح النية فتقام الفرائض وتحيى السنة وينصرف الناس من الشك الى اليقين ومن الرياء الى الاخلاص

ومن الغش الى النصيحة ومن الرغبة الى الزهد ومن الكبر الى التواضع

مثل هذه الاخلاق الشريفة لا يضيع صاحبها ولا يفتقر كاسبها ولا يخيب طالبها ولا تحط مراتبها ويصبح المتحلى بها بمنزله العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدي الناس الى سواء السبيل

أنى لنا باصحاب هذه الاخلاق حتى يذهب عنا ببركتها هذا الطيش والاهمال والاغفال واللجاج فى مالا فائدة فيه والعناد فى كل شئ

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم وأنهم مميزون بالعقل والفكر ومشرفون بحرية الارادة فى مايرشدان اليه

حجبت العقول بغرور النظر الى هذا الظاهر فاللهم خلصنا من كل تقليد استعبدنا واقتراب قيدنا وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ولا ضاقت أبوابها على راغب وا كشف عن عقولنا غمة الوهم وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ونقوم بالشكر عليها

سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه

هو الامام مالك ابن أنس رضى الله عنه امام دار الهجرة فى زمانه وفقيهها وأحد الأئمة الاربعة الاعلام . اختلفوا فى مولده بين سنى ثلاث . وأربع . وخمس وتسعين من الهجرة . وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة كان أشقر شديد البياض . ربعة من الرجال كبير الرأس أصلع . وكان لايخضب شيبه لما صح عنده من ان عليا كان لايخضب . حسن الهيئة والبزة يكره الثياب الخلقة ويعد ذلك مثلة . وكان نقش خاتمه « حسبنا الله ونعم الوكيل » فسئل فى ذلك فقال سمعت الله تعالى يقول عقيب هذه الآية « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » . وكان مجلسه مجلس وقار وحلم يحوط فيه المستفهم عن الشئ هيبة شديدة كان لايحدث الا وهو متوضئ ولايركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراما لبلد فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لاينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وقضاء الحقوق . فلما كبر انقطع عن ذلك كله واحتمل له الناس ذلك

كان كامل النفس لايزداد مع الخلفاء عن الادب الذى يوجبه عليه الدين قدم المهدى المدينة فبعث اليه بألفى دينار فقبلها ثم وجه اليه الربيع يطلب منه ملازمته الى مدينة السلام فقال له قل لامير المؤمنين المال عندى على حاله . وكان يدخل على أبى جعفر . وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ورزقه الله العافية من ذلك

وكان شديد الحرص أمينا على العلم . قال جرير ان أباجعفر المنصور عزم على ان يحمل الناس على « موطأه » فقال له لاتفعل ياأمير المؤمنين

فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديدا . فدع الناس وما هم عليه

(لو أن فقيها من فقهاء هذه الازمنة أقبل عليه أحد اعوان أولى الامر وأشار عليه بحمل الناس على ماقاله لعدّ ذلك فخراً وعزا وسطا على عموم الناس بهذا القول . وذلك لانه يري مصلحة نفسه لامصلحة الدين ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع)

روي عن غير واحد من التابعين وأخذ القراءة عرضاً عن نافع وهو أثبت أصحابه . وروي عنه وحدث خلق كثير من الأئمة منهم سفيان الثورى. وسفيان بن عيينة . وعبدالله بن المبارك . والأوزاعى . وابن مهدى . وابن جرير . والليث بن سعد . والشافعى . والزهرى . ويحيى بن سعيد الانصارى وغيرهم . وكان يقول : « العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم » وكان يقول لايؤخذ العلم عن أربعة : سفيه يتجاوز الحد . وصاحب هوى يدعو الى بدعته . وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس . وشيخ لايعرف مايحمل وكان يقول : مافتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت . ومن قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب

قال يحيى بن معين : كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه اماما لايبلغ الحديث الا صحيحاً ولا يحدث الا عن ثقاة الناس . وعن الشافعي رضى الله عنه «اذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك» . ولا غرابة فى ذلك فقد قال عبد الله بن وهب « لولا انى أدركت مالكا والليث بن سعد لضللت » وهو أحد الائمة الاربعة فى الامصار الاربعة : سفيان الثورى بالكوفة .

ومالك بالحجاز . والاوزاعى بالشام . وحماد بن زيد بالبصرة

ومن فضائله مارواه الترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهم: « يوشك أن تضرب الناس اكباد الابل فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة »

كان شديد الكراهة للغيبة . ومن قوله فيها : « كان عندنا بالمدينة قوم لاعيوب لهم فتكلموا في عيوب الناس فصارت لهم عيوب وكان عندنا قوم لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم »

جاء مستقبل الزمان مصدقا للخبر الصحيح النبوى الذى لاينطق عن الهوي فكان سيدنا الامام مالك رضى الله عنه امام زمانه

ارتقت أمانة العلم عنده لدرجة لاتقوى عليها نفوس الكافة فنزل منزلا لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا . جاءه رجل ليستفتيه فى مسئلة فقال له « لاأحسنها » فقال له « قد ضربت اليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا وتقول لى لاأحسنها . ماذا أقول لاهلى . قال له قل لهم « سألت مالكا فقال لى لا أحسنها »

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته فاستدعاه الخليفة واستفتاه فى أمر فافتاه بما لم يوافق هواه وغرضه فأمر بضربه فضرب ومدت يده حتى خلع كتفه

مازال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام . وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة حتى كأن تلك السياط حليا تحلى بها وأفضلية سمى قدره بها

توفى رضى الله عنه فى المدينة فى شهر ربيع سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع وكان واليها من قبل الرشيد عبد الله بن زينب

ان الناظر فى أمر الدين الاسلامى بعين الحقيقة يجد انه كلما اتسع صاحبه فى وسائله وتفرغ لحكمه وسبر حقائقه اتسع فى حرية الفكر وأصبح متدرعا بدرع الصدق والوفاء والامانة وقبض على زمام الملكات الفاضلة وأصبح وليس له هم الا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها ولا يستطيع أن يبيح منها الا مايحل تناوله فقط . ولو أن جميع أهل العلم حاسنوا بعضهم بهذه الخصال ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات وجذبوا الناس الى مذاهبهم وعرفوهم شرف اندراجهم فى هذا النوع وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق وطالبوهم باصلاح سرهم كما طالبوهم برعاية أجسادهم وعرفوهم طهارة الباطن كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر لقامت كلمة الدين خير قيام وأعتقوا عبيد الغايات والعادات وخلصوا أسراء التقليد وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم

لم يخالف الامام فى فتواه مقام الخلافة الا وهو متحقق ان هذا العمل فى رضاء الله سبحانه وتعالى (وأن لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) فلو أن كل مسؤل امتنع ولم يوافق السائل على هواه لرجع جميع المقترفين لهذا العمل عن عملهم هذا. ولكن عظمة السلطان وصولته انست الناس أمر دينهم فاصبحوا يخالفون الشرائع ليؤلفوا قلوبهم ويدخلوا السرور عليهم بتحسين فعلهم فجر هذا الامر الى أمور فظيعة سيئة حتى أصبح الدين ملعبة عند بعض الملوك وأهانوا الشرائع المرعية والفضائل المحمية وهذا امر قد علم الكثير من المسلمين حاله وقدروا ضرره فكم جلبت الفتاوى من البلايا والرزايا سواء كان فى المسائل السياسية أو المدنية مما لاحاجة لذكر تفصيله حتى ان أحد سلاطين آل عثمان أوصى بدفن الفتاوى التى أصدرتها له علماء وقته تخلصاً من عواقب مافيها يوم القيامة يوم لاتغنى نفس عن نفس شيئاً والامر يومئذ لله

محمد بن ادريس الشافعى

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصىّ

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ثم وصل الى مكة فسكنها وأخذ يتردد بين الحجاز والعراق ثم استوطن مصر واتخذها دار إقامة حتى توفي بها عند بنى الحكم

روى عن الامام مالك بن أنس ومسلم بن خالد الزنجي وابن عيينة وابراهيم بن سعد وفضيل بن عياض وعن عمه محمد بن شافع وجماعة غيرهم. وروي عنه ابن حنبل والحميدي وأبى الطاهر بن البويطى والمزنى ومحمد بن عبد الحكم وجماعة غيرهم

كان حافظاً. حفظ الموطأ فى ليال وأخذ العربية من صميم العرب ولزم هذيلا وبقى فيهم مدة يرحل برحلتهم وينزل بنزولهم ثم رجع الى مكة وجعل ينشد الاشعار ويذكر الآداب ويروى الاخبار وأيام العرب فمر به رجل من الزبيديين فقال له «ياأبا عبد الله عزيز علىّ أن لايكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود أهل زمانك به» . فقال ومن بقي حتى يقصد فقال له : مالك سيد المسلمين . فوقع فى قلبه ذلك وعمد الى الموطأ فحفظه ورحل الى مالك فأخذ عنه الفقه

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ووصله بهدية لما رحل عنه وكان الشافعى يقول : « مالك معلمى وأستاذي منه تعلمنا وما أحد أمنّ علىّ من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى »

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر وكثر مقلدوه فيها . ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر والبلاد القاصية لا يعرفون حجة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى . قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بهم ثم أدى ذلك لظهور كتب الخلافيات ووصل الامر الى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين فكان ما كان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين وعقلاء الأمة الاسلامية تتلافى للآن أمرها ولا تعان عليه ولا حول ولا قوة الا بالله

نزل الامام على بنى عبد الحكم بمصر فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم وابن المواز وغيرهم . ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة (الفاطميين) وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى ان ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف ابن أيوب فرجع اليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام وعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيي الدين النووى وابن الرفعة وتقى الدين بن دقيق العيد وتقى الدين بن السبكى والسراج البلقينى أكبر علماء عصره وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء

﴿ ذكر ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل ﴾

قال محمد بن عبد الحكم لزمت الشافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه . كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح

قال ابن عيينة انه كان أفضل فتيان زمانه وكان اذا جاء ابن عيينة أمر من

التفسير والفتيا قال : سلوا عنه هذا أي الشافعي . وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجي شيخه وهو شاب في مقتبل عمره : قد آن لك أن تفتي يا أبا عبد الله . وقال يحيى بن سعيد القطان اني لأدعو في صلاتي للشافعي لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أحمد بن حنبل ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث الا وللشافعي عليه منة . وقال ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته وكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض .

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل : مايستحي أبوك يمشي وقد أخذ بركاب الشافعي . قال صالح : فقلت ذلك لابي فقال : قل له ان أردت ان تتفقه فخذ بركابه الآخر

كان حجة في اللغة وآية في الانساب والاخبار . قال ابن هشام ذاكرته مرة وهو بمصر في انساب الرجال فقال له الشافعي بعد ساعة : دع هذا فانه لايذهب حفظه عنا ولا عنك ولكن خذ في انساب النساء فلما أخذ في ذلك بقي ابن هشام ساكتا . وكان يقول ماظننت ان الله عز وجل خلق خلقاً مثل هذا الانسان

وقال النسائي كان مفرداً في ثقته وأمانته وقد ألف الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي كتاب الحجة بالشافعي واثبته في الصحيح وروي أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم اهد قريشاً فان عالمها يملأ طباق الارض علما اللهم كما أذقتهم عذابا فاذقهم نوالا فكان وجوده رضي الله عنه مصداق قوله صلى الله عليه وسلم

واتصل به أيام محنتـه القول بخلق القرآن . ومن كلامه « كلام الله ليس بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر »

﴿ ذكر بعض حكمه رحمه الله تعالى ﴾

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق . من حفظ القرآن نبل قدره ومن تفـقه عظمت قيمته ومن حفظ الحـديث قويت حجته ومن حفظ العربيـة والشعر رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعى كيف أصبحت فقال كيف أصبح من يطلبه ثمـان : الله تعالى بالقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم بالسنة والحفظة بما ينطق والشيطان بالمعاصى والدهر بصروفه والنفس بشهواتها والعيال بالقوت وملك الموت بقبض روحه

توفى الشافعى فى خلافة المأمون رضى الله عنهما بمصر عند عبـدالله بن عبدالحـكم واليه أوصى . وذلك ليلة الخميس منسلخ رجب سنة أربع ومائتين ودفنه بنو عبد الحـكم فى قبورهم وصلى عليه السرى أمير مصر

كان رحمه الله خفيف العارضين أسمر اللون وقد ألف كتاب « الأم » وهو من أجل الـكتب في أصول الفقه جمع بين صحة المأخذ وبين متانة العبارة فهو الأمّ الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الاحكام

قال الربيع كنا جلوساً فى حلقـة الشافعى بعد موته بيسـير فوقف علينا اعرابى فسلم ثم قال أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ قلنا توفى . قال رحمـه الله وبكى بكاء شديدا ثم قال رحمه الله وغفر له ما كان . كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة . ويسـد من خصمه واضح المحجة . ويغسل من العـار وجوها مسودة . ويوسع بالرأى أبوابا منسدة . ثم انصرف

وهو ثالث الاربعة الأئمة الذين تفتخر بهم جماعة المسلمين بممارستهم للكتاب الكريم وتمكن الاستنباط وكمال الفقه وحسن الصناعة وتمام العلم المتفردين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فى المكلفين هداهم الله لخدمة العلم وبهم يهدى الله من يشاء الى الصراط المستقيم



الامام أحمد بن حنبل بن هلال الشيبانى رضى الله عنه

هو الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الاصل. خرجت أمه من مرو حاملا فولدته رحمه الله تعالى سنة أربع وستين ومائة فى ربيع الاول ببغداد ولم يربه أبوه لانه تركه طفلا. نشأ ببغداد في طلب العلم وخدمته وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ورحل الى البلاد وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة وسمع من سفيان بن عيينة وابراهيم بن سعد ويحيي القطان وغيرهم. نشأ عفا مستقيما يخاف الله ويخشاه فلا يتعدى محارمه أبداً. روي أبو عبد الله قال: كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب وكان الخليفة بالرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب الى منازلهم فتبعث النساء الى المعلم ان أبعث لنا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم فكان اذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبداً حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته وأدبه عند ذكره

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ورحل فكتب عن علماء كل بلد وأول من كتب عنه الامام أبو يوسف وكان يقول «أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر» واجتهد كثيراً في نقل الاحاديث الصحيحة وبلغ مانقله منها مقداراً عظيما جداً فاق حد التصور وأعجب به معاصروه

كان متأدبا غاية الادب متواضعاً غاية التواضع يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباة. فكان من فرط اجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشئ ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الانسان له لسان واحد وأذنان ليسمع أكثر مما يتكلم

كان وحيداً فى عصره في الاشتغال بالعلم والحفظ . كان يصلى العصر ثم يستند قائما الى أصل منارة مسجده فتحتاط به الناس يسألونه الحديث وهو يجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلبه والكل قيام على أرجلهم الى ان تجب صلاة المغرب لا يفرغ ولا يتهون

لم يتزوج الا بعد الاربعين حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح فبلغ من العلم ماأراد وكان يقول : كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه . كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد

كأن علم الدنيا كان بين عينيه . جمع له علم الاولين والآخرين من كل صنف يقول ماشاء ويمسك ماشاء

ومن لطائفه انه سئل عن رجل حلف بالطلاق انه لا بد أن يطأ امرأته الليلة فذهب اليها فوجدها حائضاً فقال تطلق امرأته ولا يطؤها لان الله قد أباح الطلاق وحرم وطء الحائض

وكان لا يرى وضع الكتب لمسائله وكلامه . ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ولدونت فى أسفار . ومع ذلك فله المسند صنفه سنة ١٨٠ وهو مائة وعشرون ألف حديث تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ والتاريخ والمقدم والمؤخر وفسر جوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير حتى قل أن تقع مسئلة الا وله فيها نص فى الفروع والاصول وربما عدمت في تلك المسئلة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا

روي عنه جماعة كثيرة منهم البغوى ومسلم والبخارى وابن ابى الدنيا واحمد ابن أبى الحوارى وغيرهم . وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جدا تدخل فى باب السعى فى طلب العلم والزهد في المال وذكر محنته وشمائله

كان امام المحدثين فى عصره . وكان من أصحاب الامام الشافعى ولم يزل مصاحبا له الى أن ارتحل الشافعى الى مصر . وقال الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل

دعى رحمه الله الى القول بخلق القرآن (تلك الفتنة التى أيقظها أحمد بن أبى دؤاد فعمت خيرة الخلق واصابتهم ببلاياها) فلم يجب عنها بشئ فضرب ضربا مبرحا ثم حبس وعذب بأنواع العذاب وهو مصر على الامتناع وكان ذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين

كان حسن الوجه ربعة ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع

توفي ببغداد سنة احدي وأربعين ومائتين ودفن في مقبرة باب حرب وحضر جنازته من الخلق مالا يحصى واليه ينسب أحد المذاهب الاربعة الاسلامية وتعرف أتباعه بالحنابلة

ومقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته فى معاضدة الرواية والاخبار بعضها لبعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث الشريف

وكان كثيراً مايتمثل بقول الصديق رضى الله عنه اذا مدحه مادح : « اللهم أنت أعلم منى بنفسى وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون »

نبذة تاريخية

(ماذا كانت مصر في هذه الايام أزمان انتقال الدولة من الامويين للعباسيين وأزمان اضمحلال الدولة العباسية)

كانت على غير انتظام فى حالها ولا ثبات فى أمرها لانها كانت تقوم وتقعد تبعاً لاهواء الولاة والعمال لعدم وجود التربية القومية فيها . وضعف الرأى العام بين بنيها . وكونها في الوجود فى منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الاسلاف . منزلة تبعدعن منازع البداوة بعدها عن مقاصد الديانة. فهى لأمة تحمى ذمارها بالسيف . ولاحضرية تعيش تحت ظل الشريعة أوالقانون . وانما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام وهى عندها أعظم من كل ارادة لانها كانت لاتطيق مقاومتها أبداً

كان المصطنعون يتفانون في تنفيذ ارادة الحكام مهما كانت حتى تذبذبت الامة وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير وأصبحت مسخرة ترضى بالخضوع للمتغلبين عليها من الولاة الذين لايزرعون فيها الا ماتنزع اليه طبائعهم . ولايوصلون اليها من جاه الخلافة وعزها وأدبها وارتقائها الا بمقدار رقة مستشفهم . ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الاموية ولامن المنافع العمومية في أزمان الدولة العباسية بمقدار ما كان ينتظر ويظن من خلافة كخلافة الوليد بن عبدالملك المروانى الذى وضع يسراه على الغرب ويمناه على الشرق أو خلافة كخلافة أبى عبدالله المأمون العباسى الذى أحيى معالم العلوم

كأنما هى فى جو آخر مخالفة للناس فى العوائد والاحوال مع ماطبعت عليه من السكون والدعة قانعة بما فيها من الثمرات مؤثرة الراحة على المتاعب

لا تتعدى مبلغ قوتها وعوائد من قبلها

دخلت عليها سنة ٢٥٦ وفيها أحمد بن طولون عاملا للخلافة العباسية فوسوس له شيطانه حتى نادي بالاستقلال وسطا على الخلافة بسيفها وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالي مصر وغيرها واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز المعتضد عنه ووقع الصلح بينهما

وقد تسامع الناس بالذي جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث وأقبحها أثراً وموقعاً فى أمر الدين وجماعة المسلمين . مزقت الخلافة العباسية كل ممزق وفتحت عليها باب التجزي والتبديد وحذا حذوه العمال فاستقلت جهات بخارى وصارت تدعى (المملكة الشرقية) . وجهات افغانستان وهم نحو من ستة ملايين أو ثمانية من سكان الجبال والبوادى جلاد شداد وصارت (المملكة الغزنويه) ثم صارت (الدولة السلجوقية) وتبعهم (سيف الدولة بن حمدان) بالموصل . هذا فى أسيا . واستقل فى أفريقيا بنو الاغلب وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر الى حدود الغرب الاقصى واتبعوا مسلك ابن طولون حذوك القذة بالقذة(١) فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الاطراف مقطوعة الاوصال مفتوح عليها باب لا يسد وكان هذا من أهم انحطاطها وأكبر الدواعى التى أطمعت أخصامها فيها

تنزع فى بعض الاحايين نفوس بعض الولاة أو العمال الشريرة لمثل هذا العمل (الاستقلال) دون أن تكون الامة والبلاد مستعدة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده ولا قائمة بما ينبغى لها أن تقوم به من العوائد التى تحفظ كيانها بعد هذا التفرد

---

(١) القذة بالضم ريش السهم جمعه قذذ

الاستقلال هو عبارة عن قيام دولة فان وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه لان المستقل يلزمه أن يكون ظاهرا حتى على ذات الشوكة التى يريد أن يفصم عنها وينادى باستقلاله دونها . لذلك تحاماه الكثير من أرباب الامر وأصحاب الملك والسلطان مخافة أن ينقلب الامر فتقع البلاد والعباد فى شر غير منتظر . نذكر منهم الامير عبدالرحمن الداخل . والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . دخل الاول بلاد الاندلس وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم وبعد أن انقاد له الامر سمى نفسه بالامير ولم يدع (بأمير المؤمنين) لاهو ولا أحد من بنيه لحد الثامن تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى العرب

وملك الثانى مصر فاتحاً وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قرونا وأعواما

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك فلم يكسبها الرقى والفلاح والنجاح الذى أصاب غيرها منه . كأن الامة لم تستعد له بعد ولم تختمر فيها مادة المعاونة مع صاحب الملك بالرأى والمفاوضة فيه ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له فى أى صنف من أحوال ملكه شأن الكثير من الممالك الاسلامية . فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم غير متهيئة لعمل فاستسلموا لمن بعد وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ورضخوا لكل حاكم ولو لم يكن بينه وبين الحكومة معنى مطلقاً كالدولة الاخشيدية وكدولة المماليك وأشباه ذلك ثم صاروا ملعبة فى يد الفاطميين الذين سنوا لهم سننا تعدت ضروب المحال كما هو معلوم

(يضحك الرجل المجرب اذا كان بعد هذا يرى فى بعض الاندية أفواها تتلمظ وأنوفا تشمخ بما يقرب من هذا المثال يغترون بالمرائى والظواهر التى بهرجت بها الأعداء ليقطعوا الوصلة بألاعيب السياسة وأساليب المكر والدهاء (ومن نكث فانما ينكث على نفسه) . على ان في التاريخ شواهد محفوظة وأمثال مضروبة تكفى الناظر لو نظر وعلم ماهو فيه من نعمة الارتباط لو قام بتنميته وسعادة الوحدة والائتلاف لو انه يرعاها وانها لو تمت لكانت من أجل النعم واسبغها)

سري سوء الرأى في تلك الايام فى الامة المصرية حتى عجزت فى ذلك الوقت عن اقامة نظامها فى خاصة نفسها ونظام عائلاتها فى ضرورة معاشها ومهنها . فما الظن بها فى سياسة النوع الانسانى وأنى لها بامضاء الاحكام واصلاح السابلة وحمل الناس على مصالحهم وما تعمهم به الفائدة في المعاش والمعاملات . نزلت مصر فى الأخلاق منزلة يظن الباحث فيها انها محجوبة عن الحق لانها وهنت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر والتخلق بأدب الدين وأصبحت مركزاً للقلاقل وتعكير الفكر وتمكنت اغلال الاستعباد فى أعناق أهلها حتى قبلوا المذاهب العديدة التى قامت بها أصحابها فيما بينهم وكانت من أكبر أسباب التفريق

انظر لما حكم به عليها ذلك الفاطمى (المعز لدين الله) على الغيب وهو في أقصى المغرب من الضعف بسبب الفجور الذى كانت فيه باستطلاع لطيف وهو مفارقة أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة وتنشأ عنه القوة العاملة

قال المقريزى رحمه الله فى خططه (عند ذكر الخلفاء الفاطميين) ان أم الأمراء (والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعني والدة المعز) وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها (وكأن ذلك كان على سبيل التحسس لمعرفة أخلاق

البلاد والعباد) فعرضها بألف دينار فحضرت اليه فى بعض الأيام شابة على حمار وساومته الصبية بستمائة دينار (فاذا هى ابنة الاخشيد سلطان مصر) بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها فعاد الوكيل الى المعز وأخبره بما وقع . فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز انهضوا الى مصر فان يحول بينكم وبينها شئ فان القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشترى جارية تتمتع بها وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم . فقالوا السمع والطاعة ونهضوا وكان الفتح . ثم توالت عليها الخلفاء الفاطميون حتى كانت مدة الحاكم فوقع منه مالم يكن لاحد فى حساب

انظر لهذه الحادثة وسلط عليها قوة الفكر وتناولها بسطوة العقل واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار تعلم وتحقق انه لا سبب لهذا الاختلال الذي نفث علينا سموم الدسائس وأثار فينا الفتن والوهن ومكن الاراجيف من العقول وفتح مجال الشر وأقام معترك المطامع وجعل البلاد مهبط البلاء إلا مفارقة أدب الدين والذهاب فى أثر التمدن الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التى لا رابطة لها ولا وصلة بينها وبين عفة الاديان . وفى هذا ذهاب الغيرة وضعف النهضة الشريفة الانسانية . فاذا قيس حاضر على ماض فليعلم ان تمكن الاعداء من البلاد وضعف النفوس عن مقاومتهم لم يكن له سبب الا هذا لان الانسان لا يذود غيره عن حوضه بسلاحه الا وهو عالم بشرف مافى ذلك الحوض من مال ونفس وعرض والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على مالا يعلم والفرار من قرار الكمال حتى يحتجب عن الحق لانه لا يدرى كيف يكون فى رقي وصلاح حال ولا الى أى طريق يذهب . فالهم اهدنا سواء السبيل

ألمعنا فى النبذة السياسة التي مضت الى ما كان من حال مصر وماجرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاختلال والفجور الذى ألم بأهلها وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثير من المؤرخين وما تكلموا به من اثبات نسبهم أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ماقاسموا به بنى العباس في ممالك الاسلام بل كادوا يلحون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم واستمرت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة فتحوا فيها البلاد واستخدموا العباد واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخيمة التى هى من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين الله) ولذلك فنحن ذاكروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية لهذه العلقة ولما اتصف به أيضا من الخلال والخصال الغريبة والحزم والعزم

المعز لدين الله

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدى أبي محمد عبيد الله العلوى الحسيني . ولد بالمهدية من أفريقيا حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب وكان ممن يهتف باسم مصر والاستيلاء عليها وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا وقد وافق ذلك موت كافور الاخشيدى (صاحب مصر) فاختلفت فيها القلوب ووقع الغلاء وتتابعت الشدائد وحصل الادبار وعجز رجال الدولة عن إدارة الامور واختل حال الاقاليم المصرية وبلّغ له تفصيل هذه الاحوال السيئة وهو بأفريقيا من تلك العيون التى كان أزكاها فى طلب خفياتها فسير المعز القائد « جوهر » غلام والده المنصور فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فى جيش كثيف للاستيلاء عليها فلما بلغ من فيها من عسكر الأخشيد أمره واتصل خبر مسيره بهم هربوا عنها جميعهم قبل وصوله فدخلها واستوطن رحابها آمنا مطمئناً واختط القاهرة بقصرها واستقدم العزيز بالله من الغرب فقدمها فى شعبان وأقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق فى جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وأذن فيه (بحىّ على خير العمل)(١) وجهر فى الصلاة (ببسم الله الرحمن الرحيم)(١) وهو أول ما أذن كذلك بمصر

ابتدأت هذه الدولة (العلوية) بأفريقيا بدعوة أبى محمد عبيد الله أول من ولى منهم نحواً من سنة سبع وتسعين ومائتين ودخلت جيوشها (مصر) سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على

(١) هامش رسوم الشيعة وشعائر مذهبهم

يد (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين وقد اتسعت أكناف مملكة هذه الخلافة وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب . ومصر . والشام . وبعض أعمال العراق وطالت وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة فملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة

كان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية منصتا لطلباتها فلما قدم مصر ساس الامور ودبر الاحوال ولم يأل جهداً فى الاصلاح فصلح حال مصر عما كانت عليه وزهت بالقاهرة وأزينت بقصره فيها وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ومواضع السكنى اللائقة بالخلافة وعظمتها

اتسع نطاق العمارة فى أيامه فالقاهرة مقره برجاله وعسكره وعليها سياج من جلال . والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الارزاق والبضائع الصادرة والواردة ومحل سكنى الاعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع وكلما يلزم ويليق بحال هذه الحضارة والعمران

دخل بلاد مصر سائح عظيم من الفرس يعرف بالناصرى خسرو والف فى سفره رحلة سماها (سفر نامه) يقول فيها انه لو وصف مافى مصر من آثار السعادة والثروة لكذبه الفرس وكيف يصف مدينة قل ان يوجد لها فى عهدها شبيه . لها خمسة أبواب كل باب آية فى ضخامته وفخامته وهندامه يعجز الحاسب فى تقويم نظامه . وأغلب البيوت والمنازل شاهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع يتوهم الناظر اليها من حسن نظامها انها مبنية بأحجار ثمينة . والمساجد والوكائل والحمامات والدكاكين مما يعد بالالوف المؤلفة اهـ

والذي يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الاخبار الماضية والواقف

على تنظيم قصر المعز وما كان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب يعلم مقدار ثروة الدولة وقوة هذه الخلافة ونفوذ بصر المعز وشدة ادراكه

كان هذا القصر كعبة فضل يحج اليها القصاد والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهر قوة السيف برجاله وأمرائه ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك وأبهة الخلافة ولوازم القصر وملحقاته من الحلى والزينة والامتعة والفرش والثياب والذخائر واحتياجات العسكر البرية والبحرية من سلاح وبنود وخيام وما يتجمل به الخليفة وخواصه وسائر رجاله واتباعه وماينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حداً لاتبلغه العبارة وخزانة الكتب التى اشتملت بحكايات كثير من المؤرخين (تحاكى قوة الاجماع) على ألف ألف وستمائة ألف كتاب وفيها من غرائب الدهر وعجائب الزمان مالا يحصى .

قال المقريزي : دخل هذه المكتبة أحد السواح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها (أشبه بجغرافيا) وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير فقال يكفينى من عجائبك هذا . ومن جنس هذه الأعجوبة الخيمة التى فاقت جميع المضارب والخيام المسماة (بالمدورة) كانت تضرب فى المحافل والرسميات تقام على فرد عمود ودائرتها خمسمائة ذراع وخرقها وحبالها وعدتها تحمل على مائة جمل وقد صور فى رفرفها صورة كل حيوان فى الارض . فالقارئ يجرى الغائب من هذه النفائس على ماعرف ويقيسها على ماشهد فيتعرف ما كان عليه القوم من الرفاه

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد وحسبك الازهر الأزهر والمقام الانور والمصلى الاطهر الذى جعله الله مجتلى العلم والتعليم . وخصه بلطفه وكرمه أن يكون موضع الارشاد لسنة نبيه الكريم ودينه القويم . هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة (لو كان مااشتمل عليه من المنافع والمرافق حصل لنا بالسماع وهو غير واقع تحت نظر كل واحد منا بالفعل لعددناه أعجوبة الزمان) مأوي العلم والعلماء وموطن الفقه والفقهاء وكل واحد من المشتغلين فيه له مايكفيه من الرزق الناض على قدره ومقداره . والتعليم فيه مباح بأنواعه والاروقة تأوى اليها طلبة العلم الغرباء فلا يلحظه النظر الا وهو معمور بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ فالداخل فيه يجد من الانس بالله والارتياح وترويح النفس مالا يجده في غيره ثم لاتزال عماريته تزداد وشهرته تتعاظم حتى قصدته الناس من الآفاق فترى فيه خلقاً من جميع بلاد الاسلام تقصده لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين مابين مؤلف ومدرس وفيه الالوف المؤلفة من المجاورين من الطوائف المختلفة . كاهل الحجاز . واليمن . والهند . والسند . والسودان . والجاوه . وبغداد . والمغرب . والشام . والاتراك . والاكراد وغيرهم من أهل مصر من جنوبها وشمالها فهو أشهر بقعة بعد المساجد الثلاثة . وياله من مدرسة كبرى وبقعة نافعة يزول بها الجهل ويخلد فيها العلم وتتأدب بواسطتها النفوس وتتسع القرائح وتتنبه الفطن وتروق الافكار وتتعين الآداب وتظهر الاسرار ويكتسب الشرف ويعظم القدر لو كانت تلك الشموس والاقمار التى تشرق فى أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم خارجة عن مداراتها

الاولى متأملة الى درجة احياء المعارف والعلوم ورونقها فى غير هذه البلاد غير ناظرة اليها نظر المستنكف آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف مما لا يمس عقيدة ولا يخالف ديناً . إذاً لأصبحت رحابه قبلة لكل طالب وكعبة لكل قاصد بل يكاد الانسان يحلف غير حانث ان الازهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها فهو مرضعة العلوم وأقرب مورد يمكن أن يستقى بمعارفه القطر ويظهر لكل انسان براعة أهل هذه البلاد ولكن

مايشاء ربك يفعل قادر ... جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنا على غير هدى ... وتفرقنا على غير تراض
وتقارضنا شهادات التقى ... ثم صرنا لزوال وانقراض
واستعارت صحة أجسامنا ... واستعانت بمودات مراض

(عود) كان للمساجد فى أيامهم رسوم وأحباس ولها ديوان مفرد وقضاة وعلماء تتفقد حالتها وهم أول من أقام الدرس بمعلوم . ثم فى مدة العزيز عمل الوزير بن كلس مجلسا فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه فقه على مذهب الفاطمية

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والاعياد على طول السنة ولهم فيها من البر والخير والصدقات والاحسان في الايام التى يعينونها والليالى التى يبينونها . ثم تطرق الخلل الى سياستهم وكأنما كان ذلك لتعمقهم فى الرافضية أولا لحاد بعضهم (كالحاكم) فدفع ذلك فى دعوتهم وجاء الطعن فى منتسبهم متمما لذلك فتغيرت تلك الاحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الاخيرة تارة بالصلاح وتارة بالفساد الى أن ألحت الحوادث وتوالت المحن فغيرت تلك الوجوه الحسان وأزالت معالم الحسن والاحسان وبدلت رونقها من

الجمال واعتاضت عنها بالاطلال والتلال . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله يرى ان همة أغلبهم كانت متجهة الى اتساع دائرة العمارة واليسار وبسبب ذلك يصح للمؤرخ ان يعتبر القاهرة في مدتهم مترقية جداً في التجارة والصنائع والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ولا حصلت لها من بعد والمبانى الضخمة المشاهدة التى لا تقوم الا بالاموال الجمة والتقدم فى صناعتى البناء والتصوير كما تراه فيما بقى من ذلك من الابواب كزويله . والفتوح . والنصر . ومن المساجد كالحاكم . والانور . يدل على علو قدرهم ورفعة هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم وكذلك كانوا فى مراكبهم ومواكبهم واحتفالاتهم فى مواسمهم مما لو أراد الانسان معرفته يجده فى مظانه من كتب التاريخ

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى وقعت وأدت لقدوم السلطان صلاح الدين بن أيوب الى هذه البلاد لاطفاء الفتن التى دهمتها فأطفأها وما عاد الى البلاد الشامية حتى هاجمتها العساكر الصليبية فاضطر لقدومه لمحاربتها وكان ذلك ثم وجد فى حال البلاد اختلالا لا يسكن الا اذا سهر عليه الانسان بالتدبير المقرون بالاصابة وحسن الرأي المعروف بالاجابة وكأن البلاد سئمت ماهى فيه من المصائب المتوالية فلم يلق فى نزع يد العاضد من الخلافة واعادة الدعوة للعباسيين أقل معارض وممانعة ففعل وتولى حكم البلاد بنفسه

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تغيرت بتغير الدولة كل الاحوال حتى فى المأكل والمشرب وسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

هـذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخـين وتكلم الكثير (١) فى نسب القائمين بها وابتعادهم عن آل البيت رضى الله تعالى عنهم وادعوا انهم معروفين فى اليهودية (نعوذ بالله من هذه المقالة) حتى عمل في أيام الامام القادر العباسى محضرا يتضمن القدح فى هذا النسب وشهد فيه من شهد من أعيان العلويين خوفا وتقية وغيرهم مجاراة وتزلفا وزعم الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ أفريقيا ان أصحاب هذه الدعوى من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الاسلام نفاقا ومازالوا يتربصون الشر بجماعة المسلمين قصاصا لما وقع لاسلافهم من تسفيه أحلامهم فقامت جماعة منهم فى آخر خلافة الامام على رضى الله عنه وأخذوا فى وضع الاحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى الدين وآخرون أرادوا استئصال الامر بالقوة ومنهم هؤلاء.

والذى عليه أهـل التحقيق أن نفى نسبهم عن نسب آل البيت مجعول بأحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً اليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفننا فى الشمات بعـدوهم) بواسطة علماء السوء لما توفرت شـيعتهم وانتشروا فى القاصـية بدعوتهم ومازالوا كذلك والخلفاء قانعون بهذا السب حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان وهذا مرض غريب وداء عجيب يصيب الكثير من الناس ويقع فى الافراد كما يقع فى الدول فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه وهم فى عماء عما يدبره لهم من المكايد ثم يزيد الحال ويتسع فتراهم يحسنون على الشاتم ويغدقون على الطاعن ويكادون يسجلون هذا البهرج الزائف الذى تريد أرباب الاغراض وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم وكله فرية وزعم وتبلغ بهم السذاجة الى انهم يستشفون

(١) مثل شيخ النظار أبي بكر الباقلانى.

بهذا الباطل ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص وفى سطوتهم من الابتزاز

باد الكثير من دول الاسلام وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب وهو تصغير الاعداء فى نظر أولياء الامور والاستهانة بهم والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة والتعظيم له حتى يظن بعض السذج منهم ان وجود عدوه فى دار الحياة انما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن والا فحياته فى قبضة يده ثم لاتمر عليهما الليالى وتتداول الايام حتى يصبح والامر ذو بال وعدوه قد أفسد عليه حاله ويتحقق انه كان غارقا فى بحار الخديعة وانه أصبح بين أمرين إما خوض المنايا لهذا العدو العنيد أو التجاوز له عن الارض التى ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع

بهذا ذهب ماذهب من فتوحات الامويين وأملاك العباسيين وبلاد وأراضى الدولة العلية العثمانية من الروملى والاناضول وغيرهما وبهذا السبب أيضا ذهب السودان المصري وتجسمت فى هذا القطر فتنته الاخيرة

سمعت ممن أثق به ان كل تلغراف كان يرد لاولياء الامر من حكام السودان حال الفتنة مبدوء فى أوله بقوله (بنفوس ولى النعم لا يكن هناك ما يكدر الخاطر وانما .... الخ) وما زال الحال كذلك حتى جاء تلغراف حصار الخرطوم مبدوءاً بهذه المقالة أيضاً فليت الناس يصرفون بعض الهمم على أمثال هذه الغوغاء فى أوائل ظهورها ويتركون الغش فتكفيهم مؤنة القتال والجدال فى أخرياتها خصوصا في هذا الوقت الذي ينبغى أن يكون للانسان فيه أربع عيون لكثرة الدسائس وازدياد الاعداء الطاعنين على ملة الاسلام الناقمين عليها وعلى القائمين بأمورها وليس ببعيد ذلك النقد على من

بكون ذا بصيرة ثاقبة لأن أحوال أولئك المنافقين تتبدى ظاهرة للعيون الصادقة

ومهما تكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم اه

(تنبيه) الى هنا انتهى الكلام على الخلافة في المشرق ما بين الشام وبغداد ومصر وسنبدأ بالكلام على الخلافة في المغرب مبتدئين بخلافة عبد الرحمن الداخل

.

عرف القراء مما كتبناه انه لما نزل ببنى أمية ما نزل بالمشرق وغلبهم الدهر على أمرهم مثل غيرهم من ساسة الدول وسلاطين الزمان وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد بن الحكم طلب بنو أمية بطن الارض بعد ظهرها والدهر حسود لمن يسود ولكل هبوب ركود وكان ممن أفلت عبد الرحمن بن معاوية. خرج من الشام سنة ثنتين وثلاثين ومائة وظل سائراً فى أفريقيا ينتقل من مكان الى مكان حتى وصل الاندلس بعد ست سنوات ودخلها سنة تسع وثلاثين ومائة وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاده الملازم لهما التوفيق والسعود وأصبح رأس الدولة بعد ما كان فيه من قنوط الهارب ويأس المطلوب من عدوه القادر وارتقى فى المغرب لمقام جدد فيه ما طمسه الزمان لبنى مروان فى المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز وأحيى ما اندرس من معالم الخلافة وجدد ما نسى من اسمها

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الاموية بالاندلس بعد ان فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الاسلامية ببغداد

عبدالرحمن بن معاوية

هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك (المعروف بالداخل) لقب بذلك لانه أول داخل من ملوك بنى مروان الى الاندلس وهو رأس الدولة الاموية الاندلسية كان شجاعا هماما كريما حليما ذاحزم وعزم أصهب خفيف العارض بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتحينون فيه ملكا ويرون فيه علاماته . آية من آيات الله تعالى أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ويقيم ملكا أدبر ويركب من الاخطار مايركب ويقصد الاندلس من أنأي ديار المشرق من غير عصابة ولاانصار فيغلب أهلها على أمرهم ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم وينقادله الامر ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه . آية من آيات الله انه مع هذا الملك الضخم الذى أبيح له والدولة المتسعة التى كان فيها لايسمى نفسه بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدي العرب وتبقى هذه التسمية الى الخليفة الثامن من بنى أمية بالاندلس حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ماحدث ووقعت غلبة الأعاجم . انظر لهذا الجد والاجتهاد وتأمل لهذا الميل لارتباط كلمة الدين والرغبة فى عدم قطع دعوة آل العباس مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

أفلت هذا الخليفة وخلص الى المغرب واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم وبثوا له دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه انكشاف يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية) ولم

يبق معه من الجيوش مايلقي به الامير عبد الرحمن فانهزم فى ظاهر قرطبة ثم لجأ الى غرناطة فتبعه الامير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وكان ذلك . ثم أدرك الامير عبد الرحمن بالاندلس (عبد الملك بن عمر المروانى) وكان بمصر فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الاندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة فلما وصلها عقد له الامير عبد الرحمن على اشبيلية

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذي عاهد به ونكث وخرج فسير الامير للقائه (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ثم اغتاله أحد أصحابه وتقدم بقتله الى الامير واستقام الامر واستقر بقرطبة وثبت قدم الامير عبد الرحمن فى الملك

أسس هذا الامير بمفرده الدولة التى بقيت زاهية الى مابعد المائة الرابعة . شاد فيها من معالم الدين والدنيا مالا يدرك لغيره. شاد فيها جامع قرطبة الذى أنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه . وبنى مساجد أخرى وصير لبنى أمية ملكا ضخماله من العز السامى العماد ما بلغ غاية الآباد بالجد والاجتهاد وأقام لهم دولة متسعة كانت أنبل دول الاسلام وأنكاها في العدو وبلغت من العز والنصر مالامزيد عليه

حارب (الازفونش) (والبورتغال) وخاطب فارلو ملك الافرنج وكان صعب المراس فما زال به حتى أوجبه الى المداراة والموادعة بالسلم وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الاندلس) من حلية الملك ماأرهف به سيف عزه بسلطانه وحنك أهله بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب السلطانية فاكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة المثلى ثم دون الدواوين وجند الاجناد وفرض الأعطية

وعقد الالوية وأقام للملك آلة وللسلطان عدة اعترف بعظمتها أكابر الملوك حتى حذروا جانبه وتحاموا حوزته وما زال يمازج فى معاملة الملوك التى تجاوره بالعنف مرة وباللطف أخرى حتى دانت له البلاد واستقل له الأمر فيها وظهر له ظاهرها وخافيها وأدركت أعداؤه ماهو عليه من عظيم القوة مالا وحالا وعلمت ان لله رجالا

رفعت الامير عبدالرحمن (قوة الفضيلة. وصدق الحس. وبعد الغور. وسعة الاحاطة) حتى ان مناظره الامام أبا جعفر المنصور كان يسميه (صقر قريش) وقد عرف له حقه وعدله بل استرجحه عن نفسه وليس لواصف أن يصفه فينصفه بعد قول هذا الامام فيه. قال لجلسائه: « لا تعجبوا لامتداد أمر نامع طول مراسه وقوة أسبابه فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذي القذ فى جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قيطعته قاهراً لاعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة اليه بالرهبة منه . ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »

هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلى الانسان بالرجولية والصرامة والاجتراء فتجعله ممدوحاً على كل لسان حتى على لسان أعدائه (والفضل ماشهدت به الاعداء)

أصبحت الخلافة الاسلامية بسببه خلافتين خلافة أموية فى الأندلس

وعباسية ببغداد وكانت سيرة خلفاء الاندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة . سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق ولم تنزع فيها النفوس للخروج على السلطان . كان رحمه الله قسطاساً للعدل يقعد للعامة يسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم فيصل بالضعيف الى رفع ظلامته دون مشقة ويردع الظالم عن بغيه وعتوه وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم انه غزا فيها بلاد الأفرنج (والبشكنس) ومن وراءهم ورجع بالظفر ولكن أين هذا مما كان يريده من اعادة دولة مروان بالمشرق كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية

استقر بقرطبة وهو الذى أدار عليها السور وأقام بها المبانى الضخمة فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والاعمال العجيبة تحج اليها السواح من كل جانب لا يرفعون نظرهم لشئ من عجائبها الا ويرد اليهم طرفهم مبتئسا يعييهم أثرها عن حذو تمثالها بتمثال ويعجزهم عن ان يتحدوه بمثال

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الامير وتفتخر به نخرها بعمل من لا يساويه من أهل تلك الملل الاخري فان فى أفعاله جميع الضروب والاشكال التى تقصد فى المنافع كسعادة الامم وتربيتها وإقامة الدول وحفظها من الانحلال . ولو أن رجلا اتصل بدار وهو من غير أهلها وقدر على أن يملكها منهم وان يستخدمهم لذاته ثم ينظر فى وجوه سعادتهم فيدنيهم منها ويسهل لهم أبواب الخير حتى يعيش معهم ويعيشون معه فى أرغد عيش لعد ذلك عملا عظيما ودهاء كبيرا فكيف بمن يفعل ذلك بأقليم حشوه قوم جلاد شداد وقد أحاطت به دول فى غاية ما يكون من القوة والقدرة . اللهم ان هذا من أعجب العجب

يدهش الانسان سمو هـذه الغايات الشريفـة التى مهما طوتها الايام وأخذت من زينتها لاتزال محلا للمناظرة وموضعا للمباهاة تبدى زينتها وتباهى بنفسها حتي يذعن لهـا العدو المعاند والمنكر الجاحد . ثم يندهش الانسان من تلك الحوادث التى طرأت على هـذه المدنية العظيمة حتى أحالتها الى همجية بل أبادتها من يد أهلها

كل هذا انما نشأ من عدم رعاية خلفاء الاسلام لحفظ آثار بعضهم وانهم لاينظرون لهـا باعتبار انها من عملهم بل يفرحون بزوالها وحلول الخراب فيها لتنسى الناس بذلك أسماء المشيدين لها كأنما أولئك كانوا من أشد أعدائهم اما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الاسلام من على وجه الارض وعلى الخصوص ما كان منها فى هذه الاقطار مما اتحدت الالسنة على أبهته وضخامته وجلالته

الحاكم أبو الامة والكل عياله والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ويدفع الوالد لاداء حق ولده وهو طاهر اليد من نعمته التى أنعم الله بها عليـه فتتقوى أركان المملكة ويعظم جسمها وتتناهى فى العمران بعظم ثروتها وتوفر أعدادها واتساع بلادها فتسعد بالصلاح والاصلاح ويعمد بسر العدل والانصاف ذلك السيف الفتاح . فاللهم هيئ لنا الخير وافتح لنا أبوابه واسبل علينا من فضلك وعنايتك مايسر لنا صعاب أمورنا واهدنا وارشدنا الى خير العمل حتى ندرك المعني الذى به تتم الصالحات آمين

الحكم بن هشام

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ثالث من ملك الاندلس من الامويين. تولى بعهد من أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل

كان هشام والده يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فكما انه كان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف أحدهم أوقع به وأسقطه وقاصه كان متفقداً أيضا لحال أبنائه ومن يظن انتهاء أمر المسلمين اليهم من بعده . وهذه خلة من خلال عبد الرحمن الداخل ورثها أبناءه وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الامر وبين لهم مزية السؤال عنهم وعدم اهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم

لذلك نشأ « الحكم » منشأ حسناً فكان في معاليه صاعداً وفى مراقيه سامياً واستولى على شرف التأدب . فكم من مطالب لذواهب المجد والفخر أدركها ومغانم من عوائد الحمد والشكر تخولها

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل وأعدما استطاع من القوة فاستفحل ملكه وسد مكانه واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وغلمانه وجنده على متابعته ومشايعته فباشر معهم الامور ثم حدثت فتنة بينه وبين عميه اغتنمها العدو واعتدها فرصة وقصد برشلونه فامتلكها وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونها بسبب فتنة الاقارب (وكذلك يفعلون)

ثم بعث الجند الى بلاد الجلالقة وأثخن فيها فخالفهم عدوهم الى المضايق

فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج الى بلاد الاسلام ظافراً

يقال عن هـذا الامير انه كان فى صدر ولايته منهمكا في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيي بن يحيي الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت الفقيه وغيرهما وما زالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعة الله : العلماء فى ناحية والامير فى ناحية . ثم انتهي الامر بعد قتل وقتال وتغريب وتشريد

هـذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الامير لعين أعيان دولته وخيرة أنصار دعوته . ولكن انظر لحال العلماء ومعاملتهم لامرائهم وتقويم اعوجاجهم بالسيوف تجد ان تلك موعظة يجب النظر اليها بعين الاعتبار وأمثولة تستحق ان تحفظ . اعتدل بعدها حال الامير وازداد تخلقه بالاخلاق الحميدة واستمر على الطرائق الرشيدة وأوضح له الله السداد وأنار منهاجه وعرفه يمنه وبركته

دخلت عليه سنة ثنتين وتسعين ومائة فجمع (لذريق بن فارلو) ملك الفرنجه جموعه وأغار بها على بلاد المسلمين وسار الى حصار طرسونه فبعث الحكم بن عبد الرحمن بعسكره فهزمه باذن الله وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا . ثم كثر عيث الافرنج وعبثهم فى ثغور وحصون الاندلس و« الحكم » من طرف ورجاله من طرف آخر يثخنون فى القتل والقتال حتى عاد الى قرطبة ظافراً

ثم فى سنة ٢٠٠ بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الافرنج فأخذ عدة حصون وأقبل عليه (اليط) ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين

هو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان فحل بني أمية بالاندلس وأشدهم اقداما ونجدة . قال بعض المؤرخين انه كان يشبه أبا جعفر المنصور من خلفاء بني العباس فى شدة الملك وتوطيده وتمكين الدولة وتشييدها وقمع الاعداء وكان يحب الخير ويعين عليه ويراعى صنعه وينمي غرسه ويسبغ نعمته اذا أولاها ويتم عارفته اذا أسداها . من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواساة أهل الحاجات والفقراء حتى سارت بخبر خيراته الناس ودونتها الرواة

استمرت مدة ملكه ستا وعشرين سنة . قال غير واحد انه أول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة وشأنا وهو أول من جمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وأعد رباط الخيل على بابه . وكانت الجياد التى على شاطئ النهر قبلى قصره الفى فرس وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالاندلس

ومن أعجب مايروى عنه ان العباس الشاعر توجه الى الاندلس فلما نزل وادى الحجارة سمع امرأة تقول : « واغوثاه بك ياحكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا » فسألها عن شأنها فقالت : « كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت » فصنع فى قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتا منها

تململت فى وادى الحجارة مسئداً ... أراعى نجوماً مايرون تغيراً
اليك أبا العاصى نضيت مطيتى ... أسير اليكم ساريا ومهجراً
تدارك نساء العالمين بنصرة ... فانك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادي فى الحين بالجهاد والاستعداد فخرج بعد ثلاثة الى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض للعدو كانت ؟ فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها وأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد وقال للعباس سلها هل أغاثها (الحكم) ؟ فقالت : والله وشفى الصدور وانكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره . فارتاح لقولها هذا

مثل هذه النجدة الآن تعجز أوروبا بأجمعها عنها ولقد أعجزتها فعلا فى مسئلة البوير فلم تنبس ببنت شفة وابح صوت الشيخ الرئيس كروجر فرط النداء والاستصراخ . (وما أنت بمسمع من في القبور) قبور الشهوات والملاذ التى أنست الناس الفضيلة ومكارم الاخلاق وصبحتهم لا يعرفون شيئاً غير صيانة هيا كلهم في حصون الجبن حتى أصبح الصدق تقريعاً والنصح والاخلاص تضييعاً وكأنك لو نظرت لتاريخ أوروبا والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع الى المنفعة والمغانم بغير نظر الى شرف أو فضيلة

انا لو شئنا سرد الشواهد على ان مدنية أوروبا (بالقول لا بالفعل) لاحتجنا الى تأليف جديد ولكن الظن بالقراء انهم يكتفون ببعض هذه الشواهد الظاهرة والأغراض السياسية الكاذبة مما لا يوجد فى بلاد المسلمين أبداً لانهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق وابرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدن العصرى

عبدالرحمن بن الحكم

هو عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الأموى . وهو أبو المطرّف عبدالرحمن الثانى ملك الاندلس ويقال له عبدالرحمن الاوسط لتوسطه بين عبدالرحمن الأول والثالث

ولد بطليطلة سنة ١٧٦ وتولى الخلافة سنة (٢٠٩) على أثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة وولى الحكم ثلاثين سنة وتوفي سنة تسع وثلاثين ومائتين

كان عبدالرحمن أسمر طويلا أقنى الانف عظيم اللحية حازماً قوياً شجاعاً جمع الله فيه ما بين لطف الأدباء والشعراء وفضل العلماء وشجاعة القواد ومهابة الحكماء فكان نادرة زمانه

هذبه أبوه الحكم وعوده على الجلوس على مراتب الملك والسلطان لانه استعان به فى مهمات أموره من الوظائف السلطانية التى تندرج تحت الخلافة ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين فانفذه فى عظام المهام وولاه قيادة الجند فى محاربة الأفرنج وتذليل البلاد الثائرة فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب والبصر بسائر أمور الحماية والمطالبة بالحقوق مايكفى لمثل هذا المقام وحسبك انه هو الذى أخمد فتنة طليطلة باليوم المعروف بيوم الحفرة المبسوط خبره فى مواضعه من كتب التاريخ

تولى الملك بعزيمة الصلاح ومساعى النجاح وأولاه الله العز والنصر وخص أعداءه بالذل والقهر . فقد خرج عليه عم أبيه (عبدالله البلنسى) ينازعه الملك فلم يلبث ان مات وخلصت الحكومة له فصرف همه لاخماد

الفتن داخل بلاده ورد غزوات الافرنج عنها ورفع معالم العلم فيها وكان له الفوز في أكثر حروبه واستولى على برشلونه وغيرها من البلدان وطرد الفرنساويين من قطالونيا

وقف حائلا بين النوائب وبين مملكته دافعاً عنها احداث الزمان آسياً لكلومها جابراً لثلومها ففى عام توليته أخمد فتنة البيره وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة بوقعة بالس . وفى السنة التالية سير جيشاً الى بلاد (البة) مع عبد الكريم بن عبدالواحد بن مغيث فحاصرها وأحرق عدة حصون بها وغنم الغنائم وعاد بعد ان صالح أهلها على مال كثير

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الافرنج ففاز فوزاً عظيما وغزا بلادهم مرات . ووفق لاخماد الفتنة اليمانية والمضرية ببلاد مرسية ودانت له . وافتتح برشلونه مرة ثانية بعد ماانتقضت عليه وهدم سورها . ثم فتح مدينة باجه واستولى على مدينة طليطلة . ثم كانت له وقائع كثيرة مع الاسبان فى أطراف بلاده والفرنسويين وكان الفوز له فى معظمها مع الغنائم الكثيرة

كانت فى أيامه غزوات النورمنديين (١) المعروفة فى تواريخ العرب (بغزوات المجوس . أو ظهور المجوس) واختلف القوم في تواريخ حدوثها وفى تعداد غزواتها ومنهم من جعلها غزوتين والاظهر انها غزوات متتابعة لم تكن ذات شأن فى أول الامر . ثم أقبل النورمنديون في أوائل عام ٨٤٥ مسيحية بجيش جرار فى سفنهم وعاثوا فى سواحل الاندلس ونهبوا (قادس) وظفروا بالمسلمين . ثم ساروا الى اشبيلية فى السنة التالية فخرج اليهم أهلها وقاتلوهم فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا واكثر النورمنديون من النهب والسلب

(١) أهالي نورمنديا فى جنوب فرانسا وأصلهم من السويد

وعاثوا فى البلاد وعادوا الى مراكبهم ثم خرجوا منها وحشد عبد الرحمن جيوشه من كل البلاد وكانت بين الفريقين حرب شديدة فاضطر النورمنديون الى الرحيل عن اشبيلية ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل ويعيثون سلباونهبا الى أن تمكن عبدالرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده

وصلت جيوشه الى مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها عنها وتركوها فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة

كانت الخلافة بالاندلس لاتشبه غيرها من خلافات المشرق لما يلزمها من شدة الحذر وطول السهر وقلة الراحة ودوام اليقظة لان غارة جيرانها من الامم المباينة لها لاتنقطع ولان المسلمين فيما بينهم (جسم غريب) وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم والتمكن من اعادة أرضهم وملكهم اليهم والحوطة عليه . وشغلهم ان يبقوا متكالبين على الطلب ومنتهى آمالهم ان يعيدوها كما كانت لايغفلون عن ذلك أبداً وليسوا بصامتين فيحتاجون الى من ينطقهم ولا لاهين فيضطرون الى من ينبههم بل متعرضين لذلك تعرض المستميت بعزم الواجد لاالمتكلف ولا يزال حكماؤهم ينصحون به الناس على طول الأيام والناس فاعلون

هذا حال العدو المحارب . وأشد منه حال الصديق المخادع . والرصيف المنافق . وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال فقد انتقض عليه بعض عماله يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد (ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالأندلس) فكان هؤلاء من طرف وحروب الأسبان من جهة أخرى حتى استقلت ولايتا (اراغوان) و (نواره) عنه . ومع هذا فقد ترك ملكا قوياً خلفه عليه ابنه (محمد)

بلغ مرتبة تقطعت دونها انفاس المنافسين وتضرمت احشاء الحاسدين من الثأى الذى رأبه والشعث الذى لمه والعدو الذى أرغمه فبعث اليه (نوفلس) ملك القسطنطينية بهدية وطلب مواصلته ورغّبه فى ملك سلفه بالمشرق (١) (تأمل لهذا الحذق في بذر بذور الشقاق وانظر سهام المكايد النافذة) وذكر له المأمون والمعتصم في كتابه وعبر عنهما (بأسماء امهاتهما) إمتهاناً فلاقت هذه الحالة من الامير عبد الرحمن رجلا خبيراً حكيما فدفعها بدهائه وكافأه على هديته وبعث اليه (يحيي الغزال) من كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة فاحكم بينهما وصلة الحب وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر

كان واسع الرزق فى كل شئ حتى في ذراريه فقد مات عن ٤٥ ولداً ذكوراً . وكان أديباً شاعراً عالما بالشريعة وغيرها من علوم الكلام بعيد الهمة . وهو أول من شاد القصور الجميلة والمتنزهات ومهد الطرق وأتى بالماء العذب الى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وأسس ديار العلم وشاد الجوامع الكثيرة وبنيت في أيامه الجوامع بكور الاندلس وزادفى جامع قرطبة ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه (محمد)

هورابع ملوك الامويين بالاندلس ولكنه أول من أقام أبهة الملك وكان محباً للعلماء والادباء . جمع اليه ذوى الشهرة من شعراء العرب وذوى الفضل منهم . ويعترف الاوروباويون انه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجداً

لعل عبدالرحمن هذا هو الذي نقل هيئة الحكومة الى مارمز اليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير ان ينسبه لاحد (قال في كلامه على العمران

(١) يعني الخلافة الاموية بالشام التى ابتدتها منهم العباسيون

البدوى : وأما دولة ابن أمية بالاندلس فالفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيراً . وللترسيل وزيرا . وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا . وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له الخ) وهذا شئ أشبه بنظار الحكومات الآن (ولعله مبتدعه)

دخلت فى مدته صناعة الغناء من المشرق الى الاندلس بوفود زرياب المغني مولى المهدى من العراق اليها وهو تلميذ ابراهيم الموصلى فركب بنفسه اليه وتلقاه وأكرمه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعته أهل المغرب وخلف أولاداً وخلفه فى صناعته وخطوته كبيرهم عبدالرحمن ثم انقطع هذا الى أزمان الطوائف

وغير خاف ان هذه الصناعة هى آخر مايحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الاوظيفة الفراغ والفرح . وهى أيضا أول مايتقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه أوتبدله (كما هو واقع بمصر الآن) ولا مشاحة فى ان هذا الفن من أجل الفنون لانه ينفع المرضى كما ينفع الاصحاء وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدن الحديث لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والشعب وان عليه مدار صحة الامم لان الفراغ واللذة بعد الكد والعمل لابد منهما والافالمنبت هالك لامحالة

وهو أول من أحدث النقش في الخاتم بمزيد عن الاسم فكان نقش خاتمه (عبدالرحمن لقضاء الله راض) وكانت أيامه أيام رغد وهناء على مافيها من الحروب بل الفتن الداخلية وذلك لانه كان يتلقاها بفكر ورأى وثبات جاش

وحزم فلا تلبث الفتنة أن تزول ولذلك بلغ فى ملكه اتساعا عظيما وجبى مالا كثيراً وكان طروبا نخورا بجده وأعماله اللائقة فمن شعره فى ذلك

تدارك بى الله دين الهدى فأحييته وأمت الصليبا
ألاقي بوجهى سموم الهجير اذا كاد منه الحصى أن يذوبا
فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا

وكان مولعا بالسماع محباًله وهو أول لذاته . شغله عن كثير من المنكرات التى تعظم عليه بتبعتها والحمد لله

لاشك ان القارئ ينسب كلما لهذا الخليفة من الاعمال الخيرية لقوة الدين وشدة العزيمة والبحث عن عواقب الامور وفرط الروية والتبصر وأساس ذلك كله العلم والعمل اللذين فتح له بابهما أبوه

باشر فى عهد أبيه الملك فدربه فيه تدريب الحكيم فذ وليه لم يتعثر في ذيله الطويل ولم يتحمل أبوه مسؤلية الخلافة حياً وميتاً بل أبرزه للورى هبرزيا لايفرى أحد فريه

صرف بصره الى وطنه . وعرف مايجب له عليه . فحدق النظر . واستطلع الخفايا واستجلى الدقائق . فتجلت له دعامة وجوده وروح حياته . فرأى انه بالفضائل يحيى . وبالرذائل يموت ويفنى . وباختيار الامناء الاكفاء من الرجال يعزّ ويغنى . وبالدخلاء يذل ويشقى

تجلى له هذا المظهر فشعر بأن له شأنا عظيما في الوجود وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون فاندفع الى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل فأصبح من أحسن الناس سيرة

وانما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

عبد الرحمن الناصر

هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الاندلس من الامويين ويعرف بعبد الرحمن الثالث. ولد فى سنة ٢٧٧ وتولى الحكومة سنة ٣٠٠ وتوفى سنة ٣٥٠

وجد الاندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين بسبب ان من تولي الاندلس بعد عبد الرحمن الأوسط (كمحمد) و (المنذر) و (عبدالله) لم تصافيهم جيرانهم ولم تمهلهم أيامهم فلم تطل مدتهم فى الملك. ولم تطل أيديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك فاشتغل فى اطفاء تلك النيران واستنزال أهل العصيان مدة استوعبت نيفاً وعشرين سنة من أيامه حتى استقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء وفقد الرخاء واشتعال نار النفاق وضيق الآفاق فاذا به بسط العدل المشهور بالسيف المنصور وحقن الدماء المسفوكة وأمن السبل المخوفة وأحرز الأموال المنتهبة وحصن البلاد الخربة وجمع بامامته الكلمة بعد افتراقها فهو الذى رفض الدعة وهى محبوبة وترك الرأفة وهى مطلوبة لتلين له الاحوال بعد الشدة وتكسر من شوكتها بعد الحدة والحمد لله على آلائه

ومن الغريب أنه كان فى عهد توليته شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واجتازها دونهم كأن الله هيأه وأعده لما أراده من الخير على يديه لهذه البلاد

هو أول من تلقب بألقاب الخلافة وتسمى (بأمير المؤمنين) وكانوا من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالامر كما تقدم الكلام وذلك عند ما تحقق ان أمر

الخلافة بالمشرق قد ضعف واستبدت على الخلفاء مواليهم والتاث أمرهم على جماعة المسلمين وتطاولت أيدي الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من خادمه مؤنس) فظهر بمظهرها فى مجالس الحشد والحفلة ومواطن الأنس والعظمة مستكملا شعارها من الاكبار والاعظام والاجلال والاكرام

مدت اليه أمم النصرانية المجاورة لمملكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والاذعان خوفا على أنفسهم وممالكهم من مطوي أفكاره ومخبوء تدابيره السديدة وآرائه المفيدة فصفا لهم إذ صافوه وأمنهم اذ سالموه تحرزاً من الوقوع فى اشراكه وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات (فشتاله) و (بنبلون) وماينسب اليها من الثغور الحوفية . فكانوا يقبلون يده ويلتمسون رضاه ويحتقبون جوائزه ويمتطون مراكبه وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ثم تقام لذلك الاحتفالات الشائقة وتتلى فيها الخطب الرائقة بما يدل على فخامة جاه الدولة وبيان مايخطبه الغير من مودتها ثم يغدق على أولئك الوفود بالعطايا فيخرجون من الحضرة ويرحلون عن البلاد وقد اشتد عجبهم وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان وعظمة الملك مما هو مبين فى مواضعه

سما الى ملك العدو فتناول «سبتة» ونقل «الفرضة» من أيدى أهلها وأطاعه بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وفتح طليطلة . وقرمونة . واشبيلية . وكثيراً من البلاد العاصية والنواحى المستقلة

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما لقى من عنت الخوارج وتمرد العصاة وطمع ملوك الاطراف من المسلمين وقتال أمراء النصارى في أستوريا . ونواره . وملكى لاون أوردينو الثانى . ورامير الثانى ومحاربة الفاطميين في افريقيا بعد ظفرهم بالملوك الادارسة وايغال جنوده فى السودان المصري ومع ذلك فقد خرج ظافراً من معظم تلك الحروب ودوخ البلاد واخمد الفتن وظفر بالمنتقضين عليه

انظر لما شيده من الآثار وأقامه من علائم المجد مع هذه البلايا والمصائب الداخلية والمحن والفتن الخارجية الملتفة حول كرسى خلافته لايكاد يلتفت الى واحدة منها إلا وتستصرخه أخرى

يده بيضاء على العلم والصناعة والتجارة فازدادت بذلك شهرته ومكانته فهو الذى أنشأ المبانى العظيمة وشيد المساجد والجوامع والمدارس الفخيمة ومن أشهر هذه الاعمال الخطيرة (مدرسة الطب) وهى أول مدرسة أنشئت فى أوروبا بأجماع المؤرخين (والمكتبة الشهيرة) بغرناطة وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الارض أودعها ستمائة الف مجلد و(الاسطول) البحري الذي غزا به افريقيا .

شيد مدينة (الزهراء) وكأنما أحاطها بشعار التعظيم وألبسها رداء التكريم وناهيك ببلدة استدعى لاقامتها وبناء قصره (دار الروضة) فيها عرفاء البنائين والمهندسين من كل جهة فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينيه وأقيمت على ٤٣٠٠ عامود من المرمر الخالص وصرف فى بنائها ٧٥٠٠٠٠٠ دينار (١) واستغرق العمل فيها خمس سنين

(١) قيمة الدينار تساوى نصف ليره انجليزية تقريبا

جلبوا اليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور سلفائه وأنفقوا له تلك المبانى وأعظموها فى نظر كل انسان فقاتت لعلو درجتها ماتقدمها من الآثار . جمعت عجائب البناء وغرائب الاشياء فحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار كانت منتزها للانسان ومرتعا للحيوان ومسارح للطيور فهى للملاحة والحاجة والفطانة والنزاهة ثم أقام دار الصناعة (١) وجمع فيها من آلات السلاح للحرب مالا يوصف وأحيى بواسطتها ميت الاعمال الصناعية ثم جلب اليها ماقدر عليه من الخارج أيضا كصناعة العاج والآبنوس والصفر ومواد التلبيس والترصيع والتطعيم بالفضة والذهب التى لاتزال آثارها باقية للآن فى تعاريج أبواب القصر. والمدينة مجلبة للحسرات على مواضى هذه الايام

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على عظيم الشان

ذكرت جماعة المؤرخين سبباً لطيفاً لبناء هذه المدينة (الزهراء) قالوا ان الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيراً فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب فى بلاد الأفرنج أسيراً فلم يجد فشكر الله على ذلك وبنى هذه المدينة (فلله من هذا الفكر السامى الذى صير ماله بين أن يجلب به على الامة الشرف العظيم أو يقيم لها به الاثر الفخيم)

ماكان أحوج هذا الملك العظيم الى السلامة التامة من جميع وجوهها ليكون متساوى الفخار بين سره وجهره وعالنه وباطنه ولكن أين تذهب خيانة الخونة الذين ليس لهم شغل إلا طمس المعالم ودروس المآثر للاغراض الذاتية

(١) حرفت هذه اللفظة حتى صارت (ترسخانة) وهى المعروفة

فيهتكون مايحق أن يصان من حرمة الملك ويخرقون مايجب أن يحفظ من هيبة السلطان . فهم الساهرون إذا رقد الناس المستيقظون اذا ناموا ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين

كان الخليفة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه فيسير الى دار الحرب ليثخن فى العدو حتى يدعوه للطاعة . لاشغل له الا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى واقامة ميزان عدله فيها

كبر على الخونة والمردة ان يوطئ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم تطأه قبل في أيام أسلافه . وحدث انه كان للخليفة عبد الرحمن وزيراً اسمه (أحمد) نقم عليه أمرا وأتهمه بخيانة فقتله . وكان لهذا الوزير أخ يدعى أمين بن اسحق من بنى اسحق أمراء الاندلس المروانيين (عمال الأندلس فى عهد بني أمية وبنى مروان) فحقد اسحق على الخليفة وعصى فى مدينة (شنترين) سنة ٣٢٥ وأحدث بها ثورة عظيمة . ثم التجأ الى (راد مير) ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين وكانت بينهم الواقعة المشهورة بواقعة (الخندق) ذهب فيها من عسكر المسلمين خمسين ألفاً أو يزيدون بخيانة هذا المارق والاعجب من ذلك أنه استأمن الى الخليفة عبد الرحمن بعد أن تخلص من (رادمير) ووسعه حلمه وكرمه وقبله أحسن قبول

بعد هذا الحادث قعد الخليفة عبد الرحمن عن الغزو بنفسه وصار يردد الصوائف(١) فى كل سنة ثم جهز عسكراً مع عدة من قواده الى الجلالقة وكان له عدة حروب هلك فيها من الجلالقة خلق كثير

(١) الصوائف جمع صائفة وهى غزوة الروم صيفاً لقلة الثلج والبرد

أنظر (لولا هذه العثرة) كيف يكون ملك الاندلس مع خليفة مثل هذا جمع أشتات الفضائل حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ورفع منار العلوم والفنون وأدخل فى الاندلس مفاخر كل جهة وزينة كل بلد وانقاد له المغرب الاقصى وحث الناس على الادب الدينى فانغمسوا فيه فترقت نفوسهم وسمت الى مراقى الفلاح ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الامم وحياتها فبعث الامة فى خلق جديد

لطيفة له - (أقصها عليك تعلم منها قدر احترامه للعلماء وقدر إعظام العلماء أنفسهم في أيامه لما ذاقوه من لذة العلم وأحسوا به من شرفه) - اشتاق مرة للفقيه الامام أبى ابراهيم فطلبه وكان بالمسجد المنسوب لأبى عثمان يسمع طلبته الحديث الشريف فبعث اليه الخليفة خادماً يدعوه اليه فلما جاءه وبلغه رسالة مولاه قال له السمع والطاعة ولا عجلة . ارجع الى أمير المؤمنين واذكر له عنى انك وجدتنى فى بيت من بيوت الله مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيدونه عنى وليس يمكنني ترك ماأنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضاء الله وطاعته فاذا انقضى مشيت اليه ان شاء الله . فمضى الخادم ولم يك الا ريثما أدى جوابه وعاد يقول أنهيت الى أمير المؤمنين رسالتك فقال جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين واذا أنت أوعيت فامض اليه . وكان ذلك

فحبذا الحاكم والعالم . هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون الذين زينوا وجه الدين وانصرفوا عن الفخفخة الباطلة الى الصراط المستقيم وعلى فعلهم هذا بني القائل قوله

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

فتى علماؤنا لهذا السر يفقهون وبهذا القليل يتعظون

تهذبت فى أيامه الأمة فجمع ما يؤثر عن أهل الاندلس من نوادرهم وحكاياتهم فى العدل . والوفاء . وحسن الاعتذار . والقيام بحق الاخاء وعلو الهمة فى العلم والدنيا . والذكاء . واستنباط العلوم واستخراجها . وحب العلم . واللطف . ورقة الاخلاق . والقوة والشجاعة . والملح . وأجوبة الملوك . والظرف . والبلاغة . وعدم احتمال الضيم والذل . والانفة . والجود والفضل . وسرعة البديهية . والعفو وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخل تحت عنوان مكارم الاخلاق جميعها . نما ذلك فى مدته فهو اما باذره أو غارسه أو منميه أو مستثمره رحمه الله

مضت أيام هذا الخليفة على الاندلس وكانما هى خيال حالم أو حديث نائم تولاها ولم يكن في بيت المال مايسد شيئاً من نفقات الجند وغيرها ثم توفي فترك من الاموال المدخرة شيئاً عظيما فضلا عن الملطان الكبير والمجد الباذخ حتى لقبه الافرنج بالكبير والعظيم

عمر مملكته بالعدل والاحسان فنمت البركة فيها وانفسحت نفوس الرعايا للسعى والاكتساب وابتعد عن الظلامات المفسدة للعمران من تكليفهم بالاعمال وتسخيرهم بغير حق أو أخذ ماباًيديهم بأبخس الاثمان فقامت الدولة وعظم عمرانها لأمان الناس على أموالهم . وحرمهم . ودمائهم . وأسرارهم وأعراضهم

كانت الاندلس فى زمانه زاهية بالمعارف والعلوم زاهرة بالثروة والغني يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم . فأين كثرة الصناعة والتجارة والمعامل الحريرية والمصانع الغريبة وورش التطريز والوشى والنسج . ومع هذا الكمال الذى

لايفضله الا الكمال الالهى فقد وجدت بعد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده يعدد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته فاذا بها أربعة عشر يوماً

نقب الكثير من طلاب الاخبار على هذا الاثر فما عثروا عليه وجال فى فهم الكثير منهم تأويل ذلك أو استنتاجه فذهبوا أيضاً مذاهب شتى والذي يدل على الخبر ان صح ان تلك الايام التى عدها هى أوقات فراغه من أشغال الملك لان الملك بنى على المشاغل وهى لاتنتهى فاذا تم للملك مايريد وأمكنه ان يرصد لنفسه وقتا يرى نفسه فيه خاليا عن حاجات المنصب الذى أقامه الله فيه فتلك سعادة مافوقها سعادة وقد قال قوم غير ذلك وكثر القول حتى ألف بعض الاجانب رسالة فى تلك الايام ذهب فيها مذهب القصص و « الرومان » فأضعف هذا التخمين ذلك اليقين والله أعلم

وخير مافى المسئلة ان ينظر العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء في الدنيا والصعود . ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثه أيام ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة لاإله الاهو . ثم يستكثر فى أعماله من كل خير وبر فما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

لاتغبطن الأقوام يوماً على ما أكلوا خضما وما سربلوا
يذبل غصن العيش حقا ولو أضحى ومن أوراقه يذبل

الحكم المستنصر بالله

هو الحكم المستنصر بالله ابن الخليفة عبدالرحمن الناصر وولى عهده من بعده . اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعبائه أتم قيام وأنفذ الكتب الى الآفاق بتمام الامر له ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته . وضبط قصوره . وترتيب أجناده وأول ماأخذ البيعة على أهل القصر ثم على اخوته وكانوا يومئذ ثمانية فوافي جميعهم وجلس وجلست الناس للبيعة طبقة طبقة كما هو مفصل فى مواضعه فلما تمت أذن للناس بالانفضاض ثم أخذ هو وأخوته فى تشييع جنازة الناصر لقصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء

وفدت عليه الوفود للبيعة والتماس المطالب وقدمت من أقاصى البلاد فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر رضى الله عنه فى سلوك سبيل القصد واتباع طريق الرشد واحتذاء حسن الاثر حتى قالوا ان الاندلس لم تفقد الاشخصه وصح عليه قول أبى الحسين فى ممدوحه أبى العشائر

يا ابن من كلما بدوت بدالى ... غائب الشخص حاضر الاخلاق
لو تنكرت فى المكر عليهم ... حلفوا انك ابنه بالطلاق

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة وذوى الدين والورع والدعة والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية والعلماء الجامعين للرواية والدراية حتى ظهر فى عيون الاعداء والاصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية جمعت أنخر الآثار العظيمة والنعم الزائدة فمن مماليك كأنها الاغصان ناشية على ظهور خيول صافنة كاملو

الشكة والأسلحة يشجى بهم حلق العدو المناوي والخصم المنازل والسيوف والرماح والتراس والقلانس الهندية والدروع والخوذ المختلفة الاجناس فكان لذلك مفتخر جليل ومحتفل جميل تضاعف به اغتباط قوة حرمة الملك واستطال به عماده على جميع المملكة

غزا بنفسه لأول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين طمعوا في الثغور واقتحم بلد (فردلند) وفتح (اشتبتين) عنوة فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزى غالباً مولاه بلاد (جليقيه) وسار الى مدينة سالم لدخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم وأوطأ العساكر بلد (فردلند) وغزا (شانجه بن رادمير) ملك البشكنس وقد ساعده ملك (الجلالقة) فهزمهما وقصد بلاد برشلونه . وبلاد القومس . وعظمت فتوحاته وظهرت همة قواده ومرابطي ثغوره فى كل ناحية وكان من أعظمها فتح (قلمريه) و (قطوبيه)

ثم دخلت سنة ٣٥٤ فابتنى حصن (عرماج) وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس (في الاطلانطيق) وأفسدوا (اشبونه) (١) فناشبهم أهلها القتال فرجعوا الى مراكبهم وأمر الحاكم القواد فخرجوا لحفظ السواحل وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الاسطول ونال منهم من كل جهة من السواحل

تم له ما أراد مع ملوك البشكنس وغيرهم وعاهد (لذريق) ووفدت عليه أمه بهدايا ملوكية عظيمة ووصلته ووصلها وحملها أحسن محمل وأجزل عطاءها

---

(١) ليسبون قاعدة مملكة البورتوغال الآن

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الاقصى والاوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوه ومكناسه فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بنى الحرز وبنى العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وجلاهم الى الاسكندرية

أما خلاله الشخصية فقد كان آية فى الفضيلة. سمع من اجلاء وقته وأجازله ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها جماعا للآثار الشريفة والاسفار الكريمة والكتب القيمة على اختلاف أنواعها فسبق من تقدمه وجمع مالم يجمعه أحد من الملوك قبله فأقام للعلم سوقا وجدد للعلماء شوقا وظهر بهذا المظهر فجلبت اليه بضائع الفضل من كل قطر وحسبك بخزانة جمعت من الاسفار ماقتضى لاستيفاء فهرستها (أربعة وأربعين جزءا). جمع مقدارا ضاقت خزائنه عنه وكان ذا غرام بها وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك واغراض الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان فى المعرفة بالرجال والاخبار والانساب ثقة فيما ينقله. ومن أشد مايتعجب منه وقد اتفقت على روايته الرواة انه قلما يوجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة فى أى فن كان وعليه تخاريج بغرائب لاتكاد توجد الا عنده

أتحفه أبوه (الخليفة الناصر) بأحسن مايتحف به والد ولده فقربه من العلماء وقرب العلماء منه ومكن بينه وبين كل وافد على الاندلس من المشرق من العلماء فكانت نفسه روحانية صرفا. وفد أبو على القالى صاحب كتاب الامالى على الاندلس من بغداد فأكرم الناصر مثواه وأحسن منزلته وأعلى قدره واختصه بالحكم فأورث أبو على الاندلس علمه وأفاد الحكم بأحسن ماعنده

قويت عند الحكم رحمه الله مادة حب العلم حتى كان يبعث بالتجار الى الاقطار ومعهم الاموال لشراء الكتب واستجلاب المصنفات من الاقاليم والنواحى باذلا فيها ماأمكن من الاموال مما لا ينفقه غيره حتى جلب للاندلس مالم يعهده علماؤها . هذا كتاب الأغانى بعث فيه لأبى الفرج الاصفهاني مصنفه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخته قبل أن يخرجه الى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الابهري فى شرحه لمختصر بن عبد الحكيم

جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ولم تزل بقصر قرطبة حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم اليها عنوة ولاحول ولاقوة الابالله

يطيش الانسان عند مايجد خليفة مثل هذا استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والمعزة والقوة فى الدين وجماعة المسلمين وعلا به كعب أمرائهم وسمت نفوسهم بواسطة آدابه الى كل عمل شريف وأفاضوا بالتحدث فيه وكانت للخطباء والشعراء ميادين ومقامات يطول القول فى اختيارها . وسيرته مجهولة عند كثير من الناس وعند ناشئة الشرق بأجمعهم فان سئلوا عن ملك عالم مثلا فأقرب مايحدثونك بسيرة (كارلوس الاعظم) أو (لويس الرابع عشر) نعم انهما كانا فى تعضيد العلم وتشييد أركانه آيتين ولكنهما ليسا بمفخر المسلم ان أراد الافتخار وأولى به ان يلم بخبر نفسه ودينه وملته وتاريخ مجده وحياة خلفاء الاسلام ففى ذلك من الخير الكثير مايربو على ماعلم ويزيد على ماحفظ فلا يكون مصداقا لقول الشاعر

(كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحا)

يصح ان تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الاندلس ذات الدولة العظيمة والثروة الوافرة والمجد الباذخ لانه لما توفى الحكم رحمه الله فأول ماحدث ان قتل المغيرة أخوه وهو المرشح للحكم وولي بعده ابن الحكم هشام وكان صغيراً سنه تسع سنين ليتم لابن أبي عامر فى الدولة مايريد كما سيجيء تفصيله ان شاء الله . ثم ولى المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة ثم انتهى الامر بسقوط الدعوة للخلافة الاموية واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى

كانت الدولة الاموية من أعظم الدول مكانا وأشرفها موقعاً ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة وللامة العربية خاصة يكاد السامع بها لايصدق بزوالها كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام : زراعة متقنة وصناعة رائجة . والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقواداً . وأبطالا شداداً . وفلاسفة مرشدين وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين . وشعراء مصنفين وصناعا مهرة مبرزين فى فنون البناء والتصوير والنقش والتزيين لاتزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم وشهادة العدو المناوى أعدل شاهد

حجت اليه ملوك الارض قاطبة يستشرفون معاليه بأجلال
يصد مطمع من ناواه مبتئسا يعييه عن حذو تمثال بتمثال

ولكن ماالحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة ونزول بلاء سوء الاخلاق وانقراض الدول وانحطاطها بيد أهلها . يحق للسائل أن يسأل أين ذهبت هذه العظمة وكيف وهى هذا الركن العظيم وماهو ذلك الشئ الجسيم الذي أدى لهذا الاختلال السريع فى الخلافة الاسلامية فى المغرب والظاهر

ان السبب فى ظهور روح الشقاق والخروج على السلطان من الامة والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى والانتهاج لغيره ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبد الرحمن الاول (الداخل) عن البيعة وميله (لولاية العهد) فقد عهد بالخلافة لمن بعده من ولده وخص بها (هشاما) الاول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله وخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه فتغلب عليهما وعفى عنهما ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطالبا قسمة البلاد معه . ويقولون ان نار هذه الفتنة كانت مضطرمة ولكن قوة الحاكم القائم بالملك أوقفت الناس عند حدها زمنا وردتهم على أعقابهم عهداً ثم لما انصرم هذا العصر حدث ما حدث وانه لو جري المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء فان هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعاً كبيراً وحدث كل نفسه فى خلوته بما حدث فكانوا يخفون أمرهم فى إبان القوة خوفا على مناصبهم ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد فى ظاهر الامر ويستعدون لنوال مقاصدهم سراً ويتربصون بالخلفاء الدوائر حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سراقسطه. وطليطلة . وجوسقة . ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها وأورثتها خبالا بوبالها وقويت الامراض حتى أضعفت خراج الدولة (وكذلك الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والضعف يخفيه) وفى الحقيقة ان منهاج الخلافة الشرعى - وهو جعل الحل والعقد والنكث والفتل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة - يحبب للامة معالى الامور وهذه أيام الخلفاء الاربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك . والعدول عن سير هؤلاء الخلفاء يدفع بالامة الى السفاسف ويحط من مهابة صاحب السلطان ويخفض من شوكته ويستفحل فى

عصره أمر الثوار والخارجين عليه لانهم يلحظون من ذلك انه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد وأهمل أمر الصانع والزارع وان الامة أصبحت فى مدته أتباعاً لكل ناعق وان التربية القومية مفقودة بالمرة ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب الذين هما من أهم ماجاء به الدين الحنيف الاسلامى فاذا وقع ذلك فليرتقب كل عناء وبلاء

ملوك الطوائف

هذا العنوان يصح ان يطلق على الملوك من أصحاب الاطراف الذين يملكون كل في بلاده على أثر انقراض دولة قوية . وهو حال يعرض لكل دولة متى أحطت حكامها وأمراؤها من شأنها وأضعفت من صولتها حتى علم العدو بمكانها من الضعف وأصبح أمر انحطاطها ظاهراً والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة وتأليف الاهواء المختلفة وكف الا كف العادية ورد جماح العزائم الفاسدة . يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى وجيد القريحة وسديد النظر وصحة اختبار الاحوال وحسن اختيار الرجال وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الاصول الشريفة وتتعلق بهذه الفصول الرفيعة فاذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ولا مستقل بما قلد ولا نافذ الامر فيما هو له أهل من الامر والنهى ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده فهناك الانقسام وهناك ملوك الطوائف

ظهرت ملوك الطوائف على أثر انقراض (الدولة الرومانية) . وقامت كذلك على انقاض (الدولة الكيانية) فى بلاد الفرس بعد ان قتل « دارا » آخر ملوكها واستولى « الاسكندر » على مملكته . ونهض بها فى المغرب أيضا أهل السوء الذين لا يميزون طالب الحق من منكره وجاحد الصدق من منتظره (حال اختلال الدولة الاموية) . كانت ملوك الطوائف بالاندلس عقب انتثار عقد الخلافة الاموية وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها وما كان من خلع الجند لهشام آخر خلفائها واستبداد الامراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالاطراف واقتسامهم خططها وتغلب بعضهم على بعض

واستقلال قوم على قوم واشتداد الفرقة بينهم وبلوغهم فى الجهل درجة أدت بهم الى التزلف لاعدائهم ملوك أسبانيا فيدفعون الجزية لهم (عن يد وهم صاغرون) صونا لملكهم (ساء مايتوهمون) ويأنفون من ارتباطهم مع بعضهم وهم من عنصر واحد ودين واحد وملة واحدة

هدمت الدولة الاموية (بعد ان كانت أرفع الدول عماداً وأعظمها شأنا وأضخمها سلطانا وأكثرها جنوداً وأمدها سلطنة وأعلاها ذكراً وأبعدها اسما) بسبب سوء الخلال وفساد الطباع وخصال السوء ودناءة الاخلاق وخبث السرائر والطباع التى خالطت القلوب بتغرير الدخلاء وفساد المفسدين من أعدائهم . مازالوا بهم حتى أنسوهم خاصة وعامة مكارم الاخلاق فلاوفاء بعهد ولا امانة فانقلبوا على بعضهم وجعلوا بأسهم بينهم وفشت كراهة الاموى للقرشى وتحول الامر من المضري الى اليمانى

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

تفرق ملوك الطوائف واقتسموا الاندلس فتجزأت بعد ان كانت مجتمعة وأصبح بأشبيلة وأعمالها (محمد بن عباد) وبيطليوس وأعمالها (محمد بن عبدالله المعروف بالافطس) وبطليطلة وأعمالها (ابن بعيش) وبسراقسطة وأعمالها (سليمان بن هود الجذامى) وبطرطوسه وأعمالها (لبيب العامرى) وبلنسيه وأعمالها (المنصور المغافرى) وبالسهلة وأعمالها (عبود بن رزين البربرى) وبوانيه وأعمالها (الموفق العامري) وبمرسيه وأعمالها (بنو طاهر) وبالمريه وأعمالها (خيران العامرى) وبمالقه وأعمالها (بنو حمود) وبغرناطة وأعمالها (حبوس الصنهاجى)

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية وتباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك

(كأنها أحسنت صنعاً) فأصبحوا طرفاً فى الترف ونهاية فى الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الالقاب والنعوت وجعلوا لهم حجابا يتكلمون عنهم وهم وراء الستر وصح عليهم قول (شارل مارتيل) حينما فزع اليه سكان فرنسا ليستشيروه فى مايفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبدالملك سنة ١٠٥ (امهلوا العرب حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا من المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض وتفارقهم هذه الصفات التى تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ثم خذوهم ببعضهم)

أخذ ملك الاسلام في الاندلس فى التضعضع وملوكه فى التفرق وحدث منهم ما أوجب علماء الامة وأمناء الملة ان تفتى بجواز الحرب معهم لانحرافهم عن الاستقامة ومساعدة بعضهم للاسبانيول وظهر فى اثناء ذلك أمر يوسف ابن تاشفين فكتب اليه المعتمد بن عباد أمير اشبيلية يعلمه بحال الاندلس ويسأله النصر والاعانة ثم طال به المهد لاشتغال يوسف بن تاشفين بالفتح فذهب اليه والتقى به وكان ما كان من دخوله الاندلس وحربه مع (الفونس السادس) ملك قشتالة فى واقعة من أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالاندلس ووفقه لامتلاك بعض البلاد ونفوذ الكلمة فى المغرب ضابطاً لمصالح مملكته مؤثراً لاهل العلم والدين كثير المشورة لهم حتى ان الامام الغزالى رضى الله عنه لما سمع بسيرته عزم على لقائه ولكن الموت حال بينهما

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده ولم يكن فيهم من أهل الحوطة والصون ما يكفى لتنكيل أعداء الله والدولة طائحة فى هوة الهلاك فانقرضوا فى سنة ٥٤٢ وقامت دولة بنى الاحمر وهى آخر الدول الاسلامية فى بلاد الاندلس ومنها استرجع الاسبانيول ما كان بأيدي المسلمين وبهم انقرضت الدولة

الاسلامية من اسبانيا . لابأس بأن نلم بعض الالمام بشئ من الاسباب الظاهرة التى كانت سببا لهذا التفرق والانقسام . آل الحكم الى هشام بن الحكم وهو صبي صغير لا يتجاوز عمره تسع سنين مضعف عاجز عن القيام بالملك فقام به كافله من وزراء أبيه (أبو عامر) فحجب الصبى عن الناس واستبد بالملك واستحكمت له صبغة الرئاسة وتحول الملك اليه وآثر به عشيرته وأبناءه وسما به أمل التغلب فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقطع بعضهم ببعض وصار كاعظم مايكون ملكا وسلطانا

هلك . والخلفاء من بعده ملعبة لاعب لانه جدد فى الاذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية وحمل الخلفاء على القناعة بالابهة واللذات وانساهم عهد الرجولية فقامت الناس من بعده فخلعوا هشاماً وقتلوا ابنه ثم ولوا الحكومة عبد الرحمن المرتضى ثم قتلوه وهكذا المستظهر والمستكفى ثم خلعوا هشاما وأمية بن عبد الرحمن الذى انتهت به الخلفاء فى الاندلس وعدتهم ستة عشر خليفة فى مائتين وأربع وثمانين سنة

تدمع عين القارئ من شؤم ماجرى فى هذه البلاد وسوء ماوقع بها أكثر مما ضحكت سنه وانشرح صدره سروراً بدخول طارق بن زياد أولا وموسى بن نصير ثانيا وما شيدا فيها من دعائم المجد واعلام الهدى

ان حزنا فى ساعة الفرقة اضعاف سرور فى ساعة الميلاد

قاتل الله الجهل والشقاق ! أبادا هذه المملكة بعد أن كانت مجتمع أعلام الانام ومقر سرير الخلافة ومركز الكرماء ومعدن العلماء فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالا بحال وفتحا بفتح لينكشف له ماحدث وليتحقق ماجرى

قامت دولة بنى الاحمر المنسوبين الى سيدنا سعد بن عباده سيد الخزرج ونيران الدسائس مشتعلة بيد الاعداء وقد كثر أمر الثوار وما زال الفشل مستمراً بين العدو مرة وبين المسلمين وبعضهم أخري والقائمون بالامر بعضهم يقتل وبعضهم يخلع والمدن والقري فى فتن وخطوب يطول شرحها والبلاد تنقض من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدي اليه الشقاق حتى لم يبق لبنى الاحمر الآ غرناطة وأعمالها فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتاله واراغون تمده (أوروبا) فلم يكن منهم الا انهم أفسدوا الزرع وقطعوا الاشجار وهدموا القرى وشددوا الحصار على المسلمين الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل المطعوم والطاعم واشتد الغلاء وعظم البلاء فلم يكن من أهل العلم والوجاهة الا ملاقاة السلطان أبو عبد الله فاجتمع الناس اليه ورأوا ان ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى واتفقوا على شروط عقدت ثم قرأت ووافقوا عليها وكتبت بها البيعة ونزل السلطان من غرناطة عن كرسيه ولا حول ولا قوة الا بالله

اشتملت هذه الشروط على سبعة وستين شرطا منها (تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال . وإقامة الشريعة على ما كانت عليه . فلا يحكم على أحد إلا بشريعته ولا يولى على المسلمين نصرانى ولا يهودى وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يجبر أحد على ترك دينه ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل عما هو قائم به الى آخر ماهو مدون بها من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين)

وافق كلهم على هذه الشروط حتى صاحب رومه ووضع خط يده عليها ولكن الاسبانيول لم يراعوها إلا ريثما تقدموا فى الامر وتمكنت قدمهم

وعلموا أن لاناصر للمسلمين من ظلمهم فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهادات خصوصاً لما تشكلت المحكمة المعروفة بمحكمة (التحرى القسيسى) (انكيزسيون) فكان لها من القسوة مايخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية

أنشئت هذه المحاكم بأمر الباباوات (مصدر الرحمة والاحسان) خدمة للدين فى ظاهر الامر ولكنها سياسية باطناً فأتى الاسبانيول أعمالا بربرية وحشية فأحرقوا الزرع وهدموا الدور وغيروا وبدلوا بالمعالم الثابتة والآثار الجميلة ظلما وعدوانا فاذا آثار المسلمين بتلك الاطراف بائدة لم يبق منها إلا ماصح عليه قول القائل

كاد الليالى وكادته مجالدة ... وانكف عاديهما من بعد تقتال

ثم انثنت وبها من صبره حرق ... وان كسته لكيد ثوب اثمال

كلت يد الاعداء عن إبادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ففيه للان بقية يندهش منها الانسان تدل على المعارف والفنون التى كانت فى تلك البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر والمبانى والمدن والدساكر وعجائب الرسوم ودقة النقوش وأحكام البناء ان أهلها بلغوا النهاية فى الارتقاء والغاية فى مدارج العلاء وتنذر الناس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخة ويحط الى حضيض الثرى اذا كان العلم يرفعها للثريا

لايستطيع انسان ان يجحد حسن حال أسبانيا فى عصر الدول الاسلامية لان مؤرخى الغرب اتفقوا مع مؤرخي العرب على ان الاندلس كانت فى مدة الدول الاسلامية فى رواج عظيم وانها اشتهرت في خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهاراً لم يكن لها من قبل ولا أتى لها من بعد لاعتنائه بالمعارف

وانشائه المدارس وتنشيطه الصنائع وتوسيعه دائرة الزراعة حتى ذاع صيتها وتقاطرت اليها الطلاب من كل البلاد وسادت على العالم . وقد اعتمدنا في نقل هذه العبارة الصغيرة التى يؤخذ منها ما كانت عليه وما صارت اليه من دائرة المعارف فى الكلام على نقطة أسبانيا صحيفة ٣٣١ جزء ٣ لاننا متحققين بأنها تستقى وتستمد فى نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية . قال المؤلف « ان الصناعة فى أسبانيا كانت ذات رواج عظيم فى القرون الماضية واشتهرت بها فى القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة فى اشبيليه وغرناطه وبياسه والاجواخ المصنوعة فى مرسية والاسلحة المصنوعة فى طليطلة (غير ان جلاء اليهود والعرب من أسبانيا وحصر حقوق البيع والشراء بمصنوعات معامل الحكومة والرسومات العظيمة التى جعلتها الحكومة على مصنوعات المعامل الخصوصية التى كانت تتضاعف بطمع مأموري الرسومات سببت سقوط الصناعة فى أسبانيا)

كان فى اشبيلية فى القديم ١٦ ألف محل لصناعة الحرير فعلتها ١٣٠ ألف شخص ولحد سنة ١٦٧٣ لم يبق منها سوى ٤٠٥ محلات . وكان فى شقوبيه معامل يخرج منها سنوياً ٢٥ ألف شقه من الحرير وفى سنة ١٧٨٨ لم يخرج منها الا ٤٠٠ شقه فقط اه

وعلى هذا القدر يقاس . والواقف على تواريخ أسبانيا يعلم ما كان لليهود فيها من سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والاسلام وان الكثيرين منهم كانوا يتقنون العلوم العبرانية أى اتقان . ولم يقل أحد بأن العرب أذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الاسبانيولية بل وقع الامر على العكس فان المؤرخين على اجماع بأن أعظم الاسباب التى

سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى هذه البلاد ضد العرب هى ان الدول الاسلامية حفظت لهم استقلالهم فلم يعسر عليهم ان يكونوا مملكة بعد . ومن هذا أيضاً مافعلته الدولة العلية العثمانية مع تبعتها من غير المسلمين فى الروملى وغيره . حفظت لهم كيانهم فضلا عن استقلالهم فلما وثبوا للخروج عليها باغراء الدول لم يجدوا مايعوقهم عن العمل لغرضهم لانهم مجتمعون متحدون

(تم الجزء الثاني)

فهرست

الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام

صحيفة

٢ نبذة تاريخية على انتقال الخلافة للعباسيين

٨ أبو مسلم الخرسانى

١٧ أبوجعفر المنصور

٢٨ المهدي أبوعبدالله محمد بن المنصور

٣٥ هرون الرشيد

٤٤ المأمون

٦٢ المعتصم بالله

٦٧ المتوكل على الله جعفر

٧٤ نبذة تاريخية

٨٧ الامام أبوحنيفة النعمان

٨٤ القاضى أبويوسف

٩٠ الامام مالك

٩٤ الامام محمد بن ادريس الشافعي

٩٩ الامام أحمد بن حنبل

١٠٢ نبذة تاريخية عن مصر

١٠٨ المعز لدين الله

صحيفة

١١٧ عبدالرحمن بن معاوية
١٢٢ الحكم بن هشام
١٢٦ عبدالرحمن بن الحكم
١٣٢ عبدالرحمن الناصر
١٤٠ الحكم المستنصر بالله
١٤٧ ملوك الطوائف

JAN 30 1981

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU17705088